أيوب مدكوري



الجزء الأول من ثلاثية الإنعتاق

عصير الكتب


رائحة الرم



الكتــــاب : رائحة الدم

المــؤلــف : محمد أيوب مدكوري

تصميم الغلاف : أحمد الصباغ

تدقيق لغوي: عبد الله أسامة

تنسيق داخلي : سمر محمد

الطبعة الأولى: ينـاير 2019

رقم الإيداع : 2017/26942

I.S.B.N : 978-977-6541-36-8

المدير العام: محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس

01150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

عصير الكتب للنشر والتوزيع



الخير ضد الشر، الماء ضد النار، والإيمان ضد الخوف

محمد أيوب مدكوري



وسيظل الناس غافلين، حتى يحين يوم الانعتاق...

(الهلبيث - الفصل الأول - الصفحة ١)

الفصل الأول

«جزيرة النور»

«سيأتي زمن على قوم، قسموا بين البحر والبر. طغت على قلوبهم البغضاء واحترقوا بنار الشيطان حتى انحفرت لعنته على أجسام بعضهم قبل انشقاق القمر وانهيار السماء، فيحين يوم لا تنفع فيه قوة ولا جاه، لا مال ولا بنون، ويقوم العنقاء من رماده وتنفخ الأبواق في السماء معلنة أنه حان يوم الانعتاق».

كانت هذه الكلمات بالنسبة لأي شخص في جزيرتنا ذات تأثير أقوى بكثير من ذلك الزلزال الذي شهدناه قبل عشر سنوات. الفرق بينه وبينها، هو أننا لم ننتظر أن تهتز الأرض تحت أقدامنا في ذلك اليوم المشؤوم، لكن هذه الكلمات تجعلنا ننتظر ونتوقع أن يحين يوم الانعتاق. اليوم الذي ستنتهي فيه الحياة كليًا على وجه الأرض. الخوف الذي يأتي بعد انتظار أكثر سوءًا من خوف يولد في نفس اللحظة دون مخاض من الكارثة. لذلك انتظرنا..

وسننتظر.. وسيظل الخوف كابوسنا الذي لن ينتهي.

في الجزيرة التي نعيش فيها نتعلم الخوف قبل المشي، الخوف من الماضي والحاضر لا يساوي شيئًا أمام خوفنا من المستقبل المجهول واللامجهول في آن واحد. كيف يكون للحياة طعم وأنت تعيش كل يوم خائفًا من أن تبتلعك الأرض

من تحت قدميك فجأة أو ترتكب خطأ تسحقك بسببه لعنة اللّٰه؟ هذا ما أشعر به دائمًا. فلا الكتاب المقدس يريحني ولا المحيط الذي أعيش فيه يعطيني دفعة ولو بسيطة.. من أمل مزيف.

منذ الصغر سمعنا قصة وجودنا في هذه الجزيرة النائية عن العالم. قيل لنا أنه قبل ملايين السنين، عندما كانت الأرض تحمل على عاتقها أول سلالة بشرية على الإطلاق، أرسل القدير[1] من السماء ملائكة للعيش على الكوكب وتسيير أمور الدين والدنيا. كانت هذه الملائكة تدعى بـ «النورانيين». مخلوقات ما إن وصلت إلى الأرض حتى اتخذت شكل البشر وأحبت العيش معهم في سلام ووئام حتى اعتُقد لوهلة أن الحياة في هذا المكان ستكون الجنة الثانية والأبدية على الإطلاق..

أنزل النورانيون الخمس والخمسون فردًا كتابًا من السماء عن ديانة تدعى «الهلييثية». كانت تلك الديانة تدعو للحب والتصالح والتعايش بين أفراد البشر وجميع المخلوقات بدون استثناء. لكن الشرط الوحيد لتنفيذ الدين كان يتمحور حول تنصيب أول حاكم من أصل نوراني كي يوجه البشر والمخلوقات الأخرى على أسس الهلييثية للعيش في سلام واتحاد أبديين. هنا استغل الشيطان الفرصة فاقتحم الأرض متخفيًا في شكل بشري وبدأ بالوسوسة بينهم حتى نجحت مهمته في جعل البشر يشعرون بالغيرة والنقصان أمام النورانيين، فوعدهم الشيطان بأن يكونوا هم قادة أنفسهم بعد القضاء على النورانيين.

قامت الحرب فجأة بين البشر والنورانيين. حتى أريقت دماء الأبرياء في حرب لم يكن الشيطان وحده السبب فيها بل ضعف البشر أمام القوة والسلطة. قرر النورانيون العودة إلى السماء مجددًا حاملين الكتاب المقدس معلنين صدمتهم الكبيرة في البشر. نتج عن ذلك إرسال القدير لطائر العنقاء

---

(١) القدير: الله/ الخالق. تعريف ديني لاسم الله العظيم.

المشتعل والذي أحرق جل البشر عقابًا لهم على تمردهم بينما فر الشيطان وبعض من خادميه إلى الجحيم في أعماق الأرض. ومن هنا بدأت قصة البشر بعد أول خيبة أمل فيهم فصرنا نحن حاملين لهذا العار حتى بعد عودة الإنس إلى الأرض مرة أخرى، واكتشاف ديانات وحضارات استمرت معها إخفاقاتهم المتكررة.



لم يتوقف الأمر عند هذا الحد. فالكتاب المقدس يقول أنه بعد ملايين السنين والحضارات، امتلأت السماء بخطايا البشر الذين حاولوا تغيير الخلق والعبث في الأرض حتى دمروا أجمل ما فيها. تحملت الأرض تصرفاتهم لمئات السنين لكن القدير قرر أن يعاقبهم بإرسال طوفان بحور وزلازل واحتراق شمسي حتى تم القضاء على أكبر عدد ممكن منهم فلم يتبق سوى القليل جدًا. هذه المجموعة توالدت ونجحت في الصمود على كوكب الخراب فتزايد عددها إلى أن تفرقت عبر ربوع الأرض باحثة عن النجاة.

قرر القدير أن يعطي فرصة للناجين من الغضب الإلهي فأرسل إليهم مجموعة النورانيين مرة أخرى قبل مئة سنة فقط حاملين بين أياديهم كتاب الهلييث، لكن هذه المرة كان الاختيار مفتوحًا لكل شخص في حال أراد أن يؤمن بالدين أو لا. آمن البعض به فلحقوا بهم إلى جزيرة تدعى «جزيرة النور». فعاشوا على قواعدهم واحترموها ليتنزل عليهم مباركة القدير من خيرات الأرض في هذا المكان المبارك، بينما رحل الآخرون (من لم يؤمنوا) عن الجزيرة باحثين عن سبل للعيش في حرية تامة. نحن اليوم نعيش في هذا المكان بنفس الأساليب منذ قرن من الزمن، ونعتبر أنفسنا آخر سلالة بشرية وأكثرها قوة لأننا ولدنا بعد الخراب الكبير وما زلنا صامدين. نؤمن أننا يجب

أن نعبد القدير ونصلي إليه يوميًا كي يبارك لنا ويغفر خطايا سلالتنا القديمة حتى يحين يوم الانعتاق.. اليوم الذي ستنتهي فيه الحياة على الأرض ويدخل كل من اتبع دين الهلييث إلى الجنة بعد النجاح في الاختبار الالهي الأخير..

لا يوجد أحد في جزيرتنا لا يحفظ هذه القصة عن ظهر قلب. الجميع يعلم أننا نعيش آخر فصل على هذه الأرض. ونمُر من آخر اختبار إلهي كفرصة أخيرة لنا كي نتعلم من خطايا الأجيال السابقة. نحن الناجون من أكبر كارثة عرفها التاريخ، إخوة رغم اختلاف أصولنا لكننا نظل هلييثين أمام القدير وأمام أنفسنا.

الشيء الوحيد الذي لم أفتقده اليوم هو شعوري بالخوف. اليوم عيد ميلادي الثامن عشر، مما يخولني أخيرًا أخذ شهادة التخرج من المعبد كي أبدأ أخيرًا فصلًا جديدًا في حياتي، فصلًا لن أضطر فيه للذهاب إلى مكان لا أشعر فيه بشيء على الإطلاق.



تداخلت حبات الرمال في عيني وأنا أقف بين مجموعة من أبناء جيلي من المتخرجين حديثًا من المعبد في الساحة الكبيرة التي فشلت الأشجار المحيطة بها أن تحجب عنا أشعة الشمس الحارقة. كنا جميعنا نرتدي نفس اللباس التقليدي للمتخرجين الحديثين. قميص أبيض من الثوب الرقيق يصل بطوله إلى الركبتين وسروال أبيض فضفاض. تأملت وجوه الحاضرين الذين انقسموا إلى مجموعتين إناث وذكور يفصل بيننا سور لم يحجب عنا رؤية الفتيات اللواتي لم يتوقفن عن الحديث طوال الوقت. كانت الملامح ودرجات ألوان البشرة مختلفة جدًا. فرغم عيشنا على نفس الأرض منذ قرن من

الزمن، فشل التوحيد الديني واللغوي بيننا في تغيير أصولنا المختلفة عن بعضنا البعض. لطالما استوقفتني الملامح الصينية وألوان البشرة الغامقة وسماع أسماء تختلف أصولها ورنتها في الأذن بين مثيلاتها.

تعالت الهمسات بين الحاضرين ونحن نراقب المنصة الموضوعة على الساحة المقابلة للبرج الرئاسي الخاص بجزيرتنا. في كل عام يتم توزيع جوائز التخرج على الطلاب بعد سماع كلمة حكامنا: «جماعة الأيادي البيضاء». آخر سلالة من النورانيين الذين لم يظل منهم سوى ثلاثة أفراد يسيّرون كل صغيرة وكبيرة في جزيرتنا الكبيرة. لطالما كانوا غامضين في أساليب حياتهم. لا نعرف عنهم سوى القليل. خصوصًا قائدتهم وصاحبة الكلمة الكبرى «فيفيان». يليها شقيقها «أليكساندر» ثم الأقل شأنًا من بينهم «آيدا». ينالون أكبر كم من الاحترام رأيته في حياتي. كل سكان الجزيرة متعلقون بهم ويصدقون أي كلمة يتفوهون بها دون نقاش. تلك العلاقة المعقدة تدور فقط حول حاجتنا إليهم أكثر من حاجتهم لنا. فنحن بدون هذه الجزيرة لا نساوي شيئًا. لا نعرف مكانًا آمنًا في كوكب متصدع بالدمار. لذا قررنا البقاء هنا وعدم الخروج من هذا المكان المقدس والامتثال للأيادي البيضاء إلى الأبد.

بحثتُ بين جموع الشباب عن صديقي «سيزار». لا بد أنه نائم كعادته. لم تمر سوى لحظات حتى شعرت بيده توضع على كتفي فإذا بي أجده يغلق أزرار قميصه بسرعة لأنه كالعادة تأخر. ابتسم في وجهي ثم لمس شعره البني المجعد ليطمئن أن كل شيء على ما يرام. ثم سألني:

- كيف أبدو؟.

- تبدو متأخرًا كالعادة.

- لا تلمني يا صاح، والدي أجبرني على مساعدته في ترميم البيت حتى نسيت تمامًا أمر حفلة التخرج.

فجأة انقطعت أصوات الضجيج عندما صعدت المنصة جماعة الأيادي البيضاء ليجلسوا على الكراسي بمحاذاة بعضهم البعض بينما تقدمت فيفيان إلى الأمام حتى ركزت العيون عليها منتظرة أن تلقي الكلمة كعادتها في كل سنة. كانت بشرتها ناصعة البياض بشكل مبالغ فيه حتى صار من الصعب التفرقة بينها وبين الفستان الأبيض الفضفاض والمنسدل بكل أناقة على جسدها في حين كان جزء منه مرتفعًا إلى رأسها ليغطيه تمامًا، فبات من المستحيل معرفة شكل أو لون شعرها. غريبة هي أشكال جماعة الأيادي البيضاء، فرغم عيشهم مع البشر لمدة طويلة من الزمن ما زالت الفروق واضحة بينهم وبيننا. ملامح وجوههم ثابتة وأصواتهم لا تتعدى النبرة المنخفضة. ناهيك عن مشيتهم البطيئة للغاية وبشرتهم التي يصعب تفرقتها عن الجبص من شدة بياضها.

حملت فيفيان بين يديها كتاب الهلييث المقدس ليبارك هذا الاجتماع. ثم قالت:

- مرحبًا بكم يا أشبال جزيرة الجنة، في كل يوم من هذه السنة نجتمع للاحتفاء بجيل جديد يتخرج من المعبد الذي يعلمكم أمور الدين ومدى سماحة الهلييث ومباركة القدير لمجموعتنا المقدسة. اليوم أنتم تحملون في صدوركم شرف كتابنا المقدس وديننا الحنيف. أنتم المسؤولون الآن عن نقل هذا الإرث إلى الأجيال المقبلة لتكمل ما بدأه أجدادنا. نحن فخورون بكم فردًا فردًا على تفانيكم وحفظكم للدين. عسى أن يباركنا القدير ويعطينا الأمان والسلام لنعيش وتكون نهايتنا الجنة معًا.

تعالت التصفيقات الحارة من طرف الطلاب المتخرجين حتى أعطت فيفيان إشارة بدأ تسليم الشواهد التي تغير شكلها هذه السنة فصار لون الورق أفتح بقليل وسماكته أقوى. بدأ واحد من الحراس بالمناداة على أسماء

الحاضرين الذين صعدوا الواحد تلو الآخر لاستلام شهاداتهم وتقبيل خواتم جماعة الأيادي البيضاء ليباركوا لهم في مسيرتهم داخل الجزيرة المقدسة.

وصل اسم سيزار سريعًا. لم أكن متفاجئًا لتخرجه كونه رغم كسله وغبائه في مواقف أحتاج فيها إلى ذكائه، لطالما تفوق في جميع الحصص في المعبد من شدة حبه للتفوق. ما إن سمع اسمه حتى قفز من مكانه وركض مسرعًا باتجاه المنصة. سلمت له فيفيان شهادته فقام بتقبيل خاتمها الماسي ووضعت على رأسه يدها لتبارك له. استغربت من ذلك التفاني والتحول الفجائي لسيزار أمام الأيادي البيضاء، في جزء من الثانية انقلب من الشاب المتهور اللامبالي إلى ذلك الشخص الخجول المستسلم أمام جبروت جماعة الأيادي البيضاء. شأنه كشأن جميع الحاضرين هنا.. باستثنائي أنا.

مع كل اسم ازدادت دقات قلبي ترقبًا. علمت مسبقًا أنني تخرجت ولا خوف من الفشل. كل ما أقلقني حينها هو الاقتراب للمرة الأولى من الأيادي البيضاء والاضطرار إلى تقبيل خواتمهم الثلاثة رغمًا عني. تمنيتُ في تلك اللحظة لو أنني كنت من بين الثلاثة الفاشلين في الصف الذين لم يفلحوا في النجاح. كان هذا ليكفيني عناء الصعود على تلك المنصة التي بدت لوهلة كأنها حبل سيلتف على رقبتي.

- آدم.

للمرة الأولى في حياتي بدا وقع اسمي على أذنيّ ثقيلًا للغاية. اهتز جسدي كأنني على وشك تلقي ضربة في أي لحظة. ازدادت دقات قلبي بشكل كبير حتى صرت أشعر بألم في صدري وانقطاع في تنفسي فعجزت قدماي عن التحرك. ردد الحارس مرة أخرى اسمي لأشعر بيد تدفعني من الخلف كي أتحرك فكانت يد سيزار العائد إلى الصف هامسًا في أذني:

- تحرك ماذا أصابك؟.

ابتلعت غصتي وتنفست الصعداء أخيرًا، تقدمت وسط الجموع وعيناي مصوبتان نحو الأرض متفاديًا نظراتهم. وصلت بعد ثوانٍ مرت كالأعوام إلى المنصة حتى صعدت على الدرج الثلاثي ممسكًا بجزء من قميصي بين أصابعي. رفعت رأسي أخيرًا وكانت المفاجأة.. رائحة الدم القوية.

لا أعرف كيف هي رائحة الدم ولم أشتمها من قبل في حياتي. لكن الرائحة التي تجتاح أنفي الآن جعلت عقلي بشكل لا إرادي يترجم مصدرها على أنه دم كريه. لم أدر كيف أتصرف، ولا مصدر تلك الرائحة الكريهة، تأملت وجوه الحاضرين من الطلاب ومجلس الشيوخ فلم أجد أيًا منهم يظهر على وجهه علامات الاشمئزاز. هل يعقل أنني الوحيد الذي أشم هذه الرائحة؟ رفعت يدي قليلًا واقتربت من قميصي لأتأكد أن الرائحة ليس منبعثة مني، لكن قوتها لم تسمح لي بتمييز مصدرها. في خضم كل ذلك ما زلت متأخرًا عن أخذ شهادتي. تقدمت خطوتين بعد أن قطعت تنفسي لأجد فيفيان تحمل بين يديها الشهادة وتقترب مني بخطوات ثابتة. للمرة الأولى في حياتي أقترب منها إلى هذا الحد، لكن ما شغلني عن التركيز في وجهها هو فشلي عن الإتمام في اقتطاع نفسي لتعود تلك الرائحة لاجتياح صدري مجددًا لكن هذه المرة كانت أقوى بكثير. حاولت تكذيب نفسي مرارًا حتى وصلت إلى نقطة صارحت فيها نفسي داخليًا أن مصدر الرائحة منبعث من مكان واحد فقط.. مقاعد جماعة الأيادي البيضاء.

بين محاربة رهبة الوقوف أمامهم، والتغلب على رغبتي في التقيؤ من شدة قوة الرائحة، وصلت إلى مرحلة لم أعد أستطيع فيها فعل أي شيء وإلا سيكشف أمري. رمقتني فيفيان بنظرة ثاقبة قائلة:

- هل أنت بخير؟.

رفعت رأسي تدريجيًا لأجيبها وأنا أتجنب النظر إليها:

- لست بخير.

أخذت الشهادة من بين يديها وأنا أحسب الثواني المتبقية كي أبتعد لألتقط أنفاسي مجددًا بعد أن أوشكت على الانفجار بالتقيؤ من شدة قوة الرائحة الكريهة. تمنيت شيئًا واحدًا في تلك اللحظة. أن لا تمد يدها لي كي أقبل خاتمًا أو تضع اليد الأخرى على رأسي لتباركني. لأنها إن فعلت ذلك.. سأفقد الوعي حتمًا.

- أنا مريض جدًا. لا أستطيع الوقوف.

وضع مساعدها يده على كتفي قائلًا:

- خذ مباركة قادتنا واذهب بعد ذلك للراحة.

تدخل أخيرًا أليكساندر من جماعة الأيادي البيضاء قائلًا:

- لا حاجة لذلك فالصبي يبدو على وشك الانهيار من شدة المرض. اذهب لترتاح وتتلقى العلاج وبعد ذلك قم بزيارتنا في البرج لتأخذ المباركة.

بدون إجابة نزلت من السلالم متوجهًا عشرات الخطوات بعيدًا عن التجمع فإذا بسيزار يلحق بي قلقًا حتى توقفت عند الزاوية الفاصلة بين السوق والحقل لأفرغ دون أن أشعر ما في معدتي حتى تلطخت شهادة التخرج بما أخرجته جعبتي من قيئ.

وضع سيزار يده على كتفي قائلًا:

- ماذا حصل لك يا صاح هل أنت بخير؟ قبل قليل كنت على ما يرام.

التقطت أنفاسي لثوانٍ ثم أجبته:

- سيزار أريد أن أسألك شيئًا محددًا. عندما صعدت المنصة لاستلام الشهادة، هل شممت أي رائحة كريهة منبعثة من المقاعد؟.

نظر إليّ سيزار بعينيه البنيتين الواسعتين باستغراب كبير مجيبًا:

- لا توجد أي رائحة كريهة في هذا المكان. أنسيت أن النظافة المفرطة شعار هذه الجزيرة ودينها؟

لم أجد طريقة لأخبره بما حصل معي. لأنني متيقن أنه لن يفهم شيئًا ولن يصدقني. ليست هذه المرة الأولى التي أخفي عن سيزار سرًا من أسراري الكثيرة في هذا المكان. رغم أن صداقتنا التي دامت أربع سنوات طبيعية فإنني لا أثق به كونه متسرعًا جدًا ولا يتحكم في تهوره الكبير. كانت طبيعة عقله مثل كل شخص في هذا المكان. الجميع هنا متشابهون في اللباس والتفكير وحتى العادات. لذلك فضلت أن أنطوي وسط انسلاخي عنهم في صمت كي لا أضع نفسي في المتاعب.

- حسنًا لا بأس تذكرت للتو أنني تناولت وجبة السمك قبل وصولي إلى هنا مما جعلني أشعر بالغثيان.

ابتسم سيزار قائلًا:

- شيء طبيعي أن تشعر بالغثيان وأنت قد تناولت سمكًا في الصباح الباكر أيها الغبي.

وضع شهادة تخرجه في جيبه ليتمم كلامه:

- حسنًا سأذهب الآن لإكمال العمل مع أبي. عد إلى البيت وتناول واحدة من وصفات والدتك. أراك لاحقًا.

ذهب سيزار مسرعًا ليتركني متكئًا على الجدار ألتقط أنفاسي محاولًا ترجمة ما حصل في الدقائق السابقة بشكل سريع. هنالك خطب ما معي. لم شممت تلك الرائحة منبعثة من أطهر مخلوقات الأرض بين جميع الحاضرين؟ حاولت إقناع نفسي أن لذلك علاقة بنظرتي المسبقة عن جماعة الأيادي

البيضاء وغموضهم الذي قد ترجم ذلك بشكل لا إرادي إلى تلك الرائحة الكريهة. هذا هو الاحتمال الوحيد المتوفر بين يديّ في الوقت الحالي.

استجمعت قواي بعد وقت قصير لأكمل بعدها طريقي في أزقة الجزيرة حاملًا شهادة تخرجي بين يديّ. كان الجميع منشغلين في أعمالهم البسيطة خصوصًا عندما وصلت إلى السوق المركزي الذي تجمعت فيه عربات الفواكه والخضر، بينما أحاطت به محلات الباعة الذين يحظون بدعم البرج أكثر من غيرهم. توسطت السوق مظلة عملاقة مصنوعة من التبن المجفف والأسمنت لحماية الباعة من الشمس القوية التي لم يردعها شهر يناير وفصل الشتاء البعيد كليًا عن اسمه لأننا نعيش في زمن –حسب أقوال المعلمين– لا فصل له، إن سقطت الأمطار غزيرة في سنة تلحق بها سنوات جفاف ورياح جافة تجعل بشرتنا تبدو أكبر بكثير من عمرها الحقيقي.

لم أرد العودة إلى المنزل في هذا الوقت المبكر. أعلم مسبقًا أنني سأجد الخبر قد انتشر وباتت أمي وجدتي قلقتين عليّ كثيرًا. لذلك دخلت وسط السوق متخفيًا حتى وصلت إلى التلة المقابلة له على بعد عشرات الخطوات لأصل أخيرًا إلى كوخي الخشبي الذي بنيته مع صديقتي منذ أيام الطفولة، كي نختلي فيه ونصنع لأنفسنا عالمًا مثاليًا في مكان تقتل الرغبة في المثالية جمال الحياة على أرضه.

وجدتها جالسة على الأرجوحة القديمة المقابلة للكوخ تنتظرني كعادتها. صديقتي «مايا» التي لا تفارقني أينما ذهبت. رغم أنها أصغر مني بسنتين، فإنها لطالما كانت ذلك الشخص الذي يجاريني في كل أفكاري الجنونية واللامعقولة. حتى إن كانت لا تفهم كلمة مما أقول.. المهم أنها تستمع إليّ ولا تحاسبني. ذلك ما يجعلني ألجأ إليها دائمًا للحديث حتى إن كنت أجدها معظم الأوقات منعدمة الشخصية أمام المجتمع ونفسها أيضًا. مايا فتاة خجولة مترددة تلحق بالأمواج أينما أخذتها دون تفكير. هذه الصفة كانت

دائمًا تزعجني فيها وتجبرني على الإشراف على كل ما تفعله لأمنعها من الوقوع في الأخطاء. لذلك أشعر دائمًا أنني والدها أو شقيقها الأكبر. إنها مهمة صعبة تجعلني للحظات أشكر القدير أنني ابن أمي الوحيد..

ما إن لمحتني حتى قامت من الأرجوحة مبعدة شعرها الأسود الطويل المصفف على شكل ضفيرة إلى الخلف فبدت أقصر قامة من العادة كونها ترتدي فستانًا بلون السماء الزرقاء يصل حتى نهاية قدميها.

- لقد وصلت مبكرًا يا آدم. هل انتهت حفلة التخرج بهذه السرعة؟.

دخلت الكوخ بعد أن لحقت بي مايا مجيبًا:

- لا أعرف لم الجميع يلقبها بحفلة ونحن كل ما نقوم به هو أخذ شهاداتنا والعودة إلى منازلنا.

ابتسمت مايا:

- حسنًا لا تنزعج. دعني أرى الشهادة.

أمسكت مايا شهادة تخرجي بحماسة كبيرة وكأنها هي من تخرجت للتو تقرأها بعناية، بينما تكفلت أنا بتأمل الكوخ الصغير الذي تتوسطه طاولة خشبية وكنبتان مصنوعتان من صوف الخرفان، وبضعة أشياء لا قيمة لها بعد الآن هنا وهناك.

- من أين لك بهذه البقع على الورقة؟.

- لقد تقيأت في طريقي إلى العودة..

- هل أنت بخير؟ ماذا حصل؟.

نظرتْ إليّ عيناها السوداوان الجائعتان لإجابة تشفي غليل فضولها. هل عليّ إخبارها بحقيقة ما حصل معي حقًا؟ هل ستصدقني؟ طبعًا ستفعل،

لأنها تلحق بأي كلام أخبرها به. لكنني لست متأكدًا حتى إن كان ما حصل معي أمرًا حقيقيًا أم مجرد هلوسات لا تمت للواقع بصلة.

- أنا بخير فقط شعرت بالغثيان فجأة فظننت أن الحل الأفضل هو إخراج ما في معدتي كي أرتاح.

بدت مايا مقتنعة للغاية بإجابتي. فركت بأصابعها فروة رأسها حتى ارتفعت مع يدها خصلة شعرها المتدلية فوق أذنها لألمح فجأة آثار ضربة على عنقها اقترب لونها إلى البنفسجي. لمستها بيدي فإذا بجسد مايا ينتفض وكأنه لمس الكهرباء.

- من أين لك بهذه الضربة؟.

ابتعدت عني وهي تعيد خصلة شعرها إلى مكانها لتجيبني بتوتر كبير:

- لقد سقطت على الحجارة عند عودتي من الغابة.

ركزت عينيّ على وجهها الذي تهرب من مواجهتي كعلامة واضحة على كذبها.

- هو من فعلها مجددًا أليس كذلك؟.

أخفضت مايا عينيها إعلانًا عن استسلامها التام أمام سؤالي. لطالما كانت هذه الفتاة فاشلة في الكذب، خصوصًا عندما يتعلق الأمر بوالدها الذي يعنفها منذ الصغر في كل مرة تخطئ فيها. منذ وفاة والدتها صار هذا الرجل قاسي القلب لا يرحمها وكأنها السبب في ما حصل لأم أصابها مرض عضال لا علاقة له بأي شيء تقوم به مايا. لم تستطع أن تخبر أحدًا أو تشتكي منه رغم أنه من الممنوع في ديننا تعنيف النساء أو أي شخص آخر، كل من يعصي هذا الأمر عقابه الطرد النهائي من الجزيرة.

لكن ما يختلف في وضع مايا، هو أن والدها عضو من مجلس الشيوخ الذين يقررون دستور الحكم مع جماعة الأيادي البيضاء. لذا عقابه سيكون من المستحيل. وهكذا قررت مايا الصمت على ما يحصل لها خصوصًا أن شقيقها الأكبر هو الآخر يقف في صف والده ولا يساندها أحد سواي.

- لقد زاد الوضع عن حده يا مايا. يجب إيقاف هذا الرجل قبل أن يفوت الأوان.

دمعت عيناها وهي تحاول محاربة الدموع بابتسامتها الطفولية كعادتها قائلة:

- «لا داعي لذلك فأنا أستحق الضربة هذه المرة. لقد كسرت صحنه المفضل.

- «هذا ليس سببًا كي يضربك بهذه الطريقة المتوحشة. إن لم تستطيعي القيام بشيء دعي الأمر لي.

هرولت مايا باتجاهي خائفة لتضع يدها على كتفي قائلة:

- أرجوك لا تتدخل. لن يصدقك أحد وسيجعلون منك المخطئ أمام الناس. لا تنس أن والدي في مجلس الشيوخ ويملك السلطة الكبرى. عدني أنك لن تتدخل في الأمر.

لم أستطع القيام بشيء سوى الاستسلام إلى تلك العيون التي كسرها الظلم. رغم الحرقة التي أشعر بها داخليًا فإنني قررت التراجع بعد تفكير سريع دام لثوانٍ في وضعية مايا. لن يصدقني أحد إن اشتكيت. ففي هذا المكان يشتري الناس بالسلطة احترام الآخرين وتصديقهم الأعمى لهم. لا أحد يريد الوقوف في وجه مجلس الشيوخ أو جماعة الأيادي البيضاء. لأن الجميع هنا يرتعبون من فكرة طردهم من هذه الجزيرة التي تعتبر آخر مكان آمن في هذه الأرض.

- حسنًا أعدك..

مسحت مايا دمعتها وسرعان ما حاولت تغيير الموضوع قائلة:

- أحضرت لك كعكًا محلى بمناسبة نجاحك في المعبد. هيا لنحتفل.

أخرجت مايا من تحت الطاولة الخشبية علبتها المصنوعة من القصب لتفتحها وتبدأ بتوزيع الكعك الدائري الشكل على الصحن، ثم بدأت بسكب عصير قصب السكر الممزوج مع الليمون في الكؤوس الخزفية، بينما قمت أنا لأفتح نافذة الكوخ الكبيرة والمطلة على الجزيرة بأكملها.

استطاعت حلاوة الكعك الشهي أن تنسيني لثوانٍ ما حصل معي اليوم. لكن سرعان ما انتهت النشوة بسؤال مايا التي لاحظت تغير مزاجي في يوم من المفترض فيه أن أكون سعيدًا:

- ماذا بك يا آدم؟ من المفترض أن تكون سعيدًا بتخرجك من المعبد وبدء فصل جديد في حياتك.

ابتسمتُ بتهكم مجيبًا:

- عن أي فصل تتحدثين؟ لا حياة في هذا المكان ونحن يتم تذكيرنا يوميًا أن الأرض قد تبتلعنا في أي لحظة وأن يوم الانعتاق بات قريبًا.

- لكن على الأقل نحن ما زلنا على قيد الحياة وهذه نعمة من القدير. لا تنس أننا محظوظون كوننا نطبق ديانة سترسلنا جميعًا إلى الجنة في يوم الانعتاق.

- أتدرين أمرًا، أحيانًا أتمنى لو كنت ولدت قبل مئات السنين بين ذلك الجيل الذي لقي حتفه في الحروب البشرية. وأحيانًا أخرى أتمنى أن يحين يوم الانعتاق سريعًا كي أتخلص من هذا السجن الخانق.

وضعت مايا كأس العصير قائلة:

– لم كل هذا التشاؤم يا فتى؟ الحياة ما زالت جميلة. جزيرتنا مكان آمن وهذا في حد ذاته نعمة كبيرة من القدير. ألا تظن ذلك؟.

– ليتني مثلك يا مايا، أرى الأمور بكل هذه الإيجابية. لكنني مع الأسف لست مثلك. أنا أشعر أن هذا المكان سجن لتعذيبنا نفسيًا حتى يصبح يوم الانعتاق أكثر أمنية ننتظر تحقيقها دون خوف.

اتخذنا الصمت أخيرًا كوسيلة لإخماد تلك النار المشتعلة بداخلي والتي ستظل مشتعلة طالما أنا ما زلت على قيد الحياة في هذا المكان. حدقت جيدًا في محيط الجزيرة من خلال النافذة بحثًا عن بصيص أمل لجعلي أشعر بقليل من الإيجابية حتى ألحق بسرب سكان هذا المكان، لكن ذلك لم يكتمل عندما وصل مجال رؤيتي إلى الحائط الكبير الذي يحيط بالجزيرة بأكملها ويعزلها كليًا عن العالم. تم بناؤه منذ زمن طويل لحمايتنا من العالم الخارجي ومخلوقاته المتوحشة وآكلي لحوم البشر. لكنه في نفس الوقت حرمنا من نعمة الاستمتاع بالنظر إلى البحر والأراضي المجاورة له. لم يكن باستطاعة أحد رؤيته سوى بالصعود إلى التلال أو أحد الجبال.

انتهت أخيرًا جلستنا التي لم تتغير منذ أيام الطفولة في هذا الكوخ الذي يحمل بين زواياه ضحكات براءة وحكايات طريفة، وذكريات أتمنى لو أستطيع العودة إلى الوراء كي أعيشها مرة أخرى وأستمتع بتلك اللحظات التي كان فيها عقلي مليئًا بالأمل وقلبي متحمسًا للمستقبل، بينما كان العالم من حولي يعيش في رحلة ظلام وصلت إليّ أخيرًا عندما حصل الزلزال ودمر جزءًا كبيرًا من جزيرتنا. في ذلك اليوم تحطمت براءتي رغم صغر سني وصرت هذا الشخص المتشائم الذي لا يفيد أحدًا في هذا المكان.

خرجنا أخيرًا من الكوخ بعد أن مرت ساعات طويلة حتى خفت وهج الشمس في السماء لنتجول في دروب الجزيرة. توقفنا عند باعة السمك كي تقوم مايا بشراء سمك السردين المفضل لديها. الصيادون هم من بين القلائل الذين يسمح لهم الخروج من الجزيرة عبر الباب الرئيسي للصيد من البحر والعودة سريعًا. بدا لي ذلك كفكرة ممتازة لتغيير روتين الحياة في الجزيرة بالانضمام إلى سرب الصيادين. اقتربت من أحد الباعة قائلًا:

- كيف يمكن للفرد أن ينضم إليكم في الصيد؟.

رفع الرجل العجوز الذي يكاد يتجاوز السبعين من عمره رأسه محدقًا بي باستغراب قائلًا:

- يجب أن تكون شجاعًا كفاية لتخوض غمار البحر يا فتى. فالأمواج تعشق ابتلاع ضعاف النفوس.

لم تنجح كلماته الترهيبية أن تخرج من عقلي فكرة الولوج لمجموعة الصيادين لاكتشاف البحر. لطالما انتابتني الرغبة في لمس أمواجه والشعور بأنني قريب منه رغم خوفي من الغرق.

- لا تقلق فأنا أحب البحر ولا ينقصني من الشجاعة شيء لخوض غماره.

رسم العجوز ابتسامة على وجهه قائلًا:

- حسنًا سنجربك لنرى إن كنت حقًا موهوبًا. تعال بعد شروق الشمس غدًا لتبحر معنا.

اجتاحتني سعادة عارمة أنستني كل ما مر عليّ اليوم وكأنني ولدت من جديد. بالنسبة لمتخرج من المعبد يعتبر الصيد عملًا لا يليق به سوى إن كان غير قادر على العمل في البرج الرئاسي. لذلك جل المتخرجين لا تطرأ على عقولهم أن يعملوا في الصيد وبيع السمك بينما يستطيعون اختراق البرج

الذي يعتبر حلم كل شخص في هذه الأرض. بالنسبة لي تلك اللحظات التي أشعر فيها بالحرية وأنا أعانق أمواج البحر وأشم رائحته أهم بكثير من أي منصب قرب جماعة الأيادي البيضاء.

أكملنا أنا ومايا طريقنا بعيدًا عن السوق المركزي متوجهين إلى الغابة لقطف الثمار. فجأة سمعنا صراخًا خلفنا جعلنا نعود مسرعين لمعرفة ما يحصل. لمحنا حراس الجزيرة ممسكين بشاب في السادسة عشرة من عمره وهو يصارع كي يتخلص منهم، بينما تجمع من حولهم الناس غير مبالين بصرخاته أو دموع والدته. خرج سيزار من الجموع حاملًا تفاحة بين يديه قائلًا:

- لقد أمسكوا واحدًا آخر. يقال إن جارته كشفت حقيقته للحراس فنالت مكافأة هامة.

شعرت بحرقة في قلبي وأنا أرى المنظر ذاته الذي يتكرر بين الحين والآخر في هذا المكان. هذا الشاب واحد من بين «المشوهين خِلقيًا». في دين الهلييث لا مكان لأمثاله في جزيرتنا. يقال إن الشيطان بعد خسارته المعركة أمام القدير في بداية الزمن، قرر الانتقام بإرسال لعنة الجحيم وهي عبارة عن تشوه خلقي في أجساد القلائل من البشر. إن ظل أي مشوه خِلقيًا في مكان يؤمن فيه الناس بدين الهلييث، فإن روح الشيطان ستسكنه ويحاول تدمير كل ما بناه النورانيون والبشر من أجل إبقاء السلام في هذا المكان المقدس. لذلك تم إقرار قانون منذ سنوات أنه في حال تم إيجاد مشوه خِلقيًا في الجزيرة، يتم طرده نهائيًا منها إلى العالم الخارجي الذي يعج بآكلي لحوم البشر والمخلوقات المتوحشة. وكل من يساعد في كشف أي مشوه خِلقيًا ينال «ميثاق المغفرة»، وهي ورقة تسلمها الأيادي البيضاء له تمحو خطاياه مع القدير وتبني له مكافآت مهمة في الجنة. لذلك بات حلم كل شخص هنا أن يجد مشوهًا خِلقيًا ويكشفه.

ابتلعت مايا غصتها بقلق قائلة:

- مسكينة والدته. انظر كم هي منهارة. حقًا موقف لا تحسد عليه.

ضحك سيزار ساخرًا:

- مسكينة؟ بل تستحق العقاب لأنها أخفت سر ابنها طوال هذه المدة. هذا تصرف غير عقلاني أن تتحدى تعاليم ديننا وقوانيننا لتربي شيطانًا في عقر بيتها قد يهدد سلامة الجزيرة بأكملها.

تدخلتُ بعد أن أشعرني كلام سيزار بالانزعاج:

- ماذا لو كان ابنك من المشوهين خِلقيًا؟ شقيقك؟ أنا مثلًا أو مايا؟ هل ستبلغ عنا؟.

صمت لثوانٍ وهو يتناول قضمة من التفاح ليرد قائلًا:

- القانون قانون والدين دين. لا تنس أنه في الفصل الخامس من الكتاب المقدس يقول القدير (لا تطع قلبك عند المعاصي فلا رباط الدم ولا الوعود تستحق خسارة رضا السماء عنك). ماذا سأستفيد إن أخفيت السر وعوقبت من طرف القدير بالدخول إلى الجحيم؟ آسف يا شباب لكنني سأبلغ طبعًا إن علمت أن أحدًا مشوه خِلقيًا.

لم أتفاجأ بإجابة سيزار. لأنها واحدة من بين جميع الإجابات التي ستسمعها في حال طرحت نفس السؤال على جل سكان الجزيرة. في هذا المكان لا سلطة أقوى من الخوف. الخوف وحده كفيل أن يجعل كل منا يخون الآخر من أجل ضمانة سلامته في الدنيا قبل يوم الانعتاق وبعده. هذا المبدأ في حد ذاته يشبه كثيرًا مبدأ غريزة البقاء في الغابة بين الحيوانات. لم يتقبل عقلي ولا قلبي فكرة معاقبة أشخاص لا ذنب لهم سوى أنهم ولدوا مشوهين خِلقيًا بعد أن طالتهم أيادي الشيطان. تخيلت منظرهم خارج الجزيرة وآكلو

لحوم البشر يمزقونهم إربًا إربًا وهم على قيد الحياة. كانت هذه من بين أهم الأشياء التي جعلتني غير مقتنع بهذا الدين بالتحديد. كيف يمكن لكتاب مقدس أن يبدأ في فصله الأول بـ(إن رحمة القدير أكبر من رحمة الأم على ابنها) أن تتخلله أيضًا (والمشوهون يطردون من أرض النور ولا رحمة تطالهم وكل من رأف بهم سيكون في يوم الانعتاق حطبًا للنار في الجحيم)؟ لطالما أرقتني هذه الفكرة وجعلتني أشكك في كل شيء حتى أشعر أنني كافر وسألقى مصيرًا كارثيًا أسوأ من المشوهين خِلقيًا.

لم أرد التوقف لرؤية منظر اختطاف هذا الشاب البريء لمدة أطول فقلت لمايا:

- ما رأيك أن نترك قطف الفطر من الغابة إلى الغد؟ ستغرب الشمس بعد قليل.

أجابتني مايا التي توافقني دائمًا على كلامي قائلة:

- حسنًا. لنقم بالأمر في الصباح ونمر بعد ذلك عند العم ألبيرت.

لم يسمح لي سيزار بالبدء بجملتي ليقول لمايا:

- إن أردت سأرافقك لقطف الفطر.

- لا، شكرًا لا داعي للأمر.

رُسمت علامات الانزعاج الكبير على وجه سيزار الذي لطالما حاول إقحام نفسه بيني وبين مايا كي يصبح الطرف الثالث في هذه العلاقة القوية. لم يستطع بعد أن يفهم أن علاقتي بمايا من الصعب جدًا توسيع حلقتها لأن جماليتها في انغلاقها على نفسها. كلانا يخبر الآخر أشياء لن نستطيع الحديث عنها أمام سيزار. رغم علاقة الصداقة التي تجمعني به فإنها لا تساوي شيئًا بالمقارنة مع مايا. سيزار شخص مناسب إن أردت قضاء وقت

ممتع في أشياء تافهة كتسلق التلال والجري وإلقاء الدعابات أو الذهاب إلى المعبد. بينما مع مايا أستطيع إخراج جزء صغير من شخصيتي المخفية التي لا يعرف عنها أحد.

- حسنًا يا رفاق أراكما في الغد.

لم يتطلب من الزمن للعودة إلى المنزل سوى بضع دقائق كوني أقطن على مقربة من منطقة الحقول المؤدية إلى الغابة. أحاط ببيتنا الخشبي حقل صغير تتوسطه حظيرة بها بعض من الماعز وبقرتان إضافة إلى الأرانب والدجاج والبط. بينما اتخذت أمي ما تبقى من الحقل مساحة لمزروعات الأعشاب والخضر والفواكه. كان الجلوس في الخارج من البيت أفضل بكثير من الدخول إليه. لكن الليل بدأ يسدل خيوطه في السماء وأنا من عادتي أنني أكره شكل الجزيرة في الليل.

دخلت البيت الصغير الذي لم تنجح الإنارة الخافتة في إخفاء كآبته رغم مجهود جدتي وأمي في جعله مريحًا. وجدت جدتي «سينا» جالسة على كرسيها الخشبي المفضل تقوم بخياطة ما تمزق من ملابسي المعدودة على رؤوس الأصابع. لم يكن باستطاعتنا توفير عيش رغيد ونحن ننتمي إلى الفئة الفقيرة في الجزيرة من الفلاحين والمزارعين. استوقفني منظرها وهي تحيك الجزء السفلي من سروالي والذي تآكل بعد استعماله المتواصل لسنوات. كانت جميع الملابس ذات ألوان فاتحة. هذا هو شعار جزيرتنا. تمنع جماعة الأيادي البيضاء أي شخص من ارتداء اللون الأسود أو أي ألوان داكنة خوفًا من أن تسكنها روح الشيطان. لذا من الطبيعي جدًا أن تجد جميع سكان هذا المكان متشابهين في لباسهم وحتى أفكارهم.

ابتسمت جدتي في وجهي حتى ظهرت تجاعيد عينيها بارزة لكنها لم تهزم جمال عينيها الزرقاوين اللتين ورثتهما عنها. وضعت قميصي على فخذيها قائلة:

- ها هو ذا بطلي الخارق.

ضحكت مجيبًا:

- فقط في عينيك يا جدتي.

رفعت يدها نحوي قائلة:

- تعال إلى حضن جدتك كي تقبلك يا عزيزي.

كعادتي، استجبت إلى ندائها دون تردد. مع هذه الإنسانة الاستثنائية أنا دائمًا ذلك الطفل الصغير المدلل بكامل إرادتي. كان حضنها دافئًا مثل كل مرة. حضن أشعر فيه بأمان لا نهاية له. جدتي هي الإنسان الوحيد الذي لا يلومني، لا يخيفني، لا يجبرني على أن أكون شخصًا آخر. لطالما استغربت من نظرتها المثالية عني. كانت دائمًا تشجعني وتخبرني أنني إنسان خارق أفضل من الجميع. بينما يحفر المجتمع في الخارج فكرة أنني لا أنتمي إلى هذا المكان. لذلك كلماتها دائمًا ما تصلح انكساري بعد يوم طويل من الصدمات.

حان وقت وجبة العشاء. جلست على الطاولة الخشبية بعد أن جهزت جدتي وجبة طحين الذرة مع الحليب والعسل المفضلة لدي احتفالًا بتخرجي وعيد ميلادي الثامن عشر. بينما وضعت بجانبي وجانبها كؤوس اللبن فلاحظت صحنًا إضافيًا موضوعًا في الجانب الأقصى من الطاولة.

- هل سيأتي «إيمو» مع أمي لتناول العشاء؟.

لم تنطق جدتي بالإجابة حتى دخلت أمي حاملة بين يديها سلة البيض بينما يحمل «إيميليو» أو كما أحب أن أناديه «إيمو» سلة الجبن مبتسمًا بخديه المنتفخين كعادته. لطالما اعتبرت هذا الطفل البالغ من العمر اثنتي عشرة سنة أخًا صغيرًا لم أحصل عليه في حياتي. بعد وفاة والدته التي كانت صديقة مقربة لأمي، ظل مع والده الذي يعمل كمساعد في الشؤون التدبيرية في البرج

الرئاسي مع جماعة الأيادي البيضاء. جميعنا نعلم أنه كان يتهرب من المكوث في نفس المكان مع ابنه الذي يذكره كثيرًا بوالدته. لم تنجح تلك السنوات الطويلة في أن تجعل الأب يغفر لإيمو ذنبًا لم يقترفه.. ما ذنبه إن كان وُلد في نفس اللحظة التي توفيت فيها أمه؟ لقد حمل الأب على صدره شعورًا غريبًا نحو ابنه الوحيد منذ ولادته. كان يعشق زوجته التي علم خلال حملها أنها مريضة ولن تستطيع أن تعيش في حال أرادت أن تنجب الطفل. حاول زوجها وكل من حولها إقناعها بالتخلص من الجنين بعد أخذ مباركة جماعة الأيادي البيضاء كي تعيش لكنها رفضت وتمسكت بابنها لآخر لحظة. هذا ما جعل الأب يشعر بصدمة، وهو الذي اعتقد أن زوجته تحبه أكثر من أي شخص آخر، ها هو ذا يكتشف أنها على استعداد للتضحية بعمرها من أجل ابن لم يولد بعد. منذ ذلك الحين ابتعد الأب تاركًا ابنه وحيدًا يتم تربيته بين بيتنا وبيوت الجيران. ولا نراه سوى مرات قليلة يأتي فيها لإعطائنا المال ويعطي حضنًا باردًا لإيمو ثم يختفي مجددًا.. بلا كلام.. بلا عتاب..

لطالما استغربت لسبب تلك الابتسامة الدائمة والروح المرحة لإيمو رغم وحدته. ألم توجه له الحياة ضربة قوية منذ الصغر؟ لا أدري إن كان حقًا يبتسم كثيرًا لأنه سعيد أم أنه فقط يحاول التغاضي عما يعيشه باختراع كذبة أن الحياة جميلة ولاستمرار العيش فيها بدم بارد.. في كلتا الحالتين.. أنا حقًا أحسده.

ما إن وصل إلى طاولة الطعام حتى ضرب كفه بكفي بتحيتنا المعهودة ثم قبل جبين جدتي التي مررت يديها على شعره البرتقالي الداكن الناعم. ما زلنا نعامل إيمو على أساس أنه طفل في الخامسة.. لقد كان هذا الطفل الأصهب بريئًا جدًا. لدرجة تجعلني أحبه وأحزن عليه لأن هذا المكان لا يصلح أبدًا لأمثاله.

تجمعنا حول الطاولة بينما ظلت والدتي «سيلين» ترتب البيض في رف المطبخ صامتة كعادتها. هذه هي حالتها منذ أن بدأت أشعر بالأشياء من حولي في الصغر. تعود دائمًا من دكانها الذي تبيع فيه الأعشاب في سوق الجزيرة بوجه متعب يائس بارد لأقصى درجة ممكنة.

ما إن وصلت أمي إلى طاولة العشاء حتى بدأنا جميعنا بالأكل. لولا وجود إيمو الليلة لكنا تناولنا الأكل في صمت يقتل الشهية مثل كل ليلة. بدأ الأخير في سرد ما حصل معه اليوم عندما تسلق شجرة التوت العالية وكاد أن يسقط لولا مساعدة أصدقائه له. لتباغتني أمي قائلة:

- ماذا حصل لك اليوم في التخرج؟ لم يطمئني كلام سيزار عنك؟.

ابتلعت الأكل بغصة وأنا أحاول إخفاء غضبي من ثرثرة سيزار الذي يبدو أنه مر على دكان والدتي وأخبرها بما حدث معي يوم التخرج.

- لا شيء. شعرت فقط بالغثيان بعض الشيء. على الأرجح بسبب الوقوف طويلًا تحت أشعة الشمس.

أومأت والدتي لي برأسها مصدقة حتى بدت شبيهة جدًا لجدتي وهي تضع الثوب الأبيض على رأسها فلم يظهر من شعرها الأسود سوى القليل. لم تتغير ملامحها على مر السنين. كل ما تغير هو وزنها الذي يتناقص يومًا بعد يوم حتى صارت شديدة النحافة. لكنها رغم ذلك كانت قوية جدًا وصلبة لدرجة لا يمكن تجاهلها. ما كان يقلقني هو موقعي من هذه الصلابة المفرطة. صار بيننا حاجز كبير يبعدنا عن بعضنا البعض أكثر فأكثر مع مرور الوقت. لا نتحدث كثيرًا، لا أحد يخبر الآخر عن همومه. المهم بالنسبة إليها أن أكون كالآخرين من سكان هذه الجزيرة، كي لا أجلب لها العار أو المشاكل. والباقي لا يهم..

لكنها تهمني رغم كل شيء. فهي تلك المرأة المناضلة التي مات زوجها وهي حامل خارج الجزيرة. لم تضيع الوقت في اليأس والحزن، بل حملت نفسها وأمها ثم قاومت المصاعب وعالجت الجراح لتبدأ من جديد وتصبح ما هي عليه الآن. لطالما واسيت نفسي بهذه الفكرة في كل مرة أرى في عيني أمي نظرة ازدراء وخيبة أمل مهما كانت صغيرة. فهي مثل أي أم تشعر أنه هنالك خطب ما في ابنها غريب الأطوار، ذلك الابن الذي لا يبدو أنه يتبع حرفيًا دينه أو يوافق على كل ما يحصل. كم مرة صرخت في وجهي عندما كنت طفلًا يتهرب من الصلاة في المعبد، وكم مرة اعتلت وجهها خيبة أمل وهي تخبرني بأنني سأدخل إلى الجحيم إن عاندت ديني ولم أتبع كلام القدير في كتابه المقدس. كلها أقوال كانت تكبر الفجوة بيننا لأنني كنت حينها عاجزًا عن إقناعها أنني لا أشعر أن هذا الدين يناسبني. وما زلت غير قادر على الحديث.. كي لا أرى خيبة أمل أكبر في عينها وهي ترى أنها أنجبت شيطانًا عاصيًا للقدير..

كان القرار الذي اتخذناه هو الصمت وتفادي الحديث عن أي شيء يتعلق بحياتي. فلا أسراري ستعلم بها ولا أنا سأكلف نفسي عناء محاولة كسر الحاجز الذي تلف به نفسها. لذلك أحاول جاهدًا أن أمثل أمامها أنني ذلك الشخص الذي تريد مني أن أكون تفاديًا لأي مشاكل حتى نعيش في سلام داخل أسوار البيت.

لطالما تعودت أمي إخبار جدتي بما حصل لها كل يوم كي تشركها في حياة هي بعيدة عنها بحكم جلوسها الدائم في البيت وعدم قدرتها على المشي كثيرًا. وضعت الملعقة أمام الصحن قائلة:

- اليوم أمسكوا بمشوه خِلقيًا آخر في الجزيرة.

لم تستطع جدتي مقاومة فضولها الكبير لتسألها:

- هل تعرفين من يكون؟.

- إنه ابن إنغريد بائعة الخضر. لقد طردوه من الجزيرة وعاقبوها بالسجن. لكن حسب ما سمعت، أصيبت بأزمة قلبية وتوفيت بعد ذلك بساعتين.

شعرت أثناء سماعي الخبر بقشعريرة تجتاح جسدي وأنا أتخيل منظر موت الأم حسرة على فراق ابنها. كيف تسمح لهم قلوبهم معاقبة أشخاص لا ذنب لهم سوى أنهم ولدوا بنواقص جسدية؟ بدا لي واضحًا أن موجة الانزعاج قد وصلت لإيمو أيضًا الذي انحنى رأسه وركز على صحنه، بينما ظلت جدتي تحاول إخراج أكبر عدد من المعلومات من أمي:

- كيف تم كشف أمره؟.

شربت أمي رشفة من الحليب لتجيبها بهدوء تام:

- جارتها شكت في أمر الطفل الذي لا يخرج أبدًا من المنزل. فبلغت عنه حراس البرج ليأتوا ويعاينوا حالته فوجدوا أنه يمتلك تشوهًا على مستوى البطن..

قطبت جدتي جبينها قلقة ثم أجابت:

- لقد فعلت ما كانت ستفعله جل نساء الجزيرة. من الصعب فضح أمر فلذات كبدك.

- وهذا التصرف كان له عواقبه. سمعت هذا اليوم أنه سيقام اجتماع في الصباح لإيجاد طرق يتم الكشف بها عن كل مشوه خِلقيًا. ستصبح الأمور أكثر تعقيدًا ولن يستطيع أحد إخفاء تشوهه بعد اليوم.

لم تكد أن تنهي أمي جملتها حتى قام إيمو من كرسيه فجأة ليقول بوجه عبوس:

- لقد امتلأ بطني جيدًا يا خالتي. سأخرج للجلوس في الحظيرة قليلًا قبل النوم.

خرج إيمو دون أن يقول كلمة إضافية بشكل مريب. يبدو أنه مثلي، لا يطيق سماع أحاديث المشوهين خِلقيًا وما يحصل لهم. لكنني عكسه تمامًا عندما يتعلق الأمر بالصمت. فأنا لا أستطيع السيطرة على لساني في مثل هذه الحالات.

- هذا لا يعقل.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أقولها شاردًا في الباب الذي أقفله إيمو خلفه بهدوء.

- ما الذي لا يعقل؟.

أدرت وجهي نحو أمي لأجيبها:

- قتل أشخاص لأنهم فقط ولدوا بتشوه خلقي لا علاقة لهم به..

وضعت أمي بعصبية يدها على الطاولة الخشبية مجيبة:

- هذا شيء لم يأت من فراغ. إنه من وصايا القدير في كتابه المقدس. كيف تجرؤ على عصيانه؟.

- أنا لا أعصي القدير. أنا فقط أتحدث من وجهة نظر إنسانية. لا أجد تفسيرًا لهذا الأمر شأنه كشأن العديد من الأمور.

احمر وجه أمي وهي تضع يدها على جبينها معلنة صدمتها قائلة:

- لا أصدق ما أسمعه. تقول هذا الكلام يوم تخرجك من المعبد. يا قدير سامحه وارحمنا برحمتك. اذهب الآن إلى غرفتك واقرأ الكتاب أو صلِّ كي يغفر القدير لك خطاياك.

تصاعدت الحرارة من جسدي وأنا أجيبها:

- لم سأذهب للصلاة وأنا لم أقم بشيء خاطئ سوى أنني عبرت عن استيائي من وضع ليس منطقيًا. أي شخص في هذه الجزيرة يفكر مثلي لكنهم غير قادرين على الحديث. أنت أيضًا في الصميم توافقينني.

قامت والدتي من كرسيها في قمة عصبيتها حتى دمعت عيناها قائلة:

- إياك أن تقارنني بك على الإطلاق. أنا إنسانة مؤمنة أحترم القدير عكسك تمامًا. أنت لا تحترم الدين أو تطبقه. متى كانت آخر مرة صليت فيها؟ متى كانت آخر مرة مسكت فيها الكتاب وقرأته كي تتقرب من القدير؟ لا توجد صدمة أكبر في حياتي من أنك ولدت هكذا. فعلت المستحيل معك لتقريبك من القدير لكنك ميت من الداخل.. ستكون نهايتك الجحيم إن لم تستقم.

شعرت بالقهر والحزن الكبير بعد سماع تلك الكلمات القاسية من أمي والتي لطالما رأيتها في عينيها في كل مرة ترمقني فيها، لكنها المرة الأولى التي أسمعها تنفجر كمجموعة قنابل الواحدة تلو الأخرى فلم أستطع كبح جماح دموعي أمامها. قامت جدتي من الكرسي لتواسيني فإذا بأمي تقول لها:

- دعيه يذهب لا تحاولي الدفاع عنه مجددًا. لقد سمعت بنفسك الكوارث التي قالها.

قبلت يد جدتي التي لم تجد أي كلام يداوي جراحي ثم حملت نفسي متوجهًا إلى غرفتي. في منتصف الطريق أدرت وجهي نحو أمي قائلًا:

- سترين يومًا ما أنني محق في كل شيء يتعلق بهذا المكان. ولن أتراجع عن كلامي مهما حصل.

للعصيان لذة فريدة من نوعها. حتى إن كان ذلك في قمة انكسارك، التمسك بالعصيان كدعامة تتكئ عليها لتثبت للآخرين أنك ما زلت شامخًا في خضم المعركة مع الحياة. هذا بالضبط ما شعرت به تلك اللحظة. جلست على حافة سريري بعد أن جفت دموعي وتأملت غرفتي الصغيرة، وتلك المنضدة الخشبية التي رتبت عليها قصص الخيال التي أقترضها من المكتبة للهرب من شبح الواقع الأليم. شعرت بألم في قلبي وكتلة تجتاح صدري تمنعني عن التنفس بشكل طبيعي. كل شيء من حولي يشعرني بالاختناق، الهواء، الناس، الأماكن. حتى الأفكار صارت كالأغلال تحيط بجسدي وتمنعني من العيش في سلام. في هذا المكان كل شيء يشجعني على أن أكره نفسي قبل كراهية غيري. أن أرى نفسي على أنني شيطان حقيقي وسط جيوش الملائكة الزائفين. ليت أمي تعلم كم حاولت جاهدًا تقبل كل تلك الأوامر اللاعقلانية في الكتاب المقدس. تكفيني نظرتي لنفسي، وذلك الخوف الذي يجتاحني في كل مرة أتذكر أن نهايتي الجحيم لا محالة. بإمكاننا نحن البشر اصطناع أي شيء سوى التصديق والإيمان. إنها صفة لا يمكن خداع القدير فيها وهو الذي يقرأ قلبك قبل وجهك. لذا تعايشت مع فكرة أنني مسخ وشيطان.

طرقت جدتي الباب لتدخل حاملة صحنًا فيه حلوى الكعك بمربى الفراولة المفضلة لدي. جلست بالقرب مني ووضعت يدها على خدي وكأنني طفل صغير قائلة:

- لا تبكِ يا عزيزي، تعرف أن دموعك تذبحني من الداخل.

- آسف يا جدتي فأنت آخر شخص أود أن أجرحه في هذا العالم.

- إن كنت حقًا لا تريد أن تجرحني. تناول صحن الحلوى الذي أعددته لك وارسم الابتسامة على وجهك.

لطالما عكفت جدتي منذ الصغر على عادتها الجميلة معي. في كل مرة تراني فيها منزعجًا. تخرج من صندوق الأكل الكعك المحلى وتحضره لي كي أتناوله. لطالما كان مفعوله سحريًا في صغري. حينها كنت أعتقد أن جدتي تملك قدرة سحرية تشفي الحزن وتضعها في الكعك. لكنني لاحقًا اكتشفت أن الحياة أشد قسوة من أن تحليها قطعة كعك بمربى الفراولة. كم اشتقت إلى أيام الطفولة. تلك الأيام التي كانت أبسط الأشياء فيها تداوي جروحي وتلهيني عن حقيقة العالم من حولي.

- سأتناوله لاحقًا. أشعر بمغص في معدتي من شدة العصبية.

وضعت جدتي يدها على صدري قائلة:

- إياك أن تشك ولو للحظة في حب والدتك لك. لو كنت تستطيع سماع دعواتها للقدير في كل ليلة قبل أن تنام لذهلت. قلبها وعقلها كله معك يا عزيزي. إنها فقط تحاول أن تجعلك تندمج في المجتمع وتبتعد عن المشاكل. في هذا المكان الاختلاف هو حبل يلتف على الرقبة ويقتل صاحبه..

- أعلم ذلك يا جدتي. أنا فقط أتمنى أن تراني بعيون أخرى. عيون أم فخورة بابنها.

ابتسمت جدتي واقتربت مني لتضع يدها الأخرى على قلبي قائلة:

- لا يهم كيف تراك. المهم كيف ترى نفسك. الذهب يكون أسود في البداية، لكن بعد العمل عليه يصبح براقًا يخطف النظر. تذكر دائمًا أنك شخص رائع. وعيوني ستراك دائمًا الأفضل بينهم. لأنك حقًا كذلك.

- ليتي أرى نفسي كما ترينني.

– ستفعل يا عزيزي. وسترى أن القدير لم يخلقك عبثًا.

قبلت جبيني بعد أن قامت من مكانها مغادرة. أثناء فتحها الباب قالت:

– سيصعد إيمو عندك. يبدو في مزاج معكر أيضًا. رفها عن بعضكما البعض.

الآن عرفت سر كعك جدتي. السر لم يكن فيه بل فيها هي. مجرد حديثها معي يريحني ويرفع معنوياتي لدرجة كبيرة. تلك الإنسانة هي الوحيدة التي تشعرني أنني حقًا أستحق العيش وأن الغد قد يكون أفضل بطريقة أو بأخرى. أنا حقًا محظوظ بامتلاكها. ولا أدري كيف كانت ستبدو حياتي من دونها.

لم تمر سوى ثوانٍ معدودة حتى دخل إيمو بوجه عبوس ليجلس على الكرسي الخشبي المقابل للنافذة دون أن يتحدث. حملت صحن الكعك وتوجهت إليه كي أتقاسمه معه. فإذا بي أرى للمرة الأولى في حياتي، إيمو غارقًا في دموعه. وضعت الصحن جانبًا وجثوت على ركبتي أسأله:

– إيمو ماذا حصل؟ هل أنت بخير؟ لمَ تبكي؟.

بصوت اختنق من شدة البكاء أجابني:

– لا شيء يا آدم. لا تقلق فأنا لا أستحق حتى قلقك.

ضغطت على يده ورفعت ذقنه حتى تلاقت نظرة عينه البنية الفاتحة بعينيّ ثم قلت له:

– أنا بمثابة شقيقك الأكبر يا إيمو. أنا الوحيد الذي يحمل جميع أسرارك. بإمكانك الوثوق بي..

صمت لوهلة ثم قال بعد أن أدار وجهه نحو الحائط:

– أنا... مشوه خِلقيًا.

حاولت أذناي استيعاب ما سمعته للتو من شخص لا يملك أي شيء مريب في شكله. تفحصته بعينيّ لأتأكد مجددًا إن كان جسده يحمل علامة مشككة. لم يستطع عقلي تقبل فكرة أن يكون إيمو بالتحديد مشوهًا خِلقيًا. فقد أباه والدفء الأسري. يعيش متخبطًا بين بيوت الجيران. والآن يغلق القدر في وجهه باب أمل آخر أقوى وأشد سوادًا من جميع الأبواب السابقة.

– لستَ كذلك. هل سخر منك أحد في المعبد وجعلك ذلك تشعر بالإحباط؟.

مسح دموعه وأخفضَ نبرة صوته التي بدت كأنها صادرة عن رجل عجوز أهلكه الزمن:

– ليس الأمر كذلك يا آدم. أنا أعلم أنني مشوه خِلقيًا منذ الصغر. الأمر ليس ظاهرًا الآن لكنه يوشك على ذلك في الأيام المقبلة.

قمت من مكاني مستعدًا لسماع المزيد بينما تزايدت دقات قلبي مجددًا محدثة ألمًا قويًا في صدري.

– ما هو تشوهك؟.

– جميعكم تعتقدون أنني لم أكمل بعد عامي الثاني عشر. لكنني في الحقيقة أبلغ من العمر ست عشرة سنة. أنا أعاني من حالة تقزم تجعلني لا أكبر في السن. علمت بالأمر إحدى النساء اللواتي كن يشرفن على الأطفال في مركز العلاج شمال الجزيرة عندما كنت صغيرًا، وأخبرتني بذلك دون أن تفضح أمري. منذ ذلك الحين وأنا أخفي هذا السر بداخلي كي لا يعلم به أحد.

وضعت يدي على جبيني معلنًا صدمتي غير المتوقعة مما أسمعه. لم أجد كلمات أستطيع من خلالها مواساته أو حتى معرفة مشاعره في تلك اللحظة الأليمة.

- لكن.. إخفاء أمر كهذا كان سيفضح في جميع الأحوال..

- أعلم ذلك. لكن أملي في القدير كبير جدًا. كنت أذهب يوميًا للصلاة في المعبد وأدعوه كي يشفيني قبل أن أكبر. لكن بما أن مراقبة المشوهين خِلقيًا باتت أكثر تشددًا مؤخرًا، لم يعد أمامي خيار سوى...

عادت الدموع لتنهمر مجددًا على خديه المكتنزين ليكمل حديثه:

- تسليم نفسي للبرج قبل أن يلقوا القبض عليّ.

شعرت باهتزاز كبير في قلبي وأنا أسمع هذا القرار الجنوني الذي صدر عن أكثر شخص محب للحياة عرفته طوال عمري. لم أشعر بنفسي إلا وأنا أضغط على ذراعه قائلًا:

- تسلم نفسك؟ هل جننت؟ أنت لم تقم بأي شيء خاطئ كي تسلم نفسك. لا يوجد أي عيب فيك.

- بلى يوجد. أنا مشوه خلقيًا. أنا من مخلفات الشيطان. وجودي لعنة في هذا المكان المقدس. أَنا أستحق الطرد من هذه الجزيرة وأن يتناولني آكلو لحوم البشر. هذه هي الحقيقة.

جثوت على ركبتيّ مجددًا لكن هذا المرة اقتربت أكثر منه ووضعت يديّ على كتفيه اللذين لا يزالان يرتجفان من شدة البكاء. رفع رأسه لينظر إليّ بينما أتحدث إليه:

- اسمعني جيدًا يا إيمو. لن تسلم نفسك ولن تخبر أحدًا بالأمر. أنا سأجد حلًا يجعلك تعيش بسلام دون أن تعرض نفسك لأي أذى. لن أسمح لأي مكروه أن يحصل لك. اطمئن كل شيء سيكون على ما يرام.

- لكن.. الآن من المفترض أن تخبر الأيادي البيضاء عني لأن ذلك واجب عليك. سيغضب منك القدير وتخسر ميثاق المغفرة. لا يعقل أن تضحي بهذه الأمور الثمينة من أجل حمايتي.

ابتسمت وأنا أمرر يديّ على شعره قائلًا:

- ومن قال لك أن القدير راضٍ عني؟ لا أظن أن ميثاق المغفرة سيصلح لي في شيء. أنت لا تقلق من هذه الناحية أبدًا. سأحتفظ بسرك.

بدت علامات الصدمة على وجه إيمو بادية بقوة، واختلطت مع تعابير التصديق لكل كلمة صدرت مني. فهو يعلم جيدًا أنني أفي بوعودي خصوصًا معه. استطعت تمييز تلك النظرات التي تداخلت فيها مشاعر الرعب والخوف ثم الحاجة إلى يد العون والاستسلام فالشعور بالذنب. عانقني بشدة قائلًا:

- لا أعرف كيف سأشكرك يا آدم. لقد قمت للتو بشيء حتى والدي ما كان ليقوم به.

- لا تشكرني فأنا شقيقك الأكبر حتى إن كنتَ أكبر بقليل مما ظننت.

ضحك قليلًا حتى احمر خداه ثم مسح دموعه وقام من مكانه مودعًا:

- سأتركك الآن يا آدم. الخالة سيلين طلبت مني مساعدتها في ترتيب قن الدجاج. أراك غدًا صباحًا.

خرج إيمو مسرعًا بعد أن تركني في حيرة من أمري. سرعان ما تحولت تلك الحيرة إلى شيء أكبر. شيء غريب لم أجد له تفسيرًا. هذا الشيء جعلني أتوق لخروج إيمو من غرفتي كي أطلق العنان لدموعي. دموع لطالما ابتلعتها لعدة سنوات وحصرتها جدران الكتمان بكل صلابة. لكن الليلة شعرت بوخز في الضمير. واستيقظت نيران الخوف والقلق مجددًا في قلبي. أعرف أن إيمو خائف جدًا. لكنه أكثر شجاعة مني. فهو رغم كل شيء قرر أن يسلم نفسه قبل أن يمسكوا به. هل كنت لأفعل نفس الشيء إن وضعت مكانه؟ حتمًا لن أفعل. هل هي غريزة البقاء؟ لست متأكدًا. فأنا رغم تمردي على الدين، إحباطي، اكتئابي، لم أفكر يومًا بقتل نفسي كي أرتاح. لست أدري إن كان ذلك جبنًا مني أم أنني أعلم أن الموت ليس حلًا. خصوصًا لأمثالي.. أولئك الأشخاص

الذين يصارعون الخوف قبل أن يقتلهم اليأس، ينتظرون المطر وهم يحترقون في عز الشمس، يكملون الطريق بعد فقدانهم لساقهم، ويؤمنون أن وجودهم في الحياة ليس بمحض الصدفة بل لهدف مَهما كان غامضًا، فإنه يستحق العيش من أجل كشفه حتى لو كلف ذلك دهرًا بأكمله.

مسحتُ دموعي بسرعة وتحسست جسدي الذي ارتفعت حرارته مجددًا حتى صار حارقًا. قمت من حافة السرير وفتحت درج منضدتي لأخرج منه المرآة المسطحة الملفوفة بداخل قطعة ثوب أزرق. كل ذلك كان بسبب منع ديننا من استعمال المرآة سوى في حالات نادرة نظرًا لأن الشيطان يسكنها ويسرق روح كل من ينظر إليها مطولًا. لم تنطبق عليّ هذه القاعدة لأنني لا أعتقد أن روحي تستحق السرقة. إضافة إلى أنني -لسبب غير معروف- أعشق النظر في المرآة وأشعر كأنني أرى شخصًا آخر غير نفسي. وضعت المرآة فوق الطاولة الخشبية وتراجعت خطوتين.. فتحت أزرار قميصي الأبيض وتحسست صدري حتى وصلت يدي إلى قلبي.. في جهة اليمين.

نعم.. لست وحدك يا إيمو من تحمل سرًا يستحق أن تذرف الدموع من أجله. لستَ بمفردك من يحمل جسده لعنة تأخذه إما إلى الجحيم أو الموت بعد عذاب.. الليلة نظرت إلى نفسي في المرآة جيدًا واعترفت بكل عزم.. نعم.. أنا مشوه خِلقيًا. أنا أحمل قلبًا في جهة اليمين. لا يعرف أحد عنه شيئًا.



مثل كل صباح، أيقظني ديك الحظيرة من نوم خفيف دام بضع ساعات. فتحت عينيّ لأجد نفسي قد نمت على المنضدة واضعًا رأسي بين ساعديّ دون أن أشعر بنفسي. بدأ نور الصباح يشع في السماء معلنًا يومًا جديدًا. لقد مر على استيقاظي في مثل هذا الوقت المبكر عدة سنوات. اليوم له أهمية كبرى بالنسبة لي، سأتوجه لأول اختبار في الصيد. أهم شيء بالنسبة لي في الأمر هو لقائي الأول مع البحر. أليس شعورًا مخجلًا أن أكون عشت حياتي بأكملها داخل جزيرة محاطة بالبحر وأنا لم ألمس مياهه من قبل؟ اليوم سوف أكتشف غياهبه. سوف أطلق العنان لقلبي وعقلي بين أمواجه.

قمت من مكاني مسرعًا دون تغيير ملابسي وخرجت من غرفتي لأجد الهدوء التام، حتى إيمو الذي من عادته أن يستيقظ باكرًا كل صباح يبدو أن بكاء البارحة أتعبه للغاية. فتحت الباب بهدوء تام وخرجت من المنزل دون أن يشعر بي أحد.

رغم رياح الصباح الباردة فإنني شعرت بحرارة كبيرة تتصاعد من الأرض معلنة أن اليوم سيكون حارقًا. هكذا هو المناخ منذ سنوات، حرارة مفرطة طوال السنة تتخللها أيام يأتي فيها البرد القارس فجأة ويغيب فجأة. حتى صرنا غير مدركين في كل ليلة كيف ستكون السماء في الغد. لولا تلك الآلة التي تصفي مياه البحر لنسقي بها الأراضي لتضورنا جوعًا بسبب شح الأمطار مؤخرًا.

بدت الجزيرة مختلفة في مثل هذا الوقت المبكر. كان الناس فيها قلة كون غالبيتهم لا يزالون نيامًا. لو كنت أعلم أن هذا المكان يكون بهذا الشكل كل فجر لاستيقظت يوميًا مبكرًا كي أستمتع بتلك السويعات التي أستطيع فيها التواصل مع الهدوء، وذاتي، والطبيعة. يا لها من تركيبة رائعة!

فجأة شعرت بانقباض في صدري وألم في قلبي. سرعان ما لحقهما تصاعد مفاجئ وشديد للحرارة التي جعلتني أتصبب عرقًا حتى تبلل قميصي بالكامل وكأنني خرجت للتو من البحر بعد السباحة. اشتدت رغبتي في شرب الماء فلم أجد أمامي سوى أحد الرجال الطاعنين في السن يوجه ثلاثة أحصنة نحو الغابة كي يقتاتوا بينما يحمل بين يديه قارورة ماء خزفية. اقتربت منه بخطوات متمايلة وأنا أحاول جاهدًا التماسك والتنفس رغم الألم الشديد الذي أشعر به. ما إن وصلت إليه حتى هاجت الأحصنة وارتفعت عاليًا وكأنها شاهدت للتو منظرًا مرعبًا فإذا بي أبتعد خائفًا وسقطت على الأرض. حاول الرجل تهدئتها وإبعادها عني ثم هرول باتجاهي معتقدًا أنني قد أصبت:

- هل أنت بخير يا بني؟ هل أصابك أحد أحصنتي؟.

- لا يا سيدي لقد ابتعدت في الوقت المناسب.

- صدقًا لا أعرف ما أصابها إنها المرة الأولى التي تقوم فيها بذلك.

قمت من الأرض وأنا أزيح ما تبقى من الغبار عن لباسي:

- هل لي بقليل من الماء؟ أشعر بعطش شديد.

بدون مجادلة قدم لي الرجل الكريم قارورته فإذا بي أشرب القليل منها وأعيدها إليه احترامًا له ولتصرفه النبيل معي. تفاجأت بنظرته الغريبة لي والتي تلتها نظرة أخرى لكن هذه المرة ركزت عيناه على الأرض ثم ارتفعت إلى السماء وكأنه يبحث عن شيء ما.

- هل هنالك خطب ما يا سيدي؟.

فرك الرجل رأسه لثوانٍ ثم قال:

- إما أنا قد أصبت بالحول.. أو أنك حقًا تمتلك ظلين في نفس الوقت.

أدرت ظهري محدقًا في انعكاس ظلي على الأرض لأصدم بأن كلام الرجل حقيقي. فركت عينيّ مرتين لأتحقق من أنني لا أتخيل شيئًا. نعم أنا أمتلك ظلين. وكأن شخصين يقفان بالقرب من بعضهما البعض. لم أفهم ما يحصل. كل ما شعر به قلبي في تلك اللحظة هو أن هذا الأمر لا يبشر بخير. وبما أنني من المشوهين خِلقيًا في السر قد يزيد هذا الأمر من وضعي سوءًا. لذا توجب عليّ إنقاذ الموقف بابتسامة صفراء وثقة في النفس مزيفة أمام الرجل الذي بدأت الشكوك تحوم في عقله:

- لا يا سيدي هذا أمر طبيعي لأن الشمس لا تزال لم تشرق بشكل تام والزاوية التي أقف فيها تضاعف ظلي. لست مصابًا بالحول طبعًا.

بدا الرجل كأنه اقتنع بإجابتي:

- حسنًا وما أدراني أنا بهذه الأمور.

- شكرًا على المساعدة مجددًا. سأرحل الآن. يومًا سعيدًا.

أطلقت العنان لقدميّ كي أبتعد لأطول مسافة ممكنة محملًا بعلامات استفهام جديدة وتساؤلات لا نهاية لها. من رائحة الدم في الأيادي البيضاء إلى حالة التعرق والألم في قلبي وصولًا لازدواجية ظلي. هنالك خطب ما يحصل لي. هل أنا مريض؟ هل سأموت قريبًا؟ لا أحد يعلم الإجابة سوى القدير.

وصلت أخيرًا إلى الباب الرئيسي للجزيرة، حيث تجمع من حوله عشرات الصيادين المستعدين للخروج إلى البحر وحمل خيراته بين شباكهم. بحثت

وسط الجموع عن العجوز الذي طلب مني مرافقته البارحة. فإذا بي أجده مع شابين آخرين يجهز العدة. ما إن لمحني حتى نادى عليّ:

- ظننت أنك لن تأتي يا فتى.

- لست من النوع الذي يخلف وعوده.

ابتسم العجوز وهو يضع شبكة الصيد على كتفه قائلًا:

- أعرفك بنفسي، أنا إسحاق، وهذا ابني جيمي وشقيقي سيزر..

ألقيت التحية على الجميع ثم أجبته:

- أنا آدم.

وضع سيزر يده على كتفي قائلًا:

- تبدو يافعًا على خوض غمار البحر. لكنني متحمس لرؤيتك تفاجئني.

سمعنا فجأة باب الجزيرة الضخم والذي يتوسط الحائط الرئيسي يفتح أخيرًا. أحاط به جنود السلام والذين تنحصر مهمتهم في حفظ الأمان في الجزيرة ويتلقون الأوامر من البرج الرئاسي كي يسهلوا عملية الصيد الآمن. لم أقف في حياتي بهذا القرب من البحر الذي ما إن فتح باب الجزيرة حتى تسللت رياحه المنعشة التي زادت من حماستي. سرعان ما كسرها أحد الجنود قائلًا:

- هيا يا شباب، أمامكم ساعة من الزمن. لا تتوغلوا كثيرًا في البحر. عودوا قريبًا.

بعد إعطاء إشارة الانطلاق سرنا معًا على آخر أمتار من اليابسة باتجاه قوارب صغيرة وزع عليها الصيادون بالتساوي. ازدادت دقات قلبي فرحًا وأنا أسمع صوت أمواج البحر الأزرق الصافي على مقربة مني. لم أشعر بنفسي سوى عندما وضع سيزر يده على كتفي قائلًا:

- هيا اصعد على القارب. لم يتبق أمامنا وقت طويل.

بدون مناقشة صعدتُ على متن القارب وبدأ جيمي بالتجديف مبتعدًا بأمتار عن اليابسة. إنها المرة الأولى التي أكون فيها بعرض البحر محاطًا باللامكان واللاحدود. فتحت ذراعيّ كأنني طير يحلق في السماء عاليًا. في مكان لن يلحقه فيه عار التشوه الخلقي، والأيادي البيضاء، وأسوار الجزيرة والخوف من يوم الانعتاق. تذكرت للتو عندما بحثت ذات يوم في معجم لغوي عن معني كلمة انعتاق. فوجدت شرحها في كلمة واحدة: التحرر. ثم توجهت لشرح الكلمة ذاتها في الكتاب المقدس. وجدت أن أصول الانعتاق هو وصف قيام طائر العنقاء بفرد جناحيه في السماء معلنًا عن اقتراب النهاية للبشر. ربطت كل تلك الشروحات بوضعي الحالي الآن. أشعر كأنني طائر العنقاء. أفرد جناحيّ في السماء وكل ما أسمعه هو صوت دقات قلبي وأمواج البحر. لكنني ومع الأسف لن أستطيع إعلان نهاية شيء كما يفعل الطائر. أو قد تجمعنا صدفة أخرى فأجد لاحقًا أنني حقًا أعلنت نهاية شيء ما في حياتي.. نهايتي أنا فقط.

قاطع لحظة هدوئي العجوز إسحاق قائلًا:

- لم أر في حياتي شخصًا بهذه الحماسة لمجرد ركوبه البحر.

- لا تتخيل كم حلمت بهذه اللحظة يا سيدي. وكأن القدير أعطاني هدية لا تقدر بثمن.

ابتسم ابنه جيمي قائلًا:

- ليتنا مثلك. فنحن دائمًا نشعر برعب كبير خلال صيدنا ولا نطمئن حتى نعود إلى الجزيرة.

استغربت كثيرًا عند سماعه يعبر عن خوف لا أجد له تفسيرًا. كيف لشخص ما أن يخاف من الحرية؟ يبدو أن الطيور التي تولد في قفص تعتبر الطيران جريمة حتى إن سلمت لها الحرية لفعل ذلك.

- كيف تشعرون بالخوف وأنتم الوحيدون الذين تمتلكون حق الاستمتاع بهذا المنظر الرائع؟.

رمى سيزر شباكه في البحر وتوقف جيمي عن التجديف ليشير لي العجوز بيده عاليًا وهو يقول:

- أترى جنود السلام في أعلى جدار الجزيرة؟ جميعهم يحملون الرماح ويوجهونها نحونا لسبب معين.

أدرت وجهي إلى الخلف لأجدهم حقًا يحملون الرماح في ترقب نحونا. لم أفهم شيئًا مما يحصل. هل يخططون لقتلنا؟ ما سبب كل تلك التجهيزات وكأن حربًا ستقوم لمجرد خروجنا للصيد؟

- هم يا بني يقومون بحمايتنا في حال هاجمنا مخلوق متوحش أو آكلو لحوم البشر..

- وهل سبق أن تعرضتم لهجوم سابقًا؟.

رفع إسحاق جزءًا من قميصه ليظهر تحته منظر مرعب، عبارة عن جزء مقطوع من ذراعه وكأنه تشوه خلقي لا يحتمل النظر إليه.

- يا الهي. ماذا حصل لذراعك؟.

- لقد هاجمني مخلوق من البحر لا أعرف حتى تسميته. كان عبارة عن خليط بين تمساح وسمكة. رفعنا شبكة الصيد من الماء فإذا به يصعد معها ويهاجمنا. لولا وجود جنود السلام ورميه بالرماح لكنت فقدت حياتي. إنها فقط قصة من بين عشرات القصص التي حصلت مع صيادين آخرين.

استطرد سيزر قائلًا:

- قد يبدو لك البحر هادئًا الآن لكن لا تنخدع به. في جوفه توجد مخلوقات لا يمكن للعقل أن يتصورها. هو أخطر شيء موجود على الأرض. لذا فنحن نخاطر بحياتنا كل أسبوع لتأمين القوت لأنفسنا.

أخفضت رأسي محدقًا في قدميّ من شدة صدمتي التي كسرت ذلك الحماس الكبير للبحر والحرية. يبدو أنه في هذا الزمن لا مكان للحرية. البشر محاصرون من كل صوب. البقاء في الجزيرة سجن والخروج منها موت. كيف لي أن أتحمل كل هذا وأنا ما زلت في هذه السن؟ لوهلة ندمت على خروجي معهم للصيد. تمنيت لو لزمت مكاني في الجزيرة محملًا بتلك الأفكار الجميلة عن البحر وأمواجه.

ضحك جيمي موجهًا كلامه لوالده:

- لا يجوز ما فعلته للتو بالصبي لقد حطمت كل سعادته. الآن لن يذكر اسم البحر على لسانه مجددًا.

رد الأب بعزم:

- الأفضل له معرفة ذلك الآن خير من أن يضطر إلى معرفته عند التجربة. لقد لمحت في عينيه شرارة الحماس الكبير لذلك سألته في البداية هل هو قادر على خوض غمار البحر..

ابتلعت غصتي مجيبًا:

- لا عليك فأنت قمت بالصواب. لن أخرج للصيد مجددًا.

- أنت تخرجت للتو من المعبد. مكانك في البرج حيث تستطيع العمل في أمان والاقتراب أكثر من القدير.

بعد قليل رفع سيزر شبكة السمك حتى اضطر الأب لمساعدته فلم أجد طريقة سوى مساعدتهما لنسيان ما سمعته أذناي للتو. كانت الشبكة محملة بأنواع عديدة من السمك الطازج. وضعناه وسط القارب ثم بدأ جيمي بالتجديف عائدًا نحو الجزيرة. رفعت رأسي قليلًا لألمح من بعيد جزءًا من اليابسة. هنالك أرض في الخارج واحتمال وجود حياة عليها كبير أيضًا.

– سيد إسحاق هل تعرف ما الذي يوجد في تلك الأرض؟.

– علِى الأرجح هنالك واحد من اثنين. إما آكلو لحوم البشر، أو الأُحاديّون.

ما إن سمعت كلمة «أحاديين» حتى تذكرت ذكرهم في الكتاب المقدس. إنهم أولئك البشر الذين لم يؤمنوا بديننا «الهلييث» فقرروا العيش بلا دين والغرق في المعاصي والآثام غير مبالين بتعاليم الدين ووصايا القدير أو حتى يوم الانعتاق. يا ترى كيف هي أشكالهم؟ هل هم متوحشون أم متحضرون؟ هل يؤمنون بدين آخر اخترعوه لأنفسهم؟ كلها أسئلة دارت في عقلي ونحن نصل أخيرًا إلى الجزيرة التي فتحت أبوابها مجددًا كي ندخل محملين بالسمك. ترك الصيادون قواربهم في الخارج كالعادة في حال اضطر جنود السلام للخروج والقيام بجولات في البحر للتأكد أن المكان آمن. إنها المرة الأولى التي أشعر فيها بقيمة جنود السلام الكبيرة. فنحن في الجزيرة لا نراهم سوى وهم يمسكون بالمشوهين خِلقيًا. لكن يبدو أن دورهم أهم بكثير خارج الجزيرة. لولا وجودهم لمَات الصيادون ولصارت الجزيرة معرضة للخطر. ليت سيزار يرى ذلك بأم عينه عل وعسى يغير رأيه في أن يصبح واحدًا منهم. أو يا ترى سيظل على كلامه بسبب قدرة جنود السلام على القتل في مكان يحرم فيه أي شكل من أنواع العنف.

دخلتُ الجزيرة مجددًا محملًا بخيبة أمل لم تنجح في تغيير نظرتي لهذا المكان الذي كان وسيظل سجنًا بالنسبة لي. لقد مرت الساعة بسرعة كبيرة

واشتد وهج الشمس رغم أننا ما زلنا في الصباح الباكر. استطاع هواء البحر المنعش أن يحسن من دقات قلبي وينقص الألم بداخله لتعتدل أخيرًا حرارة جسدي. أثناء سيري راقبت انعكاس ظلي لأجده طبيعيًا عكس ما رأيته سابقًا. قد يكون الأمر محض صدفة وتلك الازدواجية ليست سوى انعكاس مضاعف بسبب اتجاه الشمس المعاكس لي.. أتمنى ذلك.

سمعت صوت سيزار يناديني من الخلف فإذا به يصل أخيرًا إليّ:

- كيف كانت رحلتك أيها القبطان؟.

- من أين لك بهذا الخبر؟.

- لقد لمحتك بالصدفة وأنت تغادر مع الصيادين. كان من الغريب رؤية متخرج جديد من المعبد يصبح صيادًا. هل كان الخروج مثمرًا؟.

- لم يكن كذلك. ولن أصبح صيادًا. إنه فقط فضول لرؤية العالم خارج أسوار الجزيرة.

صمتُ لثوانٍ ثم تذكرت للتو أهم سؤال يجب عليّ طرحه:

- الأهم من كل ذلك، ما الذي تفعله في مثل هذا الوقت المبكر؟ أنت تكره الاستيقاظ في الصباح.

ضحك سيزار لثوانٍ ثم قال:

- ذهبت إلى البرج للتسجيل في معسكر قوات السلام. لذا لحقت بهم عند فتح باب الجزيرة كي أرى عملهم من كثب. لكنني في حاجة إلى مساعدتك يا آدم.

- تفضل.

- طلبوا مني تجهيز نص كتابي أتحدث فيه عن هواياتي وعن تأثير الدين في حياتي. أنت تعلم أنني فاشل في التعبير الكتابي ودمج التفاصيل الواقعية مع الدين. أنت تتقن الأمر. لا أدري لمَ يصعبون الأمور على الطلاب الجدد. إما أن أفعل ذلك أو عليّ الإمساك بمشوه خِلقيًا كي يتم قبولي. هلا تساعدني؟.

- حسنًا سيكون جاهزًا بعد الظهر. أساسًا أنا ذاهب إلى مكتبة العم ألبيرت.

عانقني سيزار بقوة قائلًا:

- أنت الأفضل أيها العبقري. أنا أدين لك بواحدة.

- سأفكر لاحقًا كيف ترد لي الدين. المهم نلتقي بعد الظهر أمام باعة السمك لأسلمك النص.

هرول سيزار مسرعًا بعد أن حصل على ما أراده كعادته. من سخرية القدر أنني رغم كل الآثام والمعاصي وشعوري بالخزي اتجاه نفسي مع علاقتي بالدين فإنني أتقن فن الكذب في كل مرة يطلب منا في المعبد التحدث عن حبنا للهلييث ومدى استسلامنا لكل تعاليمه. إنها واحدة من أساليب النجاة التي طورتها كي أعيش في سلام وأبعد الشبهات عني. لكن الشيء الوحيد الذي لا أستطيع التمثيل فيه، ولا إقناع نفسي بالقيام به، هو الذهاب للصلاة يوميًا في بيت الصلاة. أشعر دائمًا أنني لا أستحق أن أدخل إلى ذلك المكان. وكأنني جرثومة ستلوث نهرًا في حال لمسته. كل يوم يتوجه جميع سكان الجزيرة إلى بيت الصلاة للتضرع إلى القدير وطلب المغفرة منه ثم قراءة جزء كبير من الكتاب المقدس. في ذلك المكان لا حاجز بينك وبين القدير. تشعر كأنك عارٍ لا تستطيع إخفاء عيوبك وخطاياك فتتوجه إلى تلك الغرفة الكبيرة في محاولة لإصلاح ما اقترفته يداك من أخطاء وطلب الغفران. لطالما وبختني والدتي

بسبب تهربي من الصلاة. لكنها لا تعرف أنني أموت ألف مرة عندما أفكر في وضعي المزري. جبال من الخطايا تتزايد على ظهري وأنا عاجز عن التوجه إلى المكان الوحيد الذي يستطيع تخفيفها. شعور يجمع بين الندم والخوف. لكنه على الأرجح كالمرض العضال لا علاج له. فأنا ملعون من القدير بتشوهي الخلقي. كيف سأجرؤ على طلب المغفرة منه؟ لذا قررت العيش على أساس أن مصيري حتمًا.. هو الجحيم.

لمحت من بعيد مايا متوجهة نحو طريق منزلي حاملة سلتها الخشبية. ناديت عليها لتدير وجهها نحوي وتأتي بخطى بطيئة مخفضة عينيها ومحاولة إخفاء ملامح وجهها الحزين.

– ماذا بك؟ ولمَ عيناك حمراوان؟.

– لا شيء إنها مجرد حساسية. ماذا تفعل في هذا الوقت المبكر هنا؟.

وضعت يدي على كتفها وأبعدتها بعيدًا عن الطريق لأسألها مجددًا:

– كنت تبكين. أنا أعرفك جيدًا.

فجأة بدا أن مايا فقدت السيطرة على دموعها فبدأت بالبكاء وارتجفت شفتاها بنفس الطريقة التي كانت تفعلها عندما كانت طفلة. بدت منكسرة، خائفة، يائسة. لطالما رأيتها تقاوم حزنها بابتسامتها المصطنعة. لكن هذه المرة يبدو عليها أنها وصلت إلى حافة الانهيار ولم تعد قادرة على التحمل أكثر.

– أريد أن أموت يا آدم. ليتني أستطيع الخروج من الجزيرة ورمي نفسي لآكلي لحوم البشر كي أرتاح.

– لم تقولين هذا؟ ماذا حصل؟.

- إنه أبي. البارحة تشاجرنا كثيرًا. يبدو أنه يريد تزويجي لابن أحد أعضاء مجلس الشيوخ. وعندما رفضت هددني أنه سيسجنني في المنزل غصبًا عني ويزوجني به.

وضعت يدي على جبيني غير مدرك لإجابة مقنعة تشعرها بالأمان. تأملتها وهي تمسك بسلتها بين ذراعيها وتصارع دموعها كطفلة خائفة منكسرة. لم أدرك قبل هذا اليوم كم يؤلمني رؤيتها بهذه الحالة. شعرت بحزن كبير عليها جعلني أنسى كل شيء حصل معي مؤخرًا وأركز عليها. ماذا سأفعل كي أجعلها تشعر أنها بخير؟ كيف لي أن أواجه والدها المتسلط بمفردي؟ كل ما خطر في بالي تلك اللحظة، هو معانقتها حتى وضعت رأسها على صدري وهدأت تدريجيًا عند سماعي أقول:

- لا تقلقي، سيكون كل شيء على ما يرام. سنجد حلًا لهذا الأمر.

بعد قليل توقفت عن البكاء وتراجعت قليلًا وهي تمسح دموعها قائلة:

- تذكرت للتو شيئًا مهمًا. رأيت قبل قليل إيمو جالسًا على حافة البركة يجهش بالبكاء ويقول أنه شيطان وأن القدير يكرهه. لم يرد أن يخبرني بشيء وغادر مسرعًا. ماذا يحصل؟.

شعرت بارتباك كبير من سؤالها المباغت وهي التي كانت قبل قليل محور تفكيري، الآن صرت مجبرًا على إيجاد حل لإبقاء سر إيمو في أمان.

- لا أدري. قد يكون تشاجر مع شخص ما مثلًا.

نظرت إليّ بطريقة مشككة:

- إيمو يتشاجر؟ منذ متى؟ والأهم من ذلك منذ متى يخفي عنك أمرًا؟ أنت تعلم كل شيء عنه. آدم أنا أشعر بخطب ما حول ذلك الصبي. وأشعر أنكما تخفيان عني أمرًا مهمًا.

أصبت بحالة صمت رهيب وأنا أحاول التفكير في كذبة مناسبة لإنقاذ الموقف. تهربت من نظرات مايا وازدادت دقات قلبي عندما سمعتها تقول:

- إيمو.. مشوه خِلقيًا. أليس كذلك؟.

شعرت كأنني تعرضت لصفعة للتو حتى صرت عاجزًا عن النطق وكأنني سقطت عاليًا من تلة شاهقة الارتفاع. كم الكذب صعب على مايا. رغم براءتها فإنها ذكية في التقاط الإشارات والتحليل السريع. طبعًا كانت لتفهم المغزى بعد سماع إيمو يقول أنه شيطان. لم أجد طريقة سوى القيام بمصارحتها وأنا على يقين أنها ستحفظ السر كعادتها. لأنها تأثرت بشخصيتي وصارت تشعر بالحزن على المشوهين خِلقيًا.

- نعم. لقد أخبرني بذلك البارحة.

وضعت مايا يدها على شفتيها قائلة بصوت متقطع:

- يا إلهي.. كيف حصل ذلك؟ منذ متى؟ أين التشوه بالضبط؟.

- إنه مصاب بالتقزم. يعلم بذلك منذ الصغر لكنه كان يعتقد أن الأمر لن يلاحظه أحد. إنه يشعر بالخوف بسبب تضييق الخناق على المشوهين مؤخرًا..

- مسكين. حظه سيئ في هذه الدنيا. ماذا سيفعل الآن؟ إنه يبدو في حالة مزرية. أخاف أن يقوم بتسليم نفسه.

- لا أدري بعد. سأتحدث معه اليوم بعد العودة من المكتبة. لكن عديني يا مايا أن يظل الأمر سرًا وأن لا يعلم به أحد. لن أسامح نفسي إن حصل له مكروه بسببي.

- لا تقلق. سيظل الأمر سرًا بيننا. أعدك بذلك.

نظرت إلى سلتها وتذكرت للتو أنني قد وعدتها بالذهاب لقطف الفطر.

– هيا بنا إلى الغابة لنقطف الفطر.

فجأة ظهر من العدم سيزار مرة أخرى حاملًا بين يديه الكثير من الفطر وتبدو عليه علامات الحماسة. اقترب منا ووضعه وسط سلتها قائلًا:

– لا داعي لذلك يا شباب. سيزار هنا في الخدمة.

نظرَت إليه مايا بعيون ذابلة وقالت:

– شكرًا لك.

ودعنا سيزار وتوجهنا أخيرًا إلى المكتبة الكبيرة التي يديرها ذلك الرجل العجوز الغامض «العم ألبيرت». قلة من سكان الجزيرة يزورون ذلك المكان المعتم والمنعزل عن البشر شأنه كشأن صاحبه. العم ألبيرت شخص غريب الأطوار. اتخذ من الكتب رفيق درب له بعد أن استقر في الجزيرة منذ أكثر من عشرين سنة. لا يعرف أحد شيئًا عن حياته السابقة أو أين موطنه الأصلي. كل ما يعرفه الناس عنه هو أنه ذلك الرجل العجوز الذي جاء محملًا بالكتب والقصص ويملك آلة طباعة توفر مواد القراءة لطلاب الجزيرة. لا يتحدث مع أحد مطولًا. لكن الأمر لا ينطبق عليّ طبعًا.

فتحتُ باب المكتبة التي كانت مظلمة كعادتها. ألقيت التحية بعد أن أقفلت مايا الباب بلطف. تجولت عيناي حول المكتبة المكونة من طابقين صنعا كليًا من الخشب. لا تزال رائحة الكتب الجلدية تجتاح أنفي في كل مرة أدخل فيها إلى هذا المكان. يذكرني ذلك في أول مرة حاولتُ فيها اقتحام المكتبة عندما كنت في السابعة من عمري. كنت آنذاك طفلًا فضوليًا جدًا يحاول معرفة فحوى هذا المكان الغامض. لم يسمح لي العم ألبيرت بالدخول لعدة أيام لكن ذلك لم يردع من عزيمتي بل زادها شراسة. حتى جاء يوم استيقظت فيه مبكرًا واختبأت منتظرًا أن يأتي ليفتح الباب وأقتحم المكتبة دون أن يشعر

بي. كم كان مصدومًا عند رؤيتي جالسًا على الكرسي أحملق في كل شيء أراه أمامي. عندها استسلم لفضولي وقرر أن يسمح لي بأن آتي عنده كلما شعرت بالحاجة إلى ذلك لأقرأ القصص الخيالية وأتعلم.

علاقتي بهذا الرجل أكثر تعقيدًا من علاقتي بوالدتي. رغم أنه يخفي الكثير في جعبته فإنني أشعر أنه يشبهني كثيرًا. تكونت بيننا علاقة صداقة واحترام بين تلميذ ومعلمه. فصارت القصص التاريخية والخيالية والكتب العلمية والأسطورية تجمعنا فنجلس في العلية نتناقش حولها وأتعلم منه قدر المستطاع. لطالما شكلت لي الكتب المتنفس الوحيد في هذا المكان. كانت تحملني بعيدًا وتضعني في زمان ومكان مختلفين فأنسى نفسي وأعيش تفاصيل القصص والشخصيات حتى ينتهي الكتاب فأنتقل إلى آخر.

- أيها العم. أنت هنا؟.

ليجيبني بصوته المبحوح:

- أنا في العلية، اصعد.

صعدت على السلالم الخشبية بينما ظلت مايا في الأسفل تحاول تنظيف ما التقطته عيناها من غبار على الطاولة. ما إن وصلتُ عنده حتى وجدته يرتب الكتب على الرفوف مرتديًا جلبابه الرمادي الفاتح الذي يطابق لون لحيته الطويلة وقبعته الملفوفة على رأسه بدقة مانعة ظهور أي خصلة من شعره الأشيب.

- مرحبًا أيها العم. كيف حالك؟.

- بخير. وأنت يا بني؟.

- بخير أيضًا. شكرًا للقدير.

أنزل نظارته إلى الأسفل وتفحصني قائلًا:

– بالرغم من أنك تبدو شاحبًا فإنني سأتقبل إجابتك مؤقتًا.

أخرج من الرف كتابين وسلمهما لي مستطردًا:

– هذا كتاب علم العناكب الذي أخبرتك عنه. وهذه رواية فارس الظلام التي لم تكملها بعد.

– حسنًا سأذهب للجلوس وإتمام قراءتها. مايا في الأسفل تنظف القاعة.

حملت الكتابين وتوجهت للجلوس على الكرسي المقابل للنافذة المطلة على البرج الرئاسي. كانت أشعة الشمس القوية تجعله يبدو كأنه قطعة خيالية لا وجود لها على الواقع. لا أحد ينكر أن البرج هو أجمل ما في هذه الجزيرة تصميمًا. إضافة إلى ارتفاعه، فقد تم تغطيته بطبقات من الزجاج الذي يجعله يلمع في الأيام المشمسة فيبدو كقطعة ماسية وسط نهر استوائي. يبدو غريبًا أن يكون هنالك مَعلم مثله في هذا المكان وهذا الزمان حيث الموت يحوم من حولنا والكوارث الطبيعية تباغتنا بين الحين والآخر. لكن على الأرجح اتخذت جماعة الأيادي البيضاء هذه الطريقة لجذب كل المتخرجين المتفوقين من المعبد للعمل فيه ومساعدتهم على تسيير أمور الجزيرة. إضافة إلى عشقهم الكبير للمثالية كونهم ليسوا بشرًا.

انغمستُ لدقائق داخل آخر صفحات رواية فارس الظلام التي بدأت قراءتها قبل أسبوعين. بعد انتهائي لمحت العم ألبيرت يجلس على الكرسي المقابل لي وهو يقرأ كتابًا آخر. أقفلت روايتي وقلت:

– لقد كانت نهاية باردة ومتوقعة. دائمًا ما ينجح البطل في قتل الأشرار وتكون النهاية سعيدة. رغم أنها رواية خيالية فإنني أجد من غير المعقول أن يتفوق فارس الظلام على الغيلان والأفاعي بمفرده دون التعرض على الأقل لعاهة مستديمة.

خلع العم ألبيرت نظارته ثم أجابني:

- إنها رواية خيالية أولًا. وثانيًا إن دققت في تفاصيل القصة ستجد أن قدر الفارس أن يجد لؤلؤة الجمر في بقاع الجحيم بعد التضحية بنفسه لإنقاذ شعبه. وهنا يكمن المغزى، كان الاختبار الحقيقي له هو مقدرته على التضحية في سبيل إنقاذ الغير. لذلك تمت مكافأته بتلك القوى الخارقة للقضاء على شر.

وضعت يدي على خدي وأنا أراقب النافذة قائلًا:

- ليت الحياة بهذه السهولة.

- ماذا يحصل لك يا آدم؟ لمَ صرت متشائمًا لهذه الدرجة؟ كنت دائمًا تعلق بإيجابية على الروايات.

ابتسمت ساخرًا:

- إنها الحياة يا معلمي. هذا المكان يقتل أصحابه ببطء. حتى الأحلام والآمال تموت رويدًا رويدًا فنجد أنفسنا أشباه الأموات ننتظر يوم الانعتاق أن يحين كي نرتاح أخيرًا.

قام العم ألبيرت من كرسيه واقترب مني قائلًا:

- أخبرني بما حصل. أنا أعرفك جيدًا عندما تخفي أمرًا ما عني.

أخفضت عينيّ للأرض ثم أجبته بعد صمت طويل:

«موضوع معاملة المشوهين خِلقيًا كأنهم شياطين يؤرقني. أشعر بيد تحكم قبضتها على عنقي وتشعرني بالاختناق من هذا الوضع.

- منذ أن ولدت وأنت ترى مثل هذه المعاملة لكنك لم تعلق عليها يومًا. ما الجديد في ذلك؟.

- الجديد أنني اكتشفت أن شخصًا قريبًا لي مشوه خِلقيًا. والأسوأ من ذلك أنه منهار ولا أضمن أن لا يسلم نفسه للبرج. لقد وعدته أن أجد حلًا.. لكنني لا أعرف حقًا ماذا أفعل.

تراجع العم ألبيرت بخطوات إلى الخلف ثم جلس على كرسيه مجددًا قائلًا:

- لن أسألك عن هوية هذا الشخص لأنني لست في حاجة لحمل سر بهذا الخطر..

صمتَ قليلًا ثم عاد ليكمل حديثه:

- مشكلتك يا آدم أنك تفكر كثيرًا. تدقق في أدق التفاصيل. في هذا المكان الجميع يفكرون كسرب من الجراد. لا يرون سوى ما يجدونه أمامهم. أما أنت فتحمل بين ضلوعك عدوك: قلبك. يشعر بالجميع ويريد محاولة تغيير كل الأوضاع. لكن دعني أخبرك نصيحة يا بني، لن تكسب شيئًا سوى التعاسة من ذلك.

مرة أخرى نجح العم ألبيرت في وصف حالتي. شعرت بقشعريرة عندما ذكر قلبي. حتى كدت أن أظن أنه يعلم بتشوهي السري. لكن تتمة جملته أعادت الدم إلى عروقي عندها شعرت بالاطمئنان مجددًا.

شردتُ في منظر البرج لوهلة فإذا بي أتذكر أهم سؤال يدور في عقلي:

- لم لا يوجد كتاب أو مخطوطات عن تفاصيل تتعلق بجماعة الأيادي البيضاء؟.

ظهرت علامات الاستغراب الكبير من هذا التساؤل المباغت على وجه العم ألبريت.

- لمَ تسأل؟.

- لا أدري، أجد من الغريب جدًا تقبل الناس هنا لثلاثة أشخاص غير بشريين نزلوا من السماء لتسيير أمور الأرض دون التحري عنهم. حتى أشكالهم تبدو غريبة ولا نعرف عنهم شيئًا.

- إنهم مخلوقات نورانية لذا من الطبع أن تجد أشكالهم غريبة. في الكتاب المقدس هنالك الكثير من المعلومات عنهم.

- تقصد عن النورانيين القدامى الذين نزلوا في الأرض خلال بداية الزمان. أما جماعة الأيادي البيضاء لم يتم ذكرهم. حتى الكتاب نفسه لم يعط معلومات عن كيفية ولادتهم. هل هم ملائكة، هل يموتون، يتزوجون، ينجبون، أو حتى يشيخون؟ لا أدري لكنني حقًا لا أفهم شيئًا هنا.

- هل رأيت شيئًا مريبًا حولهم جعلك تشعر بالشك؟.

كنت على وشك إخباره عن واقعة رائحة الدم المنبعثة منهم لكنني في آخر لحظة قررت عدم المخاطرة بالبوح. فأنا لن أخاطر بأن يراني العم ألبيرت كشخص مجنون يهلوس ويتخيل كل شيء. هذا الرجل يؤمن بالحقائق والمنطق. هذا السبب الأهم الذي جعله لا يغادر مكتبته ولا يختلط مع الناس في هذا المكان.

- لا، لم يحصل شيء. إنها فقط أفكار تخطر على بالي أحيانًا.

بدت لهجة العم ألبيرت صارمة وهو يقول:

- ابتلع تلك الأفكار ولا تبح بها لأحد. إن سمعك أحد تقول هذا الكلام سيكون مصيرك أسوأ من المشوهين خِلقيًا. في هذا المكان لا يجب التفكير بصوت عالٍ. ليتني أستطيع إقفال عقلك كما أقفل الكتب.

- ليتني أستطيع فعل ذلك أيضًا...

غادر العم ألبيرت العلية ونزل إلى الأسفل ليطمئن على مايا المنشغلة في التنظيف. بعد لحظات سمعت صوتًا مريبًا في الغرفة الموجودة بزاوية مخفية في أقصى يمين العلية. لم أستطع كبح جماح فضولي لأقوم وأفتح الباب فإذا بي أجد غرفة مليئة بالكتب المتناثرة والغبار إضافة إلى خيوط العناكب المتدلية من الأعلى. كانت الأثواب المتسخة والألبسة تملأ جل مساحة الغرفة. لم أدخل هذا المكان في حياتي من قبل. على الأرجح يعتبرها العم ألبيرت مستودعًا للكتب غير المهمة. لمحت في جانب الحائط فأرًا يتنقل بسرعة محدثًا صوتًا خفيفًا. حملت بين يديّ عصا التنظيف ودخلت ملاحقًا إياه كي أقتله. فمن قوانين الجزيرة أن نقتل الفئران مهما كانت الظروف. لاحقته وأنا أتخبط في خطاي حتى تعثرت بصندوق خشبي وسقطت على الأرض لتتناثر عليّ الأوراق من كل جهة.

قمت مسرعًا وبدأت بترتيب الأوراق في الصندوق. فإذا بورقة تشدُّ انتباهي، ورقة تبدو قديمة جدًا وخط الكتابة عليها جميل وغريب في نفس الوقت. اقتربت من الباب كي أحصل على بعض النور لأقرأ فحواها:

– في يوم اجتمعت فيه كل مخلوقات الله، ورفعت الحجب عن المنسيين، ستنشق الأرض وتنقسم السماء معلنة أن يوم الانعتاق قد حان. ستسود الدماء كل الذهب الأبيض ويمسك المختار بعصاه معلنًا معركته بمباركة القدير والملائكة السبعة والسبعين.

لم أصدق عينيّ وأنا أقرأ ما يشبه كثيرًا الكتاب المقدس في طريقة التعبير. لكنني لم أفهم شيئًا مما يقوله. ما علاقة يوم الانعتاق بكل ما قيل؟ من هم المنسيون؟ أي مختار يتحدث عنه؟ ما هي هذه المعركة؟ شعرت لوهلة بدوار كبير يجتاح عقلي بسبب كثرة ازدحام الأسئلة الباحثة عن أجوبة. لطالما أخبرني العم ألبيرت أنه لا يوجد أي كتاب له علاقة بكتابنا المقدس. كيف

يمكن لهذه الصفحة أن توجد من تلقاء نفسها؟ هنالك سر يخفيه هذا العجوز عني حتمًا.

ما إن سمعت خطوات قادمة من السلالم حتى طويت الورقة ووضعتها في جيبي ثم أقفلت الباب وعدت مسرعًا إلى الطاولة وكأن شيئًا لم يكن. أمسكت بورقة بيضاء وبدأت بكتابة موضوع القبول الذي طلبه منه سيزار بينما بدأ يمر بجانبي مرة تلو الأخرى العم ألبيرت يرتب الكتب على الرفوف.

- لقد ذهبت مايا إلى الخارج لتحضر لنا من كعكها المحلى.

لوهلة تجاهلت صوته وهو يحدثني فإذا به يقترب مني ويلمس كتفي قائلًا:

- هل أنت معي يا ولد؟ أين عقلك؟.

ابتلعت غصتي بسرعة لأجيبه:

- أنا فقط أفكر في الموضوع الذي أكتبه من أجل صديقي سيزار.

- ذلك الشاب المتهور مجددًا؟ متى سيتعلم القيام بأعماله بنفسه؟ ما زلت إلى الآن أتساءل لمَ تصاحبه.

- قد يكون متهورًا لكنه شخص طيب.

ابتسم العم ألبيرت ساخرًا:

- لا يوجد طيب أكثر منك يا بني. خبرتي في الحياة تجعلني بنظرة واحدة قادرًا على معرفة ما يدور في رأس شخص ما. وهذا الشاب بالتحديد يبدو عليه أنه انتهازي قد يسحق أي شخص للوصول إلى هدفه.

استغربت كثيرًا من تلك النظرة السوداء التي يرى بها العم ألبيرت سيزار. قد يبدو سيزار شابًا طائشًا أنانيًا لكنه لم يؤذني في حياتي من قبل،

ولم أره يؤذي شخصًا آخر أيضًا. لذا على الأرجح أن العم ألبيرت يحكم عليه مما يراه في الظاهر بينما هو أيضًا يعيش وسط فجوة الأسرار التي اكتشفت آخرها اليوم.

مر الوقت سريعًا حتى بدأت أقلق على مايا التي ليست من عادتها أن تتأخر كثيرًا. أمسكت ورقة سيزار بين يديّ واستأذنت من العم ألبيرت للخروج باحثًا عن مايا. لم أرد أن أسأله عن تلك الصفحة التي وجدتها في مستودع الكتب. لأنني أعرف مسبقًا أنه لن يجيبني وسيوبخني بدلًا من أن يظهر لي الحقيقة. هذا هو العم ألبيرت الذي يجيبك عن أي سؤال يتعلق بالكتب والعلم لكنه يرفض أن يعطيك ولو لمحة صغيرة عن حياته وأسراره. وأنا حاليًا لست قادرًا على مجادلة أحد. يكفيني ما يحمله رأسي من هموم لو وُضعت على جبل لما تحملها. سأقوم بالتحري عن تلك الصفحة بنفسي لاحقًا.

لم يتطلب مني البحث عن مايا مطولًا لأنني ما إن كدت أصل إلى قلب الجزيرة حتى لمحتها تركض مسرعة نحوي.

كعادته أفزعني سيزار من الخلف صارخًا في أذني كما كان يفعل دائمًا عندما كنا صغارًا. أدرت وجهي لأجد محياه في أفضل حالاته وعينه تلمع سعادة أكثر من أي وقت مضى.

- جيد أنك هنا لقد جهزت لك ورقتك.

وضع سيزار يده على كتفي قائلًا:

- شكرًا لك جدًا يا صاح، لكنني هنا لأخبركما أنه تم قبولي قبل قليل في فرقة جنود السلام دون امتحان.

اجتاحت الصدمة وجهي ووجه مايا فجعلني ذلك أتساءل مباشرة:

- كيف تم ذلك؟ ألم تخبرني أنه من المفترض أن تخضع لامتحان كي يتم قبولك؟.

- لا تسألني كيف فأنت تعلم أنني عنيد ولي طرقي في الوصول إلى أهدافي، مع مباركة القدير طبعًا.

لم أرد أن أضغط على سيزار أكثر لكنني متيقن من أنه شخص يتقن فن التلاعب بالظروف لصالحه. لن أنكر أنني أحيانًا أعجب بتلك النظرية لكنني في غالب الأحيان أعارض طرق الوصول إليها. حين تجتاحك الرغبة الكبيرة في الوصول إلى الغاية، تصير جميع الوسائل جائزة حتى إن كان ذلك يعني أذية غيرك أو القيام بعمل غير مشروع للوصول إلى هدفك.

ودعنا سيزار وأكملت أنا ومايا الطريق متناولين الكعك بعد أن هزمني الجوع. جلسنا على غصن الشجرة المحاذية للتلة المؤدية إلى طريق الغابة. راقبنا عن بعيد الجزيرة التي بدت خالية مع بداية خفوت وهج الشمس في السماء. لم يطل الصمت أكثر حتى كسرته مايا قائلة:

- لا تنس الحديث مع إيمو. رؤيته هذا الصباح أقلقتني كثيرًا.

- لا تقلقي سأحدثه وأعيده إلى صوابه كما أفعل دائمًا. أخبريني أنت.. كيف تشعرين الآن؟.

تنفست مايا الصعداء وهي تحاول تجميع شتات أفكارها مجيبة:

- كل ما أشعر به الآن هو أنني ما زلت صامدة بطريق ما. أتدري شيئًا؟ أنا ألازمك طوال اليوم خارج بيتي هربًا من العودة إلى تلك الجدران. حتى إنني صرت أكرهه، صار بالنسبة لي مثل الجحيم. ليتني أستطيع الذهاب إلى مكان آخر.. لكن...

- لكن ماذا؟.

- لكن لا مكان أستطيع الذهاب إليه. سأعود أنا إلى ذلك البيت المظلم أنتظر أن يزوجني أبي بالرجل القذر. من يدري قد يكافئني القدير على تضحيتي وصبري بالدخول إلى الجنة. هل توافقني على ذلك؟.

ابتسمت في وجهها مجيبًا:

- حقًا أنا آخر شخص يجب سؤاله على ذلك. تعرفين جيدًا أنني لست مثلك ولن أكون كذلك. الاستسلام ليس من طبعي وتكهن المستقبل في هذا المكان ضرب من الجنون..

وضعت يدها على كتفي قائلة:

- أتدري شيئًا يا آدم، رغم أنك غريب الأطوار فإنني حقًا لا أعرف ماذا كان ليحصل لي بدونك في هذا المكان. أنت الوحيد الذي أشعر معه أنني أنتمي لشيء غير الأحزان. لذلك تجدني ملتصقة بك كالعلقة.

تبادلنا ضحكة عالية حتى دمعت عيوننا وكأننا عدنا عشر سنوات إلى الوراء عندما كنا صغارًا نضحك على أتفه الأشياء. وضعت يدي على كتفها وجعلتها تقترب مني حتى وضعت رأسها على صدري وسمحَت لي بأن أمرر أصابعي على شعرها الأسود الناعم. أحيانًا أشعر أنها ابنتي التي لم أنجبها بعد، وحمايتها واجب عليّ. وأحيانًا أشعر أنها أمي عندما تهتم بي كثيرًا. في كل مرة أعانقها أشعر بدفء الأسرة ورائحة التراب عندما يتساقط الغيث النادر في الجزيرة. أشعر بالأمان والاستقرار والانتماء أيضًا لها. لكنني لست بارعًا في التعبير عن نفسي. ولا أعرف إن كنت أحبها كشقيقتي أم أكثر من ذلك. فأنا أساسًا لا أعرف ما هو الحب وكيف نفرق بينه وبين الصداقة.

ما إن سمعنا أقدام الناس تتحرك من خلفنا حتى أبعدت مايا رأسها عن صدري كي نبعد الشبهات عنا. في هذا المكان لا يسمح للشاب والفتاة بالاقتراب أكثر من بعضهما البعض خوفًا من حدوث الرذيلة. غير مدركين أنه خلف الأبواب المغلقة يحصل أفظع من ذلك. أهمهم أعضاء مجلس الشيوخ الذين يخطئون دائمًا مع فتيات قاصرات وخوفًا من الفضيحة يتزوجون بهن. هذه أمور لا يعلم بها أحد سوى أنا ومايا بحكم عمل والدها معهم وسماع

قصصهم على لسانه. الكل هنا يعتقد أنهم ملائكة. يبدو أنه حتى للملائكة أجنحة خفية من الجحيم فشل نور الدين المزيف في إخفائها.

فجأة تذكرت موضوعًا كاد أن يخفى عن بالي. عليّ التوجه إلى البرج كي آخذ مباركة جماعة الأيادي البيضاء لتكتمل شهادة تخرجي. بداخلي تمنيت لو لم يكن عليّ الذهاب إلى ذلك المكان والاقتراب منهم مجددًا. لكنني مجبر على ذلك لأن الجميع شهد أنني لم آخذ المباركة في يوم التخرج ولا مفر من ذلك. إضافة إلى أن الأيادي البيضاء ومجلس الشيوخ يتذكرونني جيدًا.

- هل لديك شيء لتقومي به الآن يا مايا؟.

- لا أبدًا. لمَ تسأل؟.

قمت من مكاني وأنا أمسح التراب من سروالي وأجبتها:

- عليّ الذهاب إلى البرج وأخذ مباركة الأيادي البيضاء لاكتمال شهادة تخرجي. هلا ترافقيني؟.

- حسنًا سأرافقك.

توجهنا معًا نحو البرج الرئاسي الذي بدا أجمل بعشر مرات من رؤيته عبر نافذة المكتبة. من الصعب تصديق أن مكانًا كهذه الجزيرة يحمل مَعلمًا رائعًا مثل البرج. إعجابي به وفضولي لرؤيته من الداخل حمسني للدخول رغم خوفي من مواجهة الأيادي البيضاء والوقوع في موقف محرج.

فتح لنا الحراس الباب ودخلنا بخطى متباطئة ونحن نتأمل كل تفصيل صغير من القاعة الرئيسية التي كان السقف فيها منقوشًا بزخرفات رائعة على أشكال تنانين وزهور تخطف الأنظار. سرحت أنا ومايا في شكل السقف حتى سمعنا صوت شاب خلفنا يقول:

- هل أستطيع مساعدتكما في شيء؟.

أدرت وجهي لأجد شابًا في منتصف العشرينات من عمره بوجه شاحب وابتسامة باردة. أجبته:

- نعم أنا جئت هنا كي آخذ مباركة الأيادي البيضاء لشهادة تخرجي من المعبد. لقد طلبوا مني المرور اليوم لإتمام الأمر.

رفع الشاب يده باتجاه اليمين قائلًا:

- تفضلا معي.

تقدمَنا الشاب بخطوات واثقة في الرواق الضيق ثم صعدنا السلالم التي تشع بياضًا ونحن لا ننطق بكلمة واحدة. كل ما استطعت فعله أنا ومايا هو تأمل كل التفاصيل باستغراب كبير والتي لا تشبه أبدًا بيوتنا أو حتى المعبد. وصلنا أخيرًا أمام باب خشبي كبير منقوشة عليه أغصان الأشجار ليطلب منا الشاب الانتظار بينما طرق الباب ودخل، ثم اختفى لثوانٍ فإذا به يعود للخروج قائلًا:

- تفضل معي سيد آدم، لكن بمفردك. تستطيع الآنسة انتظارك في الخارج.

تبادلت أنا ومايا نظرات استغراب سريعة لكنني استجمعت قواي وتقدمت بخطوات ثابتة وأنا أشعر أن قلبي يخفق بسرعة هائلة حتى بات تنفسي ينقطع في كل مرة تتحرك فيها ساقاي نحو الباب. أمسكت بالمقبض ودخلت أخيرًا بعد صراع كبير في نفسي مع مخاوفي.

توقفت وأنا أضع يديّ خلف ظهري أراقب «فيفيان» المكلفة بأمور المتخرجين والمعبد وهي تبحث وسط كومة من الأوراق، بينما تأملت بسرعة المكتب الذي كان عاديًا جدًا بالمقارنة مع مظهره الخارجي. رفعَت رأسها أخيرًا وحدقت بي لثوانٍ ثم قالت:

- مرحبًا بك يا آدم. من الجيد أنك لم تنس مهمتك.

أعطيت المجال لرئتيّ كي تتنفسا بشكل طبيعي بعد أن كنت أحاول تجنب ذلك كي لا أشتم رائحة الدم الكريهة مجددًا وأقع في موقف محرج لا تفسير له. لكن هذه المرة لم تصدر أي رائحة منها. فجعلني ذلك أعيد النظر في كل شيء. لا بد أنني أعاني من مشكل صحي يجعلني أشم رائحة الدم فجأة دون سابق إنذار. قد تكون جماعة الأيادي البيضاء ليست بذلك السوء الذي اعتقدته.

أشارت لي بيدها كي أجلس على الكرسي المحاذي للمكتب. بدون تردد نفذت أمرها وعيناي مصوبتان نحو الأرض تفاديًا للنظر إليها. بعد صمت قصير قالت:

- كيف تشعر الآن يا بني؟ ما زلت مريضًا؟.

- أشعر بتحسن كبير. شكرًا لك على الاهتمام يا سيدتي.

رفعتُ رأسي أخيرًا محدقًا بها. ما زلت لا أستطيع تقبل النظر إليها بشكل طبيعي. لا أعرف السبب. فلا بشرتها ولا صوتها المنخفض جدًا يشعرانني بالراحة. كان جسدي يقشعر عندما تلتقي عيناي بعينيها الكبيرتين واللتين يتوسط كلًا منهما بؤبؤ شديد السواد. ضغطت على نفسي أكثر وحاولت جاهدًا إخفاء أحاسيسي خلف قناع الشاب الخجول الذي لا يستطيع الحديث مع النساء.

- لقد أقلقني وضعك ذلك اليوم. لو لم تأتِ لزيارتنا لكنت كلفت أحدًا للاطمئنان عليك.

- أشكرك جدًا على كرمك يا سيدتي..

فجأة طرق الباب ودخل نفس الشاب لكن هذه المرة بوجه عبوس. استأذن منا واقترب من فيفيان ليهمس لها بشيء ما جعلها تقوم من الكرسي قائلة:

- أعتذر، لدي أمر مستعجل يا آدم. هل تستطيع أن تمر غدًا لنكمل المباركة؟.

أومأت برأسي مجيبًا:

- بالتأكيد.

خرجت بعدهما من المكتب لأجد مايا تنتظرني في مكانها. اقتربت مني مستفسرة:

- هل تم الأمر؟.

- لا. يبدو أن شيئًا ما قد طرأ فجأة جعلها تقوم مسرعة وتؤجل المباركة للغد.

- لقد لَمَحْت للتو تأهب حراس البرج. يبدو أنهم أمسكوا بمجموعة من المشوهين خِلقيًا.

أكملنا طريقنا وسط الرواق منشغلين بالحديث لأتوقف فجأة وأنا أحاول تذكر طريق العودة كون جميع الأروقة هنا تشبه بعضها البعض.

- هل تذكرين من أين أتى بنا ذلك الشاب؟.

- أظن أننا دخلنا من الجهة اليسرى.

بدون تردد بدأنا بالسير بسرعة لكن ما إن وصلنا إلى نهاية الرواق حتى سمعنا ضجة مريبة جعلتنا نختبئ خلف زاوية الحائط نراقب تفاصيل ما يحدث. لمحنا مجموعة من الحراس يقومون باقتياد أربعة أشخاص أياديهم مربوطة بحبال متينة. همست لي مايا قائلة:

- هؤلاء هم المشوهون خِلقيًا الذين تم الإمساك بهم.

شعرت بفضول كبير وأنا أحاول معرفة ما يحصل بالضبط:

- إلى أين يأخذونهم؟ أليس من المفترض بهم أن يطردوهم خارج الجزيرة؟.

وضعت مايا يدها على كتفي قائلة:

- هذا ليس شأننا يا آدم. هيا بنا لنغادر نحن لسنا في حاجة للمشاكل.

بدا لي كلام مايا معقولاً. فرغم روعة المكان فإن البقاء فيه يشعر بالاكتئاب والانقباض في القلب. ما إن بدأنا بالسير عائدين حتى سمعت صوت بكاء مألوفًا جدًا. لم أستطع التحكم في نفسي حتى عدت خطوات إلى الوراء لكي أتجسس. فإذا بي ألمح طفلًا يجلس بجانب الحائط ويداه مكبلتان يجهش بالبكاء بينما يمسك به حارسان. تمنيت لو كان مجرد شخص يشبهه.. لكنه كان هو.. إنه إيمو بنفسه.

شعرت كأنني سقطت للتو من أعلى غصن لشجرة عالية نحو الأرض. ارتجفت يداي وتسمرت في مكاني حتى شعرت مايا بالقلق عليّ وركضت نحوي لتطمئن على الأوضاع، فإذا بها تلمح إيمو أيضًا:

- يا إلهي إنه إيمو. لقد أمسكوا به.

ارتفعت حرارة جسدي وأنا أحاول ترتيب الأفكار في رأسي خلال تلك اللحظة لمعرفة كيف وصل إيمو إلى هنا. نظرت إلى مايا قائلًا:

- مايا هل أخبرت أحدًا عنه؟.

قطبت مايا جبينها قائلة:

- أفضل الموت على فعل ذلك. أقسم باسم القدير أنني لم أخبر أحدًا عنه.

- إذن كيف وصل إلى هنا؟ لا يعقل أن يعلموا بذلك بمفردهم.

وضعت مايا يدها على شفتيها تفكر ثم قالت:

- لا بد أنه سلم نفسه إليهم. أخبرتك أنني رأيته هذا الصباح منهارًا أمام البركة.

عدت لمراقبته في محاولة يائسة لفك لغز وجوده هنا. كان يرتجف أثناء بكائه خوفًا. هذا ليس مظهر شخص استسلم كليًا وجاء بمحض إرادته إلى هذا المكان. لكن كيف لي أن أعرف وأنا الآن في حالة صدمة بعثرت في عقلي كل الأفكار. أمسكَت مايا بيدي قائلة:

- لا شيء بإمكاننا فعله الآن يا آدم، لقد فات الأوان. هيا بنا لنذهب.

هل حقًا فات الأوان؟ هل سأسمح لنفسي أن يرحل إيمو بهذا البرود دون أي عناء؟ تذكرت كل تلك اللحظات الجميلة التي عشناها معًا. ضحكاته وتفاؤله الكبير. تذكرت وعدي له بأنني سأحميه وأن لا مكروه سيحصل له. أحرقتني نيران دموعه وهو يبكي بجانب الحائط بكل يأس ينتظر موته المحتوم. لا بد أنه الآن يفكر في نفسه «ما كان يجب عليّ الوثوق بوعد آدم لي». وهذا في حد ذاته.. ضربة قاضية لي.

لكنني لست من النوع الذي لا يفي بوعوده. ما يحصل له اليوم قد يحصل لي غدًا. لن أسمح لنفسي بأن أشاهده يموت أمامي دون التصرف. نظرت إلى مايا وقلت لها بصوت عازم:

- اخرجي من هنا. سأتولى أمره بنفسي.

اعتلت الصدمة وجه مايا التي قالت:

- هل جننت يا آدم؟ سيمسك بك الحراس ويطردونك معه، لن تستطيع فعل شيء.

- بلى أستطيع.. أستطيع أن أحاول. لقد وعدته ولن أخلف وعدي.

أمسكت مايا بذراعي وأعادتني إلى الخلف ثم تنفست الصعداء وصمتت لثوانٍ:

- أيها القدير أعطني الصبر لأتحمل هذا الشاب. حسنًا بما أنك ستتهور أنا مضطرة لمساعدتك.

- لا أريد توريطك في الأمر. انفذي بجلدك.

- ألم نتعاهد أن نظل معًا في السراء والضراء؟ أنا أيضًا مجبرة على الالتزام بوعدي.

همست مايا بخطتها السريعة في أذني والتي يبدو أنه لا حل أمامنا سواها. أوْمأتُ برأسي لها موافقًا ثم أعطيتها الإشارة كي تبدأ. تقدمتْ ببطء نحو الحارسين ملقية عليهما التحية. ما إن بدأت بالحديث معهما حتى تظاهرت أنها فقدت وعيها وسقطت على الأرض. لشدة ثقتهم أن إيمو مستسلم تمامًا ولن يتحرك من مكانه، هرع نحوها الحارسان يتفقدان نبضها. حينها انتهزت الفرصة الذهبية وأمسكت بذراع إيمو ساحبًا إياه نحوي في هدوء تام فأطلقنا العنان لأقدامنا راكضين وسط الأروقة متيقنين أننا قد تهنا حقًا.

توقفنا لثوانٍ من أجل التقاط أنفاسنا. فإذا بإيمو يباغتني:

- هل فقدت عقلك يا آدم؟ لا يمكن أن تهربني. لقد وضعت نفسك في مأزق للتو.

وضعت يدي على كتفه مجيبًا:

- لا تقلق سأهربك من هنا. لقد وعدتُك أنني سأحميك مهما كلفني الأمر.

عادت الدموع لتنهمر على خديه المكتنِزين. فسألته قائلًا:

- أنا حقًا منزعج منك يا إيمو. ما كان عليك تسليم نفسك. ألم نتفاهم على ذلك البارحة؟.

مسح إيمو دموعه مجيبًا:

- أنا لم أبلغ عن نفسي مطلقًا. كنت جالسًا في الحقل حتى هجم عليّ جنود السلام وأخذوني إلى هنا..

شعرت باستغراب كبير وبدأ عقلي يلوح في الأفق محللًا لكل صغيرة وكبيرة بشكل سريع.

- هل أخبرت أحدًا غيري عن سرك؟.

- لا مطلقًا. أنت الوحيد الذي يعلم به.

- هذا غريب جدًا. من يكون هذا الشخص الذي أبلغهم عنك؟.

أعدت ذاكرتي إلى الوراء لاسترجاع كل تفصيل صغير كي أكشف هوية من وضع إيمو في هذا الموقف. تذكرت عندما أخبرت مايا للمرة الأولى عن سره. وهنا كدت أن أقفز من مكاني عندما تذكرت ظهور سيزار المفاجئ من الغابة حاملًا بين يديه سلة الفطر. ربطت الأمر بقبوله السريع بين جنود السلام بعد أن كان يصارع الوقت لكتابة موضوع الامتحان. لا يوجد أحد غيره. لقد استغل سر إيمو الذي سمعني أخبر به مايا كي يصل إلى هدفه. العم ألبيرت محق بشأنه.

لم يمر وقت طويل على راحتنا القصيرة حتى سمعنا وقع أقدام تقترب منا. أمسكتُ بذراع إيمو وبدأنا بالركض ونحن نتداخل بين الأروقة المتشابهة غير مدركين مسارنا. وصلنا أخيرًا أمام مدخل سري بدا لنا كخيار مثالي للاختباء. دخلنا ونحن نتمشى على أطراف أصابعنا كي لا نصدر أي صوت وسط الظلام حتى وصلنا أمام باب تُرك مفتوحًا بشكل جزئي. لمح إيمو على

الأرض آلة حادة فتوجه إليها وحملها بين أطراف أصابعه بينما اقتربت أكثر من الباب ليلفت نظري ضوء خافت وأصوات غريبة تتحدث لغة لم أسمعها من قبل في حياتي. اقشعر بدني وأنا أستمع إليها وفي نفس الوقت شعرت بإحساس غريب، شعور جعلني أفتح الباب وأدخل وكأنه تم جذبي وتنويمي مغناطيسيًا. لكن في اللحظة التي تقدمت فيها أيقظتني من غفوتي رائحة الدم الكريهة التي تشبه بالتفصيل نفس الرائحة التي اختبرتها البارحة في تخرجي. توقفتُ خلف الباب لأسترق السمع وأبعدّتُ رأسي بضعة سنتيمترات كي أرى ما يحصل.. ويا ليتني لم أفعل ذلك. جف الدم في عروقي وأنا أرى واحدًا من المشوهين خِلقيًا الذين تم الإمساك بهم مع إيمو مستلقيًا في قلب الغرفة على طاولة خشبية بينما تحيط به الشموع والبخور، ووقف بجانبه أعضاء جماعة الأيادي البيضاء. كانت أياديهم ملطخة بالدماء وهم يتلون كلامًا بلغة غير مفهومة جعلت أصواتهم تبدو مختلفة كليًا. لمحت أليكساندر يحمل قلبًا بشريًا بين يديه. بينما ساعدت كل من فيفيان وأيدا شقيقهما وهما تفتحان جسد الشاب المسكين لتسيل الدماء على الطاولة وكأنها نهر غزير. كانت مجزرة لم أر لها مثيلًا، منظرًا بشعًا جعل جسدي يهتز ويصاب بالارتجاف كليًا.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أتراجع خطوتين لكن جزءًا من قميصي الفضفاض علق بزاوية الباب أعادني إلى الخلف وجعلني أصدر صوت طرقة خفيفة. توقفت فجأة أصوات تلاوتهم وشعرت بأقدام تقترب مني. عندها أطلقت العنان لقدميّ ومسكت بطرف من قميص إيمو مبتعدًا به لأبعد مكان. ركضنا لعدة ثوانٍ لكن الحظ لم يحالفنا في الفرار. فقد ظهر أمامنا أحد الحراس مانعًا إيانا من التقدم أكثر. بدون مقدمات هجم علينا بقوة محاولًا سحبنا معه. في تلك اللحظة اجتاحني شعور غريب للمرة الأولى في حياتي، شعرت بتوهج ناري في صدري ورغبة كبيرة في الانفلات منه والانقضاض عليه. ضغطت على قدمه بقوة حتى فقد توازنه ثم انسحبت من يده وقفزت على

ظهره ممسكًا بعنقه بين ذراعيّ. لقد كان الرجل يتفوق عليّ طولًا وقوة. لكن ذلك لم يمنعني من مصارعته كي أنفذ بجلدي. لا أدري إن كانت تلك غريزة البقاء أم شجاعة مفاجئة، لأنه في كلتا الحالتين لم يسبق لي في حياتي أن تعاركت مع أحد ما.

بعد مصارعة دامت لثوانٍ. استطاع إيمو الانفلات من الحارس الذي انشغل معي. وصلت يده إلى رأسي وحاول ضربي لكنني أحكمت قبضتي على عنقه بين ذراعيّ. فقد التوازن أخيرًا وسقط. لم يستسلم رغم ذلك وصار يصر أكثر على ضربي. وبدون شعور.. ضغطت بقبضتي حتى صار عنقه كالخيط بين يديّ. وفي جزء من الثانية.. كسرت عنقه كما يكسر المزارعون عود قصب السكر محدثًا نفس الصوت. فسقط الرجل ميتًا على الأرض بينما سالت الدماء من أنفه بغزارة.

عدت أخيرًا إلى وعيي وقمت من مكاني وأنا أنظر إليه غير مصدق لما اقترفتّه يداي للتو. تبادلت نظرات الصدمة مع إيمو الذي فتح فمه ووضع يديه على رأسه معلنًا صدمته التامة لما يراه. كيف استطعت فعل ذلك؟ من أين لي بتلك القوة؟ لمَ لا أذكر شيئًا مما فعلته للتو؟

استجمعت قواي بعد أن تذكرت أنني مجبر على الهرب قبل كشف أمري. تمشينا في الرواق بهدوء مزيف ونحن ندعو أن لا يجدنا أحد من الجنود. أخيرًا وصلنا إلى الصالة الرئيسية والعرق يتصبب من جبيننا. فجأة استوقفني نفس الشاب الذي استقبلني في البداية وأخذني إلى مكتب فيفيان. ما إن رأيته حتى همست لإيمو بأن يهرع للكوخ ويخفي وجهه بأي شيء مسرعًا. عدت إلى الخلف ورسمت ابتسامة زائفة بالرغم من أن قلبي كاد أن يتوقف من شدة الرعب. بادلني الشاب الابتسامة نفسها قائلًا:

- آسف لعدم توفر خدمتك اليوم. بإمكانك العودة في الغد في نفس الموعد إن استطعت ذلك.

- لا بأس. سأعود غدًا. بلغ تحياتي إلى الأيادي البيضاء.

تأملني الشاب لثوانٍ ثم قال مشيرًا إلى قميصي:

- هنالك دم على قميصك، هل أنت بخير؟.

وكأنني تعرضت لصفعة قوية غير منتظرة وأنا أحدق في قميصي لأرى تلك البقعة الصغيرة عليه. مسحت عرق جبيني وابتلعت ما تبقى من اللعاب في لساني وأنا أجيبه:

- نعم ليس بالأمر الجاد. لقد جرحت إصبعي عند الخروج من المكتب. شكرًا على اهتمامك.

ودعته وخرجت مسرعًا من البرج أتخبط في خطاي وكأنني فقدت عقلي للتو. ماذا حصل؟ حتى أنا عاجز عن الإجابة عن هذا السؤال. لم أصدق ما اقترفته يداي. شعرت أن من قام بذلك للتو هو شخص لا أعرفه. ولا أذكر أنني فعلت أيًا من ذلك. كل ما أتذكره هو رؤية ذلك الرجل الضخم ينزلق من يديّ كقطعة ثوب رقيقة ساقطًا على الأرض. شكلت هذه الصدمة لي حاجزًا كبيرًا جعلني لوهلة أنسى ما رأيتُ الأيادي البيضاء يقومون به.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أقترب من الكوخ. كل الوجوه من حولي باتت مبهمة. الأصوات لا تعريف لها سوى صوت دقات قلبي المتسارعة والدم الذي يجري في عروقي مشكلًا احتقانًا قويًا في رأسي. فتحت باب الكوخ لأجد إيمو يدور في حلقات مفرغة بشكل متسارع. ما إن رآني حتى أمسك بذراعي وسحبني للجلوس على الكرسي قائلًا:

- لقد التقيت مايا وأخبرتها بما حصل. طلبتْ مني أن أنتظرها هنا ريثما تعود.

استنشقت الهواء الذي بات ثقيلًا على صدري بعد أن احمرت عيناي وبدأتا تدمعان قائلًا:

- هل أخبرتها بكل ما حصل؟.

رسم إيمو ابتسامة خفيفة على شفاهه مجيبًا:

- لا تقلق لم أخبرها عما حصل للحارس.

عدنا للصمت من جديد. ورمينا مخاوفنا كما يرمي الصياد شباكه بين أمواج البحر. لكن أمواج قلقنا لم تتحمل المخاوف فأعادتها إلينا مرة أخرى وبشكل أقوى بعشرات المرات. دمعت عيون إيمو الذي قال:

- كل هذا بسببي. لو لم أخبرك بسري لما تحملت عواقبه وخاطرت بنفسك من أجل حمايتي.

وضعت يدي على كتفه قائلًا:

- لا تلم نفسك، فأنا وعدت نفسي أن أحميك منذ أن كنتَ صغيرًا، في جميع الظروف والأوقات.

- لكنك خاطرتَ بحياتك. لقد قتلت للتو شخصًا لتحميني. أنا لن أسامح نفسي أبدًا على ما فعلته بك.

سحَبتُه بضعة سنتيمترات باتجاهي وقلت له:

- ما قمتُ به لا علاقة له بك. هنالك خطب ما بي يا إيمو. فأنا لا أتذكر أنني قتلته. لم أشعر بنفسي، وكأن شخصًا آخر فعل ذلك وأنا وقفت أتفرج من بعيد عاجزًا عن التصرف.

التقطت أنفاسي للحظات ثم أتممت حديثي إليه:

- بدل أن تلوم نفسك يجب أن تشكر القدير على هذا الظرف. بسببك اكتشفت حقيقة جماعة الأيادي البيضاء. لقد كنا مخدوعين فيهم طوال هذه المدة.

– ما الذي اكتشفته؟.

لم ألبث أن أجيبه حتى اقتحمت مايا الكوخ فجأة لتتوجه مباشرة نحوي وتعانقني بقوة قائلة:

– يا إلهي كدت أن أموت من الرعب عليك.. هل أنت بخير؟.

– نعم أنا بخير.

أدارت مايا وجهها نحو الباب وقالت بصوت مرتفع:

– لا تختبئ كالفئران، ادخل وواجهنا.

بعد لحظات دخل سيزار وعيناه موجهتان نحو الأرض من الذل غير قادر على مواجهة أحد منا. تقدمتْ خلفه مايا وأغلقت الباب ثم طلبت منا الجلوس جميعًا لنتحدث. تعجبتُ لوهلة من سرعة بديهة مايا التي لطالما اعتقدت أنها إنسانة لا يعتمد عليها في المواقف الصعبة.

تبادلنا نظرات استغراب وصمت طويل فيما بيننا. لتكسر مايا الحاجز بسؤالها:

– أخبرني يا آدم ماذا حصل معكما بالضبط.

تبادلت أنا وإيمو نظرة مريبة لأستجمع قواي بعد ذلك وأجيبها:

– ركضنا أنا وإيمو بعد أن انشغل معك الحراس. لاحقونا فيما بعد في جميع الأنحاء. استطعنا أخيرًا الفرار منهم. لكنني أخشى أنهم قد تعرفوا على وجوهنا.

نطق سيزار أخيرًا بعد صمت طويل:

– أنا حقًا آسف يا أصدقاء. لم أكن أريد أن تصل بكم الأوضاع إلى هذه الدرجة.

قامت مايا من مكانها قائلة:

- حقًا؟ ولمَ لا تقول أنك كنت أنانيًا تفكر فقط في وسيلة للوصول إلى مبتغاك حتى إن كان ذلك على حساب أصدقائك؟.

- أعرف أنني كنت أنانيًا. لكن من ناحية أخرى أنا لم أقم بشيء خارج عن المألوف. لقد سلمتُ مشوهًا خِلقيًا لِلبرج. وهذا شيء يقوم به الجميع هنا. أنتم تعلمون مسبقًا أنني لا أُدخِل وفائي للدين والقانون مع علاقاتي بالناس..

وجدت جزءًا من كلام سيزار منطقيًا. فرغم انزعاجي منه فإن ما فعله كان متوقعًا للغاية. وأي شخص مكانه كان سيفعل نفس الشيء. الفرق الوحيد في الوضع هو أنه تزامن مع رغبته بدخول معسكرات جنود السلام. ليس الجميع متعاطفين مع المشوهين خِلقيًا كمايا وأنا.

بعد أن شعرتُ بحدة الحوار تزداد بين مايا وسيزار، قررتُ التدخل أخيرًا لأخبرهم بالحدث الأهم.

- لنهدأ يا شباب، قد يكون سيزار أخطأ لكن بسببه اكتشفت شيئًا سيفزعكم.

توجهت الوجوه الثلاثة نحوي مستفسرة عما أتحدث عنه. قمتُ من مكاني ووقفت في منتصف الكوخ:

- عندما كنا نهرب من الحراس، دخلنا رواقًا منعزلًا عن الآخرين. وجدت بابًا ترك مفتوحًا بالصدفة. كان إيمو منشغلًا بفك قيده بينما تقدمت ودخلت بعد أن شممت رائحة كريهة منبعثة منه. لن تصدقوا ما رأيته... أحد المشوهين خِلقيًا مستلقٍ على طاولة تحيط بها شموع وبخور بينما يقوم أعضاء جماعة الأيادي البيضاء بفتح جسده والتنقيب في أعضائه وسط سيل من الدماء. لقد كان الأمر مرعبًا.. أسوأ ما رأيته في حياتي. حتى وجوههم وأصواتهم بدت مخيفة ومختلفة كليًا عما نراه.

اعتلت الصدمة وجوه الحاضرين، لتتمتم مايا ويداها ترتجفان:

- آدم.. هل أنت متأكد مما رأيته؟ قد يكون الأمر غير حقيقي.

- متأكد منه تمامًا. لقد كنا مخطئين حولهم منذ وقت طويل.

وضع سيزار يده على رأسه وعيناه تجولان حول الكوخ ثم قال:

- جماعة الأيادي البيضاء.. يقتلون؟ هذا شيء لا يمكن للعقل تصديقه.

اقتربت بضع خطوات مستطردًا:

- هل تذكر ما حصل معي يوم التخرج؟ عندما شعرت بالغثيان وتقيأت؟.

أومأ سيزار برأسه قائلًا:

- نعم.

- لم يكن السبب تناولي السمك. فأنا أولًا أتناوله منذ نعومة أظافري ولا يحصل لي مكروه أبدًا، وثانيًا لا أحد يتناوله في وجبة الفطور. لقد كان السبب الحقيقي هو اجتياحًا هائلًا لرائحة الدم فور اقترابي من فيفيان خلال تسلمي شهادة التخرج.

- لكن.. لمَ أنت شممت الرائحة بينما لم تفح في أي مكان ونحن حاضرون؟.

- هذا ما أبحث عن إجابته منذ أن حصل ذلك. اعتقدتُ أنني مجنون أعاني من مرض ما، لكن شكوكي تأكدَت اليوم. لقد تم خداعنا يا شباب. لا يتم طرد المشوهين خلقيًا من الجزيرة. بل يتم فتح أجسادهم بكل بشاعة والعبث فيها، ولا أَحد يعلم السبب سوى القدير.

عاد الصمت ليحكم الوضع مجددًا. لكن هذه المرة اعتلت وجوههم الحيرة والصدمة وهم غير قادرين على استيعاب ما حصل معهم للتو. نطق أخيرًا إيمو قائلًا:

- والآن ماذا سنفعل؟.

نظرَتْ إليّ مايا بعيون تترجاني لإيجاد حل لهذه الورطة. ليتها تعلم أنني في ورطة أكبر بكثير من ذلك. مسحت العرق من جبيني وقلت:

- الآن نحن محاصرون. لقد قمنا بتهريب مشوه خِلقيًا من البرج، وتعرف على وجوهنا الحراس، إضافة إلى ما اكتشفناه عن جماعة الأيادي البيضاء. إننا حقًا في ورطة..

أحاطت مايا خديها بيديها قائلة:

- لا يعقل أن نظل هكذا ننتظر أن يتم القبض علينا. لا بد أن نجد حلًا، أو على الأقل نخبر العالم بما رأيتَه يا آدم. لا بد أن نعرف لمَ يكذب علينا الأيادي البيضاء.

استنشقتُ ما استطاعت رئتاي الوصول إليه من هواء ثم فكرت للحظات في جميع الاحتمالات. مايا محقة. لا يمكن أن نجلس وننتظر أن يتم إلقاء القبض علينا. لكننا لا نستطيع أيضًا الخروج والبوح بحقيقة الأيادي البيضاء لأنهم سيجدون ألف طريقة لإقناع الآخرين بالعكس. إضافة إلى أننا في حاجة لنعرف أكثر عن الأسباب الخفية التي تجعلهم يقومون بذلك. وفي خضم كل هذا التفكير، خطر على بالي شخص واحد فقط قادر على مساعدتنا وإرشادنا.. إنه العم ألبيرت.

- إنها فكرة سيئة.

هذه هي الجملة التي كررها الجميع باستثنائي ونحن نطرق باب المكتبة وندخل متسللين بعد أن اتخذنا من دروب الجزيرة غطاء للاختباء من عيون الناس خوفًا من الفضيحة. الفضيحة التي لا يعلم بها أصدقائي بعد، هي أن بينهم قاتلًا.

ما إن سمع العم ألبيرت صوت الباب يقفل حتى نزل من العلية بهدوء ليجدنا جميعًا واقفين في أماكننا بوجوه عابسة خالية من التعابير. حملق العجوز فينا باستغراب كبير لكونها المرة الأولى التي يرى فيها سيزار وإيمو يقتحمان عليه المكان الذي يعتبره مقدسًا.

- ماذا هناك؟ لمَ وجوهكم مصفرة؟.

تبادلنا نظرات خوف فيما بيننا غير مدركين طريقة للبدء بالشرح له. تلاقت نظراتي بنظرات إيمو ليتذكر أننا اتفقنا في طريقنا إلى المكتبة على عدم إخبار مخلوق بما حصل في الواقع.

- نحن في ورطة.. ورطة كبيرة.

هذه هي الكلمات التي استطاع عقلي أن يرسلها إلى شفتيّ لأتمتم بها وكأنني طفل يتعلم الكلام حديثًا.

بدون أن يحرك ساكنًا جال بعينيه حولنا ثم أدار وجهه وصعد إلى العلية قائلًا:

- الحقوا بي. لا يجب أن نتحدث هنا.

صعدنا نتخبط في خطانا على السلالم حتى وصلنا أخيرًا إلى العلية. حينها بدت لي السماء عبر النافذة قد بدأت برسم خيوط الليل رويدًا رويدًا. أشعل العم ألبيرت المصباح ووقف في المنتصف بينما التزمنا أماكننا وكأننا طلاب معهد في أول زيارة للمكتبة.

- والآن أخبروني ماذا حصل.

جميع العيون توجهت نحوي تترجاني أن أتحدث. في تلك اللحظة أردت حقًا لو لم يستنجدوا بي، فأنا أعيش في صراع داخلي وأقاوم نفسي كي لا أفضح ما فعلته وأنهار أمام الحاضرين.

تقدمت خطوتين وبدأت بسرد ما حدث بالتفصيل وأنا أتهرب من النظر إلى عينيه اللتين لم تزاحا عني طوال فترة الحديث. تلعثمت عندما وصلت للجزء المخيف من القصة. فعوضت قتلي للحارس بدفعي له وسقوطه على الأرض بينما لذنا أنا وإيمو بالفرار. توقفت أخيرًا بعد دقيقتين من العذاب النفسي اللامعقول.

رفعت عيني لأتفحص ردة فعله. فإذا بي أجد يده على لحيته البيضاء وعيناه مصوبتان نحو الأرض وكأنه يفكر في شيء مريب. قال بعد صمت طويل:

- كنت أعلم أن هذا قد يحصل في يوم من الأيام.. لكن...

تساءلت مايا:

- لكن ماذا؟.

- لكن ليس بهذه السرعة، وبهذه الطريقة..

تبادلنا نظرات استغراب فيما بيننا غير مدركين ما المغزى من كلام العم ألبيرت الذي عادة ما يكون غير مفهوم لكن هذه المرة لا نملك خيار التجاهل كما نفعل في الأيام الأخرى.

- ما الذي تقصده أيها العم؟.

وجه عينيه نحو سيزار الذي سأله غير مدرك أن حتى الإجابة عن سؤاله لن توضح الكثير.

- في كل مكان به قوانين مشددة يتقبلها الجميع.. يخرج منها متمرد أو اثنان. وفي حالتنا هذه من الطبيعي جدًا أن يدافع شخص ما عما يحصل للمشوهين خِلقيًا..

ليس هذا الوقت المناسب لتحليلات العم ألبيرت الفلسفية. لم أستطع كبح جماحي فإذا بي أسأله:

- الآن نحن نريد أن نعرف ماذا سنفعل؟ إننا حقًا ضائعون.

تقدم إيمو خطوتين قائلًا:

- الحل الوحيد للخلاص مما حصل، هو أن تقوموا بتسليمي لجماعة الأيادي البيضاء. قد يسامحونكم على ما فعلتم. لا أريد أن يحصل لكم مكروه بسببي.

أمسكت بكتفه بعنف وسحبته نحوي قائلًا:

- نسلمك كي يفتحوا جسدك ويعذبوك حتى الموت؟ لن يحصل ذلك أبدًا.

قال سيزار بصوت خافت:

- أظن أن الفتى معه حق. بغض النظر عما اكتشفناه اليوم عن جماعة الأيادي البيضاء، فإن ذلك لا يخفي أن السبب في كل ما حصل هو إيمو..

وصل غضبي إلى منتهاه فقلت بعصبية كبرى:

- لولا إيمو لظللنا نعيش كذبة كانت لتستمر حتى يحين يوم الانعتاق. إنه السبب في اكتشاف جزء صغير من حقيقة هؤلاء المخلوقات الغامضة التي تدعِي الإيمان والكمال..

أدرت وجهي نحو العم ألبيرت وقلت له بلهجة صارمة لم يعهدها مني:

- إن كنتَ ستضُم صوتك لصوت سيزار، الأفضل لنا أن نرحل الآن.

ابتسم العم ألبيرت لي قائلًا:

- سأضم صوتي للمنطق، والحل الوحيد أمامكم... هو الهرب.

- الهرب؟ إلى أين؟.

صمت لثوانٍ تحكمت فيها دقات قلوبنا المتوترة ثم أجاب بكل ثقة:

- خارج أسوار الجزيرة.

اعتلت وجوهنا الصدمة التي لم تنجح في إسكات سيزار:

- أتدرون ماذا.. أفضل أن أقتل نفسي على الذهاب خارج الجزيرة ليتناوب على جسدي آكلو لحوم البشر.

تبادلتُ نظرات تساؤل مع مايا التي ربطت ذراعيها مع بعضهما البعض وأرسلت لي إشارة أنها لم تحسم بعد قرارها. بينما جلس إيمو على الكرسي واضعًا يديه على رأسه حائرًا. فكرت مليًا في كلام العم ألبيرت الذي بدا واثقًا من كل كلمة نطقت بها شفتاه.

- كيف سنخرج من الجزيرة ونحن لا نملك أي معلومة عن العالم الخارجي؟.

ركز العم ألبيرت على عينيّ وهو يجيبني:

- الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أضمنه لكم، هو أن هنالك حياة في الخارج، هنالك بشر يعيشون مثلنا..

كان كلام العم ألبيرت واقعيًا بالنسبة لي. فبعد أن ربطت ما رأيت جماعة الأيادي البيضاء تفعله بمخططاتنا المستقبلية، وجدت أنه من المستبعد جدًا وجود آكلي لحوم البشر لأن الوحوش الحقيقيين هم من يحكمون هذه الجزيرة وينهشون أجساد المشوهين. أما بالنسبة للحياة خارج الجزيرة.. فهذا شيء معقول. هذا بالضبط ما قاله لي الصيادون عندما أخبروني أن الأحاديين يعيشون على تلك اليابسة.

أدرتُ وجهي نحو سيزار وإيمو ومايا ثم قلت:

- اسمعوني جيدًا يا شباب، العم ألبيرت محق. لا وجود لآكلي لحوم البشر. إنها كذبة اخترعتها جماعة الأيادي البيضاء كي يستفردوا بالمشوهين خِلقيًا. بقاؤنا هنا له نهاية واحدة.. الموت، وترك شعب هذه الجزيرة يعيشون وسط هذه الوحوش غافلين عما يحصل. لا حل أمامنا سوى الهرب لفترة حتى تهدأ الأوضاع. سيزار له الخيار في البقاء لأنه لم يشترك معنا في إنقاذ إيمو. ومايا تستطيع أن تخرج نفسها من هذه الورطة لأنها هي الأخرى لم تشارك فعليًا معنا. تبقى أنا وإيمو. ما رأيك؟.

ساد الصمت مجددًا حتى بدأت بالشعور بالقلق على قرار إيمو. قام الأخير من الكرسي قائلًا:

- أنا معك في كل شيء يا آدم.

تدخل سيزار بطريقته الفضولية قائلًا:

«هل جننتم يا شباب؟ لا توجد أي ضمانات أن خلف أسوار هذه الجزيرة يوجد عالم مثالي. نعم الأيادي البيضاء كاذبون لكنهم على الأقل لا يقتلون الجميع..

- إلى متى سيظل عقلك محدودًا يا سيزار؟ هل رأيت العالم الخارجي لتحكم عليه؟ لقد حان الوقت ليخرج أحد منا ليكتشفه، ويجلب أيضًا المساعدة منه كي ينقذ سكان هذه الجزيرة قبل فوات الأوان.

وجهت كلامي إلى العم ألبيرت قائلًا:

- نحن جاهزان للهرب في أقرب وقت. كيف ستؤمن ذلك لنا؟.

رسم العم ألبيرت ابتسامة خفيفة تدل على ثقة كبيرة جعلتني أشعر باطمئنان قائلًا:

- في الفجر، نلتقي أمام شجرة البلوط الكبيرة في مدخل الغابة. سأعلمكما هناك بالتفاصيل. الآن ارحلوا جميعًا واتركوني أحضّر للأمر. ليس أمامي متسع من الوقت.

نزلنا من العلية متعبين والصمت يتحكم في كل ثانية تمر ببرود تام. ما إن وصل كل من إيمو وسيزار إلى الباب حتى سحبَتني يد مايا إلى الخلف وهمست لي قائلة:

- هل أنت متأكد أنك قادر على الوثوق بالعم ألبيرت؟.

- هل تظنين أنه قد يخوننا؟.

صمتَت مايا للحظات ثم قالت:

- لا يمكن ضمان أحد. الجميع هنا يتملق رضى الأيادي البيضاء. يجب أن يكون بيدك شيء تضمن به أنه لن يخوننا. هل تملك أي دليل يجعلك تطمئن له؟.

استوقفني كلام مايا الذي قلب الموازين في آخر لحظة. لقد كانت محقة تمامًا. طريقة استجابته السريعة لمطلبنا دون لومنا على شيء جعلتني أرتاب منه. فأنا رغم معرفة له لسنوات عديدة لا أعرف حقًا من يكون في الواقع ولا تاريخه أو كيف وصل إلى هذه الجزيرة، أو حتى سبب انعزاله عن العالم الخارجي. لم يشرح لنا كيف سيقوم بتهريبنا ولا أثبتَ لنا أن العالم خارج الجزيرة ليس بالمكان الخطير. ماذا لو كان يتلاعب بنا؟ ماذا لو كان له علاقة بجماعة الأيادي البيضاء ويقوم برسم فخ للإيقاع بنا؟

استجمعت قواي وقلت للحاضرين:

- أنتم انتظروني خارجًا. سأصعد لأستفسر عن أمر وألحق بكم.

صعدت دون أن أنتظر إجابة منهم وناديت على العم ألبيرت حتى خرج من غرفته السرية قائلًا:

- ماذا تفعل هنا؟ ألم أقل لك أن ترحل؟.

- لن أرحل قبل أن أفهم شيئًا ما.

- ما الخطب؟.

- لمَ تريد مساعدتنا على الهرب خارج أسوار الجزيرة؟.

حملق في وجهي بعينيه الغائرتين مستغربًا ثم قال:

- أشعر بلهجة مشككة خلف سؤالك. ألم تكن أنت من قدم عندي لطلب المساعدة؟.

- نعم لكنني لا أريد أن أتفاجأ بغدر، خصوصًا منك أنت.

- لا داعي للقلق. مساعدتي لكم فيها مصلحة للجميع. إن خرج أحد من هذه الجزيرة سيكون هنالك أمل كبير كي يفك الحصار عن الناس في هذا المكان. وأنا أكبر المستفيدين بذلك.

- جواب غير مقنع. سأقتنع في حالة واحدة فقط أنك ستستفيد من هربنا.

- تفضل.

- أن تهرب معنا أيضًا.

اعتلت الصدمة وجه العم ألبيرت الذي يراني أتحدث معه بهذه اللهجة للمرة الأولى في حياته:

- تعجبني جرأتك. لكن لا تنس أنني إن لم أساعدكم لن تظل أمامكم أي فرصة للنجاة من الأيادي البيضاء. وأنت الآن بكل وقاحة تشكك في مصداقيتي وتطالبني بأمر لا معقول.

- ألستَ من قلتَ لي أنك لا تندمج مع الناس هنا؟ أمامك فرصة للهرب من هذا المكان لم لا تقتنصها؟.

- تلك أمور خاصة بي لا علاقة لك بها.

أدخلْتُ يدي في جيبي وأخرجت الورقة التي وجدتها في غرفته السرية تحمل كتابة شبيهة بالكتاب المقدس:

- ولا دخل لي بمعرفة حقيقة هذه الورقة أيضًا؟.

لم أر في حياتي العم ألبيرت بهذا الوجه القاتم الذي يخلو من تعابير الوقار التي لطالما طبعَت بصمتها عليه منذ أن عرفته. اقترب مني قائلًا:

- من أين حصلت على هذه الورقة؟.

- قيل لي في يوم من الأيام أن القدير يرشدك إلى طريق الصواب مهما اختلفت عليك الطرق. هذه الورقة وقعت بالصدفة بين يدي ولم أعلم حينها أنني سأحتاجها.

خفض العم ألبيرت عينيه نحو الأرض قائلًا:

- لا يجب أن يرى أحد هذه الورقة. سيقضى على حاملها حتمًا.

صمت للحظات ثم أجبته وأنا أركز على عينيه مباشرة قائلًا:

- لن أسألك عن فحوى هذه الورقة الآن. ستظل معي كضمانة أنك سترافقنا. إن رفضتَ سأرسلها إلى جماعة الأيادي البيضاء وأترك لهم حرية التصرف.

رغم جرأتي الوقحة معه، فإنني شعرت بالخجل من نفسي وأنا أواجه الرجل الوحيد الذي عاملني بشكل حسن في هذا المكان. أشعَرني ذلك وكأنني أعض اليد الذي مدت إليّ العون في يوم من الأيام. أعرف أنه مهما فعل ما

كنت لأسلم الورقة للأيادي البيضاء وأضع حياته في خطر. وهو كذلك يعلم بالأمر. كلانا يعرف كيف يفكر الآخر. الغريب في الأمر هو طريقة نظره إليّ وأنا أحمل الورقة بين يديّ، لم يكلف نفسه عناء محاولة أخذها مني أو حتى توبيخي. كانت تلك الابتسامة الغامضة تظهر على وجهه غائرة في غياهب غموضه الغريب. بدا لوهلة وكأنه فخور بي، وكأنه انتظر مطولًا تلك اللحظة التي أثور فيها وأسمح للشيطان الذي بداخلي أن يتحكم في أفعالي. كيف لي أن أفهم هذا الرجل؟

- حسنًا لك ذلك. سأرافقك.

بهذه السهولة قبل بعرضي -أو بالأحرى تهديدي- دون اعتراض أو مناقشة. كان المفترض عليّ أن أفرح وتعتليني نشوة الانتصار، انتصار تلميذ على معلمه. لكنني لم أشعر سوى بالاستغراب والخوف. فعندما ينهار جبل شاهق لطالما رفعْتَ رأسك عاليًا لرؤية قمته، لا بد أن يكون لذلك سبب مخيف، سبب أكبر بكثير من الانهيار نفسه. هذا ما جعلني أشعر بالفضول لمعرفة سبب هذا النصر.

أثناء نزولي من السلالم سمعت صوته يقول لي بكل ثقة:

- لا تُري أحدًا تلك الورقة، ستحتاج إليها فيما بعد.

لم أجبه وأكملت طريقي نحو مايا التي كانت تنتظرني وهي تقضم أظافرها ترقبًا. ما إن وصلت إليها حتى سألتني:

- ماذا حصل؟.

- سيأتي معنا.

- بهذه البساطة؟ يترك جزيرة فيها الأمان ويضحي بنفسه للذهاب معكما؟.

- نعم. يبدو أنه يشعر بالفضول للتواصل بالعالم الخارجي أكثر منا.

لم تقتنع مايا بإجابتي لترفع حاجبها وهي تفتح باب المكتبة مغادرة:

- ما الذي تملكه ضده لتجعله يوافق؟.

ابتلعت لعابي مستعدًا لإلقاء كذبة أخرى على مسامعها ونحن نتمشى تحت نسائم الليل الباردة:

- لا يوجد أي شيء صدقيني. هو أيضًا يريد الخروج من هنا. لا تنسي أن له أناسًا يعرفهم في الخارج فهو ليس ابن الجزيرة.

كعادتها حاولت عدم الضغط عليّ، وهي عادة لا يملكها أحد آخر في حياتي غيرها. لذلك أرتاح عند الوجود بقربها. فهي تعلم كيف تجعلني ألجأ إليها وأخبرها بالحقيقة عندما أكون مستعدًا، دون ضغط أو جعلي أشعر أنني شخص مقزز. توقفنا بالقرب من منزلها ليسود صمت من نوع آخر، كان كلانا ينتظر الآخر كي يتكلم. كم للوداع هيبة لا يمكن تحديها! انكسار يقتحم حنجرتي ويجعلني عاجزًا عن الكلام.

- والآن.. هذه ستكون آخر مرة نرى فيها بعضنا بعضًا؟.

لم أجد جوابًا مناسبًا لسؤالها الذي اخترق قلبي مباشرة. إنها المرة الأولى التي أجرب فيها الوداع. كيف ستكون حياتي بدون مايا؟ مع من سأتحدث وأقضي معظم وقتي؟ ماذا سيحل بالمسكينة هنا؟ أردت للحظة أن أطلب منها مرافقتي لكنني لن أسامح نفسي إن كنت السبب في تعرض حياتها للخطر.

- لا تقولي ذلك. سأعود لأنقذك من هذا المكان وأجلب المساعدة من الخارج.

أخفضت عينيها وهي تقاوم الدموع مجيبة:

- ماذا لو كان العالم الخارجي خطيرًا وأسوأ بكثير من هذه الجزيرة؟ ماذا لو لم تعد؟.

وضعت يدي على كتفها قائلًا:

- سيكون الموت بكرامة بالنسبة إليّ أفضل من الموت هنا على يد هؤلاء الوحوش.

عانقتها وأنا أشعر بحرقة الفراق للمرة الأولى في حياتي. لم أرد أن أزيد من حدة حزنها إن قلت لها أنني خائف أيضًا، بل أرتجف خوفًا من الداخل. لا أعرف ماذا ينتظرني خارج ذلك المكان. وكيف ستكون حياتها إن حصل لي مكروه. لكن يجب لشخص ما أن يضحي كي ينتهي كابوس جماعة الأيادي البيضاء.

- أريد الذهاب معك، لا أستطيع البقاء هنا بمفردي مع أبي. ستصبح حياتي جحيمًا.

رَبتُ على شعرها بهدوء وهمست لها قائلًا:

- لن أتحمل أن يحصل لك مكروه بسببي. أنت لم تفعلي أي شيء خاطئ كي تهربي. أرجوك نفذي مطلبي وثقي بي. سأقوم بالمستحيل كي أعود إليك.

لم تجبني هذه المرة بسبب سيلان الدموع الغزيرة من عينيها الناعمتين. كانت أول مرة أرى فيها مايا تبكي بهذه الحرقة. حاولت جاهدًا أن أتماسك لكن دموعًا متمردة نزلت من عينيّ معلنة أنني أضعف بكثير من التحكم بقطرات ماء في جسدي. إذن هذا هو الفراق.. هذا ما يشعر به الناس عندما تفرق بينهم الحياة. وجودي في هذه الجزيرة حيث لا مجال للخروج منها جعلني عاجزًا عن معرفة هذا الشعور الغريب، الموحش.. الأشبه بدموع الأحباء الذين يتم تفرقتهم بسبب تشوه خِلقي في أحدهم.

ودعّنا بعضنا البعض بعناق طويل ودموع اختصرت كل الكلمات. تجنبت النظر إلى عينيها كي لا أتراجع عن قراري. تركتها ورحلت مسرعًا في خطاي بلا أي إضافات. كانت حرارة جسمي مرتفعة والعرق يتصبب من جبيني. فلم أشعر بنفسي إلا وأنا أمام المعبد، حيث خرج الناس للتو من الصلاة فكان المكان خاليًا من البشر. لا أحد يحرس هذا المكان. بيوت الله يحرسها القدير بيده وعظمته. تأملتُ كل جزء من تقاسيم البناء الخارجي وبدأتْ عدة أسئلة تدور في عقلي. ماذا لو كانت هذه آخر مرة سأراه فيها؟ كان الجزء الصغير مني.. ذلك الجزء الذي يعترف بشيء طاهر في وجداني، يحثني على الدخول والصلاة. فقد تكون هذه أول وآخر مرة تطأ فيها قدمي بيت القدير. ازدادت دقات قلبي وأنا أقتحم المكان برأس منخفض كزانية سيتم قذفها بالحجارة، كشيطان اقتحم الجنة بكل وقاحة.

خلعتُ حذائي ووضعته في الرف المخصص له. كانت رائحة زكية تفوح من المكان، رائحة عطر الياسمين الذي ينشره سكان الجزيرة في كل مرة يتطوعون فيها لتنظيف المعبد. توجهت مباشرة لبيت الغفران. تلك الغرفة المخصصة للحديث مع القدير على انفراد والاعتراف بخطيئتك. حيث لا يدخل لها أكثر من شخص واحد. أعجبتني الفكرة لكنها أخافتني أيضًا. سأكون وجهًا لوجه مع القدير، بكل خطاياي وكل مخاوفي، بكل قذارتي ووقاحتي. لم تطأ قدمي يومًا هذا المكان من قبل. أنا أعلم السبب، إنه الشعور بالذنب. الشعور بأنني أحقر بكثير من أن أدخل إلى هذا المكان وبأنني شيطان يجب أن يبتعد قدر المستطاع عن القدير. لكن.. هل يعلم القدير أيضًا ذلك؟ هل يحبني كما أحبه؟ هل هو منزعج مني لأنني لا أصلي رغم ذكره في كتاب الهلييث «أبواب القدير مفتوحة لكل روح طاهرة وقعت سهوًا في الخطيئة. الغفران لي والتوبة لكم. الصلاة لي ولكم. وكل قاطع لها ليس مني ولا من ديني.

جلستُ على الأرض بعد أن أغلقتُ الباب خلفي. أشعلت الشموع كي تنير المكان المظلم ورفعت عينيّ باتجاه الحائط حيث تم نقش شعار ديننا.. أجنحة طائر العنقاء. كانت دقات قلبي قادرة على الوصول إلى أذنيّ من شدة سرعتها وقوتها. تأملت جناحي العنقاء، وأخفضت عينيّ نحو الأسفل باحثًا عن شيء أقوله للقدير. كيف سأبدأ حديثي؟ لم أشعر في حياتي بهذا الضغط الكبير على عقلي من قبل.

- أعرف أنني خذلتك مرارًا. أعرف أنني لا أستحق البقاء هنا. لكنني لم أختر أن أولد مشوهًا خِلقيًا. لم أرد أن أعيش هذه الحياة المزدوجة والشعور بالازدراء في كل مرة أحمل فيها كتابك المقدس وأقلب صفحاته لأجد نفسي لا أشعر بشيء. لا أعرف ما خطبي؟ هل أنا شيطان في هيئة إنسان؟ هل أنا ذو قلب ميت إلى هذه الدرجة؟ صدقًا لا أعرف. أتمنى أن تكون قادرًا على الشعور بما أشعر به في كل لحظة. حياتي بلا معنى، جبان جدًا كي أقتل نفسي لأرتاح، وأضعف بكثير من أن أمثل على نفسي تقبل أشياء لا أتقبلها من صميم قلبي. هل الدين أن تكون منافقًا؟ هل يرضيك أن أُمثِّل على نفسي وعليك؟ أنا لا يرضيني ذلك. أفضل أن تمقُتني، تُنزل عليّ لعنتك على أن أتحاذق مع خالقي. رغم كل شيء أشعر أنك تحس بي. لا أعرف كيف، ولماذا، المهم أنني أشعر بذلك. وهذا الشيء الوحيد الذي يجعلني قادرًا على العيش. أرجوك سامحني. وإن لم أكن أستحق المسامحة.. ارحمني واقتلني بأي طريقة كانت. اقتل الأمل في قلبي واجعلني أستسلم للموت، فالجحيم ينتظرني في جميع الأحوال. أتمنى فقط أن تنقذ شعب هذا المكان من الأيادي البيضاء، وأن تمنحني القوة كي أجد طريقة لتحذير الناس منهم. لن ألومك على خلقي مشوهًا خِلقيًا. فأنا لا أعرف إن كنت محظوظًا أن لا أحد سيعرف بذلك أم منحوسًا لأنني الوحيد الذي يعلم بالسر.

اليوم سأخرج من هذا المكان وأهرب بعيدًا نحو المجهول الذي يقتلني ببطء. وما الغريب في ذلك؟ أنا المشوه، الكافر، المجرم، الكاذب.. رغم كل شيء.. رغم مخاوفي.. ذنوبي.. حقارتي.. أنا أحبك. أحبك كثيرًا وأعلم أنك ستكون بجانبي ولن تتخلى عني مهما حصل.

لم أُنهِ كلامي بعد حتى سمعت صوتًا خارج باب غرفة الاعتراف. قمتُ مفزوعًا من مكاني وفتحت الباب فإذا بي لا أجد أحدًا هناك. لم يجعلني ذلك أطمئن. بل ازداد قلقي ورعبي عندما اقتحمت عقلي أفكار سوداء أن شخصًا ما قد سمع كل شيء عني. جميع أسراري دفعة واحدة بلا جهد يذكر. لو كان ذلك حقيقيًا، ستكون الضربة القاضية لي.

طردت هذه الأفكار السوداء من رأسي وأنا أرتدي حذائي مغادرًا المعبد. لقد حل الظلام على الجزيرة فبدأت أضواء القناديل تظهر من خلال نوافذ المنازل. وجدت في الليل كعادتي غطاء من عيون الناس. أسرعت في خطاي متوجهًا نحو المنزل وأنا أراقب جميع الاتجاهات خائفًا من أن يظهر أمامي أحد حراس البرج كي يسلموني إلى الأيادي البيضاء كقاتل ومشوه خِلقيًا.

لم أشعر بالأمان حتى أغلقت خلفي باب المنزل بعد أن تأكدت أنه لا أحد يلاحقني. ألقيتُ التحية على أمي وجدتي وجلست مباشرة على طاولة الطعام بعد أن فرض الجوع نفسه عليّ. وضعَت أمي أمامي كأس أوراق الريحان المغلية دون أن تسألني إن كنت في حاجة له. شربته دون أن أسأل أيضًا أو أعقب. لم تكن هذه الليلة مناسبة للجدال، ولا أريد أن تكون آخر ذكرى لي معها.. شجارًا.

ما إن وضعت أمي الصحون المليئة بالطعام حتى بدأت عيناي تبحث عن إيمو. هل لا يزال يتجول مع سيزار؟ صار غيابه يشعرني بالقلق من أن يقوم بحماقة يدمر فيها كل شيء.

- إنه في غرفتك ينتظرك. لقد تناول عشاءه باكرًا.

كعادتها علمت جدتي بنظرة واحدة ما يشغلني. قالتها وهي تبتسم في وجهي بينما ظلت أمي شاردة في قطعة الخبز على يمينها. فجأة باغتتني بسؤال شعرت كأنني على وشك فقدان توازني أمامها:

- ماذا يحصل مع إيمو؟ يبدو لي غير طبيعي اليوم.

ابتلعت كل طاقتي وأنا أحاول جاهدًا التحكم في ملامح وجهي أمام نظرات أمي الثاقبة:

- تشاجر مع سيزار هذا الصباح وكان الخطأ خطأه. لذا وبخته وهو الآن منزعج مني.

كم أتفاجأ في كل مرة ألقي فيها كذبة متناسقة وكأنني فكرت فيها لساعات طويلة. يومًا بعد يوم، أتأكد أنني أزداد سوءًا بلا توقف. أصبحت قاتلًا، وكاذبًا محترفًا.

- عندما تنتهي اصعد عنده وقم بمراضاته فهو بمثابة شقيقك الصغير.

بدت لي أمي الليلة مسترخية أكثر. ونظرتها إليّ مختلفة. وكأنها تعبت من توبيخي وباتت لا تبالي. من سخرية القدر، أنها تغيرت بعد أن قررت الهرب من الجزيرة. ويقول الكتاب المقدس أن «الأشياء الجميلة تأتي في الوقت المناسب ولو تأخرت.. هفوة أخرى جعلتني أعود إلى نفس المنطلق مجددًا.

تأملت وجه أمي لثوانٍ ورست عيناي مجددًا على جدتي وهي تقوم بابتلاع الخبز مع حساء الخضر بفمها شبه الخالي من الأسنان حتى تلاقت عيوننا وبدأنا بالضحك. كيف لي أن أتخيل الحياة بدون هذا الوجه المضيء؟ لوهلة كنت على وشك الاستسلام والبقاء هنا كرمًا لعيونها. شعرت بغصة في قلبي وأنا أتخيل وضعها بدوني. لكن سرعان ما استجاب اللاوعي لنداء الوعي

عندما تذكرت أنها لن تكون سعيدة برؤيتي أموت أمام عينيها في هذا المكان. الموت بعيدًا أو الاختفاء المفاجئ أرحم.

ساد الصمت مجددًا. حتى كسرته أمي قائلة:

- هنالك أمر مريب يحصل في البرج اليوم.

انحسرت قطعة الخبز في حلقي حتى بحثت بشكل لا إرادي عن الماء كي لا أختنق من شدة الصدمة:

- ما الذي يحصل يا ابنتي؟.

- لا أعرف. البرج مطوق بالحراس والجميع تم إخراجهم منه دون تفسير..

شعرت فجأة بالارتجاف وأنا أسمع أمي تلقي على مسامعي أخبارًا قلبت موازين تفكيري. قمت من الكرسي وانسحبت من الطاولة متحججًا بشعوري بالنوم الشديد.

فتحت باب غرفتي وأنا أمسح العرق المتصبب من جبيني لأجد إيمو شاردًا أمام النافذة وهو يحدق في سواد السماء الحالك والنجوم اللامعة وكأنها ليلة هادئة من ليالي الصيف الحارة.

- لا تودع السماء فهي نفسها في كل مكان.

أدار إيمو وجهه نحوي فبدا متعبًا والهالات السوداء تحيط بعينيه. في ظرف يوم واحد تحول من ذلك الشاب اليافع الذي يضج بالحياة إلى شخص عجوز أرهقه الزمن. بات شبيهًا لي، صامتًا كاتمًا لصرخاته وحيرته. لم أرده أن يصل إلى الحالة التي وصلت إليها بين ليلة وضحاها. فالوصول إليها بالنسبة لي كان عملًا شاقًا كبناء سور عالٍ رويدًا رويدًا.

- لن أسامح نفسي على ما فعلته بك يا آدم.

- أنت لم تفعل لي شيئًا. بل بسببك اكتشفنا حقائق خطيرة.

- لكن بسببي ارتكبت جريمة قتل. وسترحل عن الجزيرة دون توديع من تحبهم. وكأنك أنت المشوه لا أنا.

ابتلعت غصتي محاولًا تفادي افتعال موضوع التشوه الخِلقي قائلًا:

- تعلمتُ في الحياة أن هنالك تضحيات في سبيل الوصول إلى معرفة الحقيقة. أساسًا لستُ عاشقًا لهذا المكان وأنت تعرف ذلك جيدًا. أنت مجرد سبب جعلني أتمسك به كي أرحل من هذا المكان المظلم.

وضعت يدي على كتفه وقلت له بصوت خافت:

- نحن الآن سنغادر هذا المكان لا كمشوه خِلقيًا وقاتل هاربين من العدالة، بل كشخصين قررا التضحية لإنقاذ شعب هذه الجزيرة من الأيادي البيضاء. وحده القدير يعلم ما الذي يخططون له.

بدا لي إيمو كأنه اقتنع بكلامي أخيرًا. جلس بجانب السرير قائلًا:

- والآن ماذا بعد؟ كيف سنرحل؟ وإلى أين؟.

- لن نكون بمفردنا. العم ألبيرت قادم معنا. إنه يعلم الكثير عن العالم الخارجي. سيتكفل بكل شيء.

- العم ألبيرت؟ لم سيرحل معنا؟.

- إنه أيضًا تواق لمغادرة هذا المكان. أرأيت، بسببك تشجعنا جميعًا للخروج من سجننا.

لمحت جانب المنضدة الخشبية حقيبة سوداء. ما إن لاحظني إيمو حتى قال:

- لقد وضعت فيها ملابسي وبعض الأغراض التي قد نحتاج إليها..

- جيد. سأقوم أنا أيضًا لتجهيز ذلك. حاول أن تنال قسطًا من النوم.

بعد أن نال النوم من إيمو، جلست بالقرب من النافذة أراقب من خلالها الجزيرة كأنني متأكد أنني أراها للمرة الأخيرة في حياتي. غريبة هي الحياة، في لحظة واحدة انقلب كل شيء. لم يكن يخطر على بالي أنني سأغادر هذا المكان يومًا. اعتقدت أنني سجين هذه الأسوار، والأيادي البيضاء، والهلييث إلى الأبد.

استيقظتُ بعد غفوة قصيرة مفزوعًا معتقدًا أن الشمس قد أشرقت منذ وقت طويل. لكن سرعان ما شعرت بالاطمئنان بعد تأكدي أن الوقت لا يزال مبكرًا على ذلك. كان الهدوء في مثل هذا الوقت أجمل شيء يمكن للنفس أن تتمناه. لم أرد إيقاظ إيمو كي لا يوترني. فتحت خزانتي الخشبية في هدوء تام ورتبت بعضًا من الملابس المهمة وما قد أحتاج إليه وسط حقيبتي. بعد انتهائي أيقظت إيمو وتسللنا خارج غرفتي محاولين عدم إصدار أي صوت يذكر. توجهنا مباشرة نحو المطبخ وبدأنا بجمع قطع خبز مع الجبن وملء قناني بالحليب الطازج. أثناء انشغالي سمعت صوتًا لم أتوقع أن أسمعه في هذه اللحظة:

- ماذا تفعلان يا شباب في هذا الوقت المتأخر؟.

أدرت وجهي لأجد جدتي واقفة بجانب طاولة الطعام الرئيسية ويبدو على وجهها علامات الثقة وعدم الاستغراب. تبادلت مع إيمو نظرات ضياع ونحن نفكر في رد كافٍ لخداع جدتي الذكية.

- نحن.. فقط لم نستطع النوم فقررنا القيام بجولة حول الجزيرة.

رسمت جدتي ابتسامة استهزاء وهي تراقب الحقائب التي نحملها قائلة:

- جولة بحقائب؟.

شعرت في هذه اللحظة أن مخزون الكذب قد انتهى أمام نظرات جدتي المشككة. كيف لي أن أكذب على الشخص الوحيد في هذا المكان الذي يراني بعيون مختلفة ولا يضغط بإصبعه على جراحي كما يفعل الآخرون؟ ما إن لمح إيمو حيرتي ودموعي التي بدأت تنزل على خدي حتى انسحب تاركًا مجالًا للخصوصية وانتظرني خارجًا.

- نحن.. سنغادر الجزيرة الآن.

اقتربت مني بضع خطوات ووضعت يدها على كتفي ثم رفعت بأصابعها وجهي ومسحت دموعي قائلة:

- عندما سألتكما لم أكن أبحث عن إجابة غير هذه..

- هل كنت تعلمين بذلك؟.

- قد أبدو لك عجوزًا تلازم البيت طوال النهار، لكنني لست غبية..

عاد الصمت مجددًا، لكن هذه المرة تركت الكلام لقلبي. فقد كنت أصارع الأفكار والاعترافات بداخلي وأنا أحاول شرح سبب مغادرتي لها. هل ألقي على مسامعها ما حدث؟ هل ستتقبل أنني مشوه خِلقيًا ومرتكب لجريمة قتل؟ هل ستوقظ أمي من نومها وتجعلها تمنعني؟

- حدث شيء سيئ جدًا يا جدتي، كنت أتمنى لو أستطيع إخبارك بالحقيقة. لكنني لا أستطيع.

- لم لا تستطيع يا بني؟.

- لأنني أحب كيف تراني عيناك. أحب ذلك البريق فيهما عندما تلتقي دائمًا بعينيّ. إن أخبرتك، ستفقدين ذلك البريق. وإن فقدتِه.. سأفقد الرغبة في الحياة.

عانقتني بحنان كبير دون أن تسألني أكثر أو تعاتبني. سمحتُ لدموعنا أن تنسج خيوط حوار خالٍ من كل حكم أو مصارحة تجرح كلينا. لم أرد أن يكون وداعنا الأخير مليئًا بالعتاب والصدمات.

- أنا أعلم كل شيء يا آدم.

سرعان ما تحطمت آمالي وأحلامي الوردية عن الوداع الأخير. تراجعتُ إلى الوراء وقلت:

- ماذا تقصدين؟.

رفعَت يدها ووضعتها مباشرة على قلبي. لم تفعل ذلك بشكل خاطئ، بل وضعتها في جهة اليمين. إنها تعلم.. إنها تعلم أنني مشوه خِلقيًا!

- كنت تعلمين طوال هذه المدة؟.

سالت الدموع الغزيرة من عينيها وهي تجيبني بصوت مختنق:

- كيف لي أن لا أعلم وأنا كنتُ أضمك بقوة إلى صدري حتي أشعر بدقات قلبك في ضلوعي..

شعرت في هذه اللحظة كأنني تعرضت لأقوى صفعة في حياتي، صدمة تخطت كل الصدمات. أخفضتُ رأسي عاجزًا عن الإجابة. الذل والهوان يعتليان وجهي ويقطعان أحبالي الصوتية لتنقض على مكانها دموعي بكل جرأة وبلا استئذان.

عادت لترفع رأسي لكن هذه المرة تحدثَت بنبرة صوت واثقة:

- إياك أن تنحني خجلًا من نفسك. ارفع رأسك عاليًا يا بني. القدير لا يخلق شيئًا عبثًا. طالما أنت موجود هنا فأنت خُلقت لسبب ما. تذكر ذلك جيدًا.

- حتى إن تقبلتُ ذلك، لا الدين ولا الناس سيتقبلونه. والدليل.. انظري، سأهرب كالجبان.

- لا تقل ذلك يا بني. خروجك من هذا المكان سيكون له فائدة ما عاجلًا أم آجلًا. أنا فخورة بك، بشجاعتك وبسالتك. أنت لا تخيب ظني أبدًا منذ أن حملتُك بين يديّ وأنت رضيع صغير. لو كان والدك على قيد الحياة، لكان فخورًا بك مثلي.

- وماذا عن أمي؟ هل ستكون فخورة بشيطان مثلي؟.

ضغطت جدتي على يدي قائلة:

- اجعلها فخورة عندما تعود منتصرًا على نفسك والآخرين. بسببك سيتغير مصير كل المشوهين وستعود الحياة إلى مجراها. حماك القدير يا بني. لا تقلق عليّ وعلى والدتك. سنكون بخير.

عانقتُها بشدة وأنا أشتم رائحتها الزكية التي عادة ما تكون شبيهة بورود الياسمين. فمن يدري قد تكون هذه آخر مرة أراها فيها.

- أرجوك يا جدتي لا تثقي بجماعة الأيادي البيضاء. هؤلاء وحوش خطيرة متنكرة في زي ملائكة. خروجي من هذا المكان هو بسببهم، وسأكشف حقيقتهم مهما طال الزمن.

ربتت جدتي على كتفي قائلة:

- ستنتصر عليهم بمباركة القدير. قويًا كما عهدتك. لا تسمح لأي شيء بأن يكسرك مهما كانت قوته. تذكر بأن القوة الحقيقية تكمن في الإيمان بنفسك. واستمع دائمًا إلى قلبك فهو لا يخطئ.

قبلت جبينها وانحنيت لتقبيل قدميها احترامًا لكنها كعادتها تراجعت إلى الوراء. همست لي بلغة الإشارة بأن أرحل قبل أن تستيقظ أمي لأن الوقت قد

حان كي تقوم بتجهيز قن الدجاج. تمنيت لو استطعت أن أودعها هي الأخرى. فرغم كل شيء ستظل أمي، وسأشتاق إليها وأحبها بلا توقف. لا يمكن للدماء أن تندثر ولا لرابطة الأمومة أن تموت مهما قست علينا الظروف.

خرجتُ من البيت في هدوء وبدأت السير برفقة إيمو الذي لم يسألني عن فحوى الحوار بيني وبين جدتي. فهو يعلم جيدًا أنني أحاول التركيز في مهمة هربنا أكثر من أي شيء آخر. تسللنا بين أزقة الجزيرة ونحن نختبئ خلف الحيطان والزوايا نراقب المارة في حذر. لاحظنا حركة غير طبيعية لجنود السلام في هذه الليلة الهادئة. كان تجولهم في هذا الوقت مريبًا. قد يبدو ذلك طبيعيًا لسكان الجزيرة لكن هذه الخدعة لا تنطلي عليّ. إنهم يبحثون عن شيء ما، أو عن شخص ما.. عني طبعًا.

تسارعت دقات قلبي وأنا أسير في خطى سريعة وأراقب الطرقات في نفس الوقت متوجهًا نحو الغابة. ما إن وصلنا إلى شجرة البلوط حتى احتمينا خلف جذعها العريض ونحن نراقب بين الحين والآخر تحركات الحراس. التقطنا أنفاسنا للحظات ثم جلسنا على التربة الدافئة نشرب القليل من الماء.

– كيف سنهرب وجنود السلام في كل مكان؟.

لم أستطع أن أخترع كذبة سريعة لطمأنة إيمو. فما كان أمامي سوى إخباره بالحقيقة:

– ليس لدي أدنى فكرة. سننتظر العم ألبيرت كي يخبرنا بالطريقة المناسبة.

– إنهم يبحثون عنا لا محالة. على الأرجح وجدوا جثة الرجل وقد ربطوا كل الافكار ببعضها البعض وعلموا أننا خلف موته.

ما لبثتُ أن أجيبه حتى شعرت بيد تلمس كتفي. اهتز جسدي وأنا أستعد للهرب مجددًا من يد الحارس. لكن سرعان ما سمعت صوتًا مألوفًا.. إنه صوت.. مايا.

لم أصدق نفسي وأنا أراها واقفة بالقرب مني وهي تحمل حقيبتها الجلدية البنية خلفها.

- ما الذي تفعلينه هنا يا مايا؟.

- أنا قادمة معكم.

تبادلتُ نظرات استغراب مع إيمو:

- مستحيل. هذه المغامرة خطرة عليك.

- لم؟ لأنني فتاة؟ أنت تعرف أنني أستطيع الصمود مثلكم..

- لا أقصد ذلك. أنا خائف عليك، أنت على الأقل في أمان هنا..

اقتربت مني وهي تمسك بيدي قائلة:

- آدم، لا أستطيع البقاء هنا. أنت تعرف أن أبي سيحول حياتي إلى جحيم ويزوجني بذلك الأخرق. لو رحلتَ وتركتَني بمفردي سأقتل نفسي. لا يوجد شخص يفهمني ويخرجني من وحدتي سواك. لذا سأرافقك أينما ذهبت مهما حصل.

تدخل إيمو أخيرًا:

- دعها تذهب معنا. بقاؤها هنا لن يفيدها في شيء..

لم أجد طريقة أخرى لإقناع مايا بالبقاء. أنا أعرفها جيدًا، فتاة عنيدة لا تتنازل عن أفكارها. لكن في نفس الوقت وضعت نفسي مكانها -كعادتي أضع نفسي مكان كل شخص- وفكرت مليًا. كنت أيضًا لأختنق في هذا المكان إن

تركني فيه صديقي الوحيد لأبي المتعجرف كي يدمر حياتي. شعرت بألمها، بتلك التقوسات بين حاجبيها وهي تنظر إليّ منتظرة ردي، تقوسات ينتجها جبينها في كل مرة تكون فيها تتوسل إليك داخليًا لكنها تتمالك نفسها خارجيًا كي لا تبدو ضعيفة. أنا أحفظ مايا ولغة جسدها أكثر من نفسها.

- حسنًا يمكنك القدوم معنا.

عاد إيمو ليراقب الأجواء من حولنا فإذا به يصيح:

- يا شباب هناك شخص قادم نحونا.

تراجعنا ونحن نستطيع سماع دقات قلوبنا مجتمعة من شدة الرعب متوقعين أن يكون القادم أحد جنود السلام. فإذا برجل يظهر وسط الظلام بشكل مألوف.. إنه العم ألبيرت.

- آمل أن لا أكون قد أفزعتكم يا شباب.. ما الذي تفعلينه هنا يا مايا؟.

أجابته مايا بوجه عبوس قائلة:

- قصة طويلة.. مختصرها أنني قادمة معكم.

تبادل العم ألبيرت معي نظرات الاستغراب مستفسرًا إن كان كلامها حقيقيًا. فإذا بي أجيبه:

- نعم إنها قادمة معنا. والآن ما الخطة؟ المكان اليوم مليئ بجنود السلام على الأرجح يبحثون عنا.

وضع العم ألبيرت حقيبة ثقيلة بالقرب من أقدامنا. جثْونا لنفتحها فإذا بنا نجد فيها بعضًا من الأسلحة وقطع ملابس جلدية وحبالًا. تبادلنا جميعًا نظرات الخوف. ما الذي تعنيه هذه الأمور؟ هل علينا القتل للخروج من هنا؟

- لا تقلقوا يا شباب فهذه مستلزمات السفر في حال حصل شيء ما خارج التوقعات. أما بخصوص الخطة فهي كالتالي...

تجمعنا حول العم ألبيرت مستعدين لسماع الخطة بتمعن. وضع عصاه بجانبه ثم بدأ بالشرح:

- سنتخذ من طريق الغابة الخلفي مهربنا نحو الجزء الشمالي من مخرج الجزيرة لأننا لا نستطيع المرور من الباب الرئيسي خصوصًا مع وجود جنود السلام.

انتظرنا أن يكمل خطته لكنه توقف وهو ينظر إلينا، وكأنه لا يملك تتمة لطريقة هروبنا.

- وماذا بعد ذلك؟ كيف سنخرج من الجزيرة؟.

- سأخبركم عندما نصل إلى وجهتنا. الغابة هي الجزء الأهم، أما الخروج فهو سهل.

لم تكن أمامي فرصة أخرى للتشكيك أو التساؤل، فنحن تحت رحمة العم ألبيرت. لا نملك غيره لتهريبنا من هذا المكان. إنها مخاطرة كبيرة لكنها تستحق العناء. حاولتُ جاهدًا إبعاد الأفكار السوداء من عقلي واتخاذ موقف إيجابي من الوضع المزري الذي وضعتني الأقدار فيه.

سمعنا فجأة وقع أقدام قوية تدنو منا وكأن شخصًا ما يركض باتجاهنا وأصوات أنفاس تصارع لابتلاع جزء من الهواء. ظهر أمامنا سيزار بجبين متصبب بالعرق ووجه خالٍ من التعابير.

- سيزار ما الذي تفعله هنا؟.

التقط أنفاسه أخيرًا وهو يجثو بشكل نصفي قائلًا:

- كنت قادمًا لتوديعكم فإذا بي ألاحظ جنود السلام يبحثون عن شخص ما. استرقت السمع لأكتشف أنهم يبحثون عن إيمو ويقومون بمسح لجميع من زار البرج اليوم للتحقيق معه بسبب جريمة ما. لا أعرف إن كانوا قد وصلوا حقًا لكم يا شباب..

لم يسمح لنا القدر بإكمال حديثنا واتفاقنا على الخطة حتى اقترب منا على بعد خطوات جنود السلام الذين على الأرجح لحقوا بسيزار بعد ركضه المريب نحونا. ما إن لمحناهم حتى بدأنا بالركض وسط الغابة مجتمعين. كانت هذه الحركة كفيلة بجعل مجموعة من الحراس والجنود يلحقون بنا. أطلقنا العنان لأقدامنا متجاهلين نداءاتهم المستمرة كي نتوقف. وسط دقات قلوبنا المستعرة بقوة وأصوات أنفاسنا، استوقفني شيء غريب.. كان العم ألبيرت الذي لطالما عهدته ذلك الرجل العجوز ذا الالتواء النسبي في ظهره، يركض بطريقة مشابهة لنا نحن الشباب، وكأنه شاب في العشرين في عمره.

- أين نتوجه يا شباب؟.

سألَنا سيزار أثناء الركض في طريقنا المجهول. ليجيبه العم ألبيرت:

- الحقوا بي.

دون تفكير أو تشكيك لحقنا بالعم ألبيرت. وما هي إلا ثوانٍ حتى بدأت السهام تطلَق صوبنا بشكل جنوني من قبل الحراس. شعرت باحتدام الخوف بيننا خصوصًا لدى مايا التي ظلت بالقرب مني وكاد السهم أن يخترق جسدها لو لم أبعدها عنه في الوقت المناسب. من حسن حظنا أن السماء لم تطلق العنان لشعاع الشمس بعد فخدمَنا الظلام هذه المرة لتجنب ضربات سهام الحراس الذين يطلقونها سهوًا دون تحديد مكاننا بشكل دقيق.

توقف فجأة العم ألبيرت على بعد خطوات من شجرة التين الكبرى في الغابة. أدخَل يده في جيبه ثم قال:

- تراجعوا إلى الخلف جميعًا.

ما إن تراجعنا حتى أخرجَ من جيبه كرة حديدية بحجم كف اليد، رماها بقوة على الأرض لتطلق دخانًا كثيفًا حجب عنا رؤية الجنود الذين يلاحقوننا. بدأ بعد ذلك بالبحث على أرض وسط الأوراق المتساقطة ليسحب فجأة إلى

الخلف ما يشبه الباب الحديدي فظهرت أمامنا حفرة على شكل قبو به أدراج نحو الأسفل. تسمرنا في أماكننا مندهشين لما نراه. لطالما تجولت في الغابة ولم يخطر ببالي أن تحت أرضها توجد بوابة لعالم آخر. دون أن يتحدث دخل وسط الحفرة، فما كان لنا سوى اللحاق به وترك التساؤلات لوقت لاحق، خصوصًا أن الجنود قد يظهرون أمامنا في أي لحظة.

تداخلت خطواتنا مع بعضها البعض ونحن ننزل على السلم الحديدي الرفيع وسط الظلام الحالك. أشعلت مايا قنديلها حتى صارت الرؤية واضحة نسبيًا لنا. شعرت بانقباض في صدري وأنا أحاول تفسير جميع الاحتمالات التي اقتحمت دون استئذان عقلي المشكك في كل شيء. ماذا ينتظرنا في نهاية هذا الطريق؟

كان الطريق عبارة عن نفق طويل شبيه بكهف ضيق، بينما تبللت أرضه بمياه متسخة وتناقلت الفئران بين كل خطوة والأخرى حتى جعلت مايا ترتعب وتمسك بيدي خوفًا من أن يصيبها مكروه. كان الصمت بيننا يتحدث ألف مرة. جميعنا نشعر بالخوف، الترقب، والتعجب لما يفعله العم ألبيرت. كانت الأسئلة تضغط على صدري في صراع كبير مع عقلي الباطني كي لا أطرحها عليه في آن واحد لتبرير كل ما مررنا به في هذه الدقائق المعدودة.



الفصل الثاني
«أرض الأحاديين»

انتهى أخيرًا النفق الطويل. ووصلنا إلى حقل كبير تجتاحه مجموعة لا تحصى من الورود السوداء. إنها المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها وردًا بهذا اللون الأسود القاتم. بعد أن توقف العم ألبيرت سأله سيزار:

- أين نحن الآن؟.

أجابه العم:

- نحن في حقل الورد الأسود. سنضطر للمكوث هنا من أجل الراحة ريثما تشرق الشمس. هذا المكان آمن.

تدخل إيمو:

- هل أنت متأكد من ذلك؟ قد يلحق بنا الجنود ويباغتوننا في أي لحظة.

ابتسم العم:

- لا يستطيعون ذلك، وحدي من يعلم بمكان وجود تلك البوابة السرية.

انحنت مايا متأملة الورود السوداء التي فاح عطرها الخلاب الشبيه بالمسك ثم حاولت قطف واحدة منها. فإذا بالعم ألبيرت يوقفها فجأة قائلًا:

- إياك أن تفعلي ذلك، هذه الورود ملعونة..

قطبت مايا جبينها مستفسرة:

- كيف تكون الورود ملعونة؟.

- هذا الحقل لم يكن كذلك من قبل. لقد وقعت على أرضه مجزرة بين البشر في الماضي فأريقت الدماء كالوديان في هذا المكان. ابتلعت التربة دماءهم ونبتت عنها هذه الورود السوداء كرمز للموت والدمار. يقال إن كل من يقتطف وردة من هذا المكان يجب أن يرتكب جريمة قتل كي لا تصيبه لعنتها.

تراجعت مايا مفزوعة إلى الوراء بينما تأملت تلك الورود الغريبة والتي بدأت رائحتها تتغير تدريجيًا لتصبح شبيهة برائحة الدم التي أشمها في جماعة الأيادي البيضاء. سرنا معًا وسط الحقل الكبير يتقدمنا كل من العم ألبيرت وإيمو. اقترب مني سيزار قائلًا:

- تبًا لهذه الظروف، تبًا لتسَرُّعي، تبًا لكل شيء.

- ما بك يا سيزار؟.

وضع يديه داخل جيبه وأجابني بلهجة ساخطة:

- لم أرد الهرب معكم. كنت قادمًا فقط لأودعكم فإذا بي هنا في المجهول. سيصاب والدي بالصدمة حالما ينتشر خبر هروبي مع قافلة المتمردين من الجزيرة. سأجلب له العار ويخجل مني.

ابتسمت ساخرًا:

- منذ متى كان فخورًا بك؟ أليس والدك هو نفس الشخص الذي ضربك عشرات المرات أمام الآخرين في الصغر قائلًا أنك خيبة أمل كبيرة وغبي؟ آسف يا صديقي لكنني لا أظن أنه سيكترث لأمرك كما تعتقد.

ابتلَع سيزار غصته فبدا كأنه شخص قد تلقى للتو صفعة قوية أيقظته من كذبة نسجها خياله كي يرضي النقص الكبير في الحنان من جهة الأب.

منذ وفاة والدته وزواج أبيه بامرأة أخرى، تكيف سيزار مع فكرة أنه نكرة بالنسبة لوالده، وعوض ذلك بسلوكه اللامبالي مع الآخرين والأنانية. لذلك هو لا يمتلك أصدقاء كثر، ولا أحد يحبه. حتى أنا لا أحمل في قلبي له سوى الشفقة أحيانًا، والرغبة في صفعه على وجهه بقوة أحيانًا أخرى.

كنني بالتأكيد الشخص الوحيد الذي يحلل شخصيته ويبرر في بعض الأحيان تصرفاته اللاعقلانية. ففي الجزيرة لا أحد يبرر لك خطأك، ولا وجود لشيء فيها اسمه فرصة ثانية.

شعرت أن كلامي كان قاسيًا كالحقيقة نفسها التي يتهرب من تقبلها سيزار. عجبًا لنا نحن البشر، الحقيقة هي كل ما نبحث عنه. لكننا في نفس الوقت نخاف منها أكثر من خوفنا من القدير نفسه. حاولت تلطيف كلامي وتلميعه كي لا يحمل سيزار نحوي ضغينة. فهذا النوع من الناس لا يسامح ولا ينسى:

– لست بمفردك هكذا، مايا هاربة معنا لنفس السبب، أو بالأحرى للأسوأ.

– حقًا؟ هل والدها يعاملها بقسوة؟.

– نعم، ويريد تزويجها بالإكراه. جميعنا هنا لسبب معين. لكن نقطة واحدة تجمعنا، نحن هاربون من قيود تحكم قبضتها علينا. لذا لا تتذمر وكن قويًا.

شعرت بوقع كلامي القوي في أذن سيزار الذي سرعان ما تغيرت ملامحه وبدا أكثر عزمًا من الدقائق الماضية. انشغالي في الحديث معه جعلني لا أنتبه أننا خرجنا من الحقل ووصلنا إلى أرض قاحلة. أدرت وجهي إلى الخلف

فوجدت البحر الذي يفرق بين جزيرتنا واليابسة بعيدًا. كيف وصلنا بهذه الطريقة والسهولة إلى أرض تبعد عنا مئات الأمتار؟ في هذه اللحظة شعرت بالخوف الحقيقي يجتاحني. بدأت أطرح على نفسي احتمال وجود آكلي لحوم البشر الحقيقيين، وعن أولئك الناس الذين سمعنا عنهم طوال حياتنا.. الأحاديين. المجموعة التي تسكن على الضفة الأخرى. هل سيكون ترحيبهم بنا إيجابيًا أم ترفع الأسلحة في وجوهنا؟ هل سنموت؟ هل سننجو؟ هل القدير سيتخلى عنا؟

وحدها السماء التي بدأت ترسم خيوط الشمس الذهبية عليها كانت قادرة على إيقاف سلسلة الأسئلة داخل عقلي الذي يعمل بدوام كامل بلا توقف. انهال التعب من أجسادنا لنتخذ من ظل شجرة كبيرة وسط هذا المكان القاحل مأوى لنا. لم أشعر بنفسي إلا وأنا أسقط متعبًا على الثوب المخطط الذي وضعته على الأرض وأنام.

فتحت عينيّ من نوم لا أعرف كم دام لأقوم وأنا أشعر بثقل في رأسي. علمت فورًا أنني لم أنم سوى لدقائق معدودة عندما وجدت الجميع غارقين في نومهم. لكن العم ألبيرت غير موجود بيننا. تأهبَت كل خلايا جسدي مستعدة للبحث عن الرجل الذي أحضرنا إلى هذا المكان النائي وتركنا فجأة. هل تخلى عنا وهرب؟ ابتعدت بضعة أمتار عن الشجرة أبحث وأنا أصارع أشعة الشمس القوية بيدي فوق جبين متصبب العرق للسماح لي برؤية ضعيفة. فإذا بي ألمحه جالسًا على صخرة كبيرة على بعد خطوات مني.

كان العم ألبيرت جالسًا بعينين مغلقتين يتلو صلواته للقدير. علمت أنه في لحظة تأمل من لحظاته الكثيرة. في محاولة لعدم إزعاجه جلست بالقرب منه أراقبه وهو يختلي بنفسه مع الخالق. تمنيت لو كنت مثل هذا الإنسان، يحمل في جعبته الغموض لكن ذلك لم يمنعه من الحصول على شيء واحد قاتلتُ حياتي كاملة من أجل الحصول عليه.. السلام الداخلي. سبق أن قال لي في

يوم من الأيام أن السلام الداخلي ليس أن تكون هادئًا في كل الظروف.. ذلك يجعل منك آلة وشخصًا ميتًا من الداخل. بل إنه ذلك الشعور بالثبات الذي لا يزيحه أي شخص أو ظرف مهما كان، شعور أنك متقبل لنفسك بحسناتك وسيئاتك، متقبل للآخر بمختلف مكنوناته. تقف على ركائز متينة لا يكسرها الزمن.. مواصفات لا أملك منها شيئًا.

- هل ستحدق بي هكذا مطولًا؟.

تفاجأتُ من سرعة بديهة العم ألبيرت الذي علم بوجودي قربه دون أن يفتح عينيه.

- آسف لم أرد أن أقاطع لحظات تأملك.

فتح عينيه وقال:

- لم لا تتأمل أيضًا فأنت بحاجة إلى ذلك.

أخفضتُ رأسي وقلت بسخرية:

- لست من النوع المتأمِّل، فعقلي لا يمكن إيقافه عن العمل.

عاد الصمت من جديد بيننا. شعرت بداخلي أن كلًا منا ينتظر الآخر كي يتحدث. لن يمر تهديدي له بتلك الورقة التي وجدتها في مكتبته مرور الكرام بالنسبة إليه، ولن أتجاهل أبدًا ما فعله كي يوصلنا هنا.

لم أستطع كتمان ما تحمله جعبتي من أسئلة له. خصوصًا أن الفرصة قد لا تسنح لي كي أسأله مرة أخرى عندما يستيقظ الآخرون.

- كيف استطعتَ إخفاء كل هذا؟ الباب السري والأسلحة وذلك الشيء الكروي الذي يطلق الدخان؟.

ابتسم قائلًا:

- أعلم أنك الآن تفكر في شيء واحد.. طوال هذه السنوات رغبتَ في مغادرة الجزيرة غير مدرك أن هنالك بابًا صغيرًا وسط الغابة يخرجك منها في طرفة عين. أليس كذلك؟.

- نعم.

- ضع قاعدة مهمة في عقلك يا بني. لو كان في مصلحتك الهروب من الجزيرة في ذلك الوقت لسمحتُ لك بذلك. كل شيء مناسب يقع في وقته المناسب، إنه قانون الحياة.

مسحتُ ما تصبب من العرق في جبيني وأجبته:

- قد تكون محقًا في ذلك، لكن لمَ أخفيتَ كل هذه الأسرار عني؟ أنت تعلم أنني لم أكن قط من النوع المطيع لجماعة الأيادي البيضاء. كنا على نفس الدرب وأنت اخترت أن تخرج عنه.

ضحك حتى ظهرت أسنانه الأمامية البيضاء كاملة وارتفعت تجاعيد جبينه ثم وضع يده على كتفي قائلًا:

- جميعنا نخفي أسرارًا يا ولد. منذ متى تخبرني بكل ما تحمله جعبتك؟.

- أنا أخبرك بالكثير.

- لكن ليس بالجميع، مثلًا تشوه إيمو الخلقي. تحدثتَ عن الموضوع معي بشكل سطحي دون أن تلمح لي بشيء. لو أخبرتني لتصرفتُ دون أن تضطروا جميعًا للهرب.

- كيف كنتَ لتتصرف؟.

- لا داعي لنتحدث في شيء لم يحصل، هذا سر من أسراري الباقية..

كان صوت أمعائي قد بدأ باجتياح بطني بعد جوع مفاجئ عصف به دون استئذان، لكنني لم أسمح له بمقاطعة جلسة المصارحة مع العم ألبيرت الذي لا يزال يختبئ خلف جدار قوي يحمي به كل أسراره.

- والآن ماذا؟ هل معرفة وجهتنا سر من أسرارك أيضًا؟.

لم يجبني العم ألبيرت هذه المرة بل ظل يحدق في السماء بكل هدوء.

- ستأخذنا إلى الأحاديين أليس كذلك؟.

أدار وجهه نحوي قائلًا:

- بما أنك تسأل سؤالًا تعرف جوابه فلا شيء لي لأضيفه.

- أنا قلق علينا. فنحن لا نعرفهم ولم نتواصل معهم من قبل. أتمنى أن لا يكونوا هم آكلي لحوم البشر.

كان هذا هو الهاجس الذي لم يفارقني طوال الساعات الماضية، الأحاديّون. كيف سيكون استقبالهم لنا؟ هل يا ترى هم أولئك الذين يصفهم شعبي بآكلي لحوم البشر؟ متوحشين خارجين عن القانون؟

- هل أنت خائف من الموت يا آدم؟.

كان سؤاله المباغت غريبًا جدًا بعد اعتقادي أنه لن يجيبني ككل مرة.

- لا أدري، قد أكون كالجميع.. خائف من أن أموت قبل أن أكون شخصًا يتمتع برضى القدير.

ركز عينيه الرماديتين على عينيّ ثم أجاب:

- جميعنا نريد الجنة لكن لا أحد منا يريد أن يموت.

مرة أخرى استطاع العم ألبيرت أن يلقي على مسامعي كلامًا قويًا يجعلني أبتلع بسببه كل التساؤلات التي أود أن أطرحها عليه مجددًا. يعجبني كيف

يتلاعب بالكلمات ويحولها إلى سلاح لحماية نفسه تارة، وتدمير عدوه تارة أخرى. الكثير يستهينون بقوة الكلمات. لكن الذكي هو من يعلم مدى قابلية هذه الخاصية عند بعض البشر في تغيير حياتهم. كلمة واحدة قد تغير مصيرك وتقلب حياتك سواء للأفضل أو للأسوأ. كلمة واحدة قادرة على جعلك تخسر نفسك، والآخرين وكل شيء تملكه. لكن عندما يكون الذكي واعيًا بما يستطيع فعله بكلماته، شأنه كشأن العم ألبيرت، فهو يجعلها تعمل لصالحه. تحميه وتقويه على أعدائه. وتجعل الوصول إليه وتحديه أمرًا مستحيلًا.

تذكرت فجأة الورقة التي وجدتُها في مكتبة العم ألبيرت. لن أجد فرصة أفضل من هذه كي أفهم ما تحمله من أسرار. ما إن بدأت شفاهي بصياغة الجملة حتى سمعت صراخًا بصوت مايا من بعيد. لم أشعر بنفسي إلا وأنا أقوم من مكاني راكضًا برفقة العم ألبيرت بكل ما نملكه من قوة تحت أشعة الشمس الحارقة باتجاه مسار الصوت. بعد وصولنا وجدنا كلًا من إيمو ومايا وسيزار متشبثين بأغصان الشجرة عاليًا بينما يوجد في الأسفل منهما مخلوق يشبه الذئاب في هيئته. ما إن شعر بوجودنا حتى أدار وجهه باتجاهنا بكل جرأة. كان حجمه أكبر بكثير من صور الذئاب التي رأيتها في كتب العم ألبيرت. وبرُه مزيج من اللون الأسود والبني والرمادي. في حين بدا جليًا أنه خاض معركة قاتلة مع مخلوق آخر حيث كان جزء كبير من جلد وجهه مفقودًا ومتعفنًا حتى ظهر فكه الذي يحمل أسنانًا كبيرة تتقدمها أنياب طويلة حادة. ركز بعينه ذات اللون الأحمر باتجاهنا وبدا كأنه مستعد للهجوم علينا في أي لحظة.

تسارعَت دقات قلبي وبدأ الخوف يجتاحني خصوصًا أنني لا أفقه شيئًا في قتال البشر فما بالك بقتال حيوان شرس لا أعرف حتى فصيلته. تذكرت أن حقيبة الأسلحة موجودة أمام جذع الشجرة. لقد كان الموقف لصالح الوحش بالتأكيد. تبادلت نظرة خوف مع العم ألبيرت الذي قال لي بصوت منخفض:

- عينه اليسرى بها نقطة بيضاء كبيرة. إنه يرى باليمنى فقط.

- وبم ستنفعنا هذه المعلومة؟.

صرخَت مايا من الأعلى قائلة:

- اهرب يا آدم إياك أن تتقدم.

اقترب مني العم ألبيرت قائلًا:

- لا حل أمامنا سوى أن نقوم بالآتي: أنا سأقوم بإلهائه ريثما تقوم أنت بإخراج أي من الأسلحة والهجوم عليه، أو بإمكاننا تبادل الأدوار..

لم أجد حلًا آخر سوى الذي اقترحه عليّ العم ألبيرت. رغم خوفي الكبير والذي وصل إلى ركبتيّ، شعرت بالطاقة تنسحب منهما شيئًا فشيئًا، تنفست الصعداء وضغطت على كل مخاوفي. حياة كل شخص هنا تعتمد على سرعة بديهتي وجرأتي. كان الصوت الصادر من الوحش وهو يضغط على فكيه بقوة يثير القشعريرة في جسدي. فأومأت برأسي للعم ألبيرت الذي بدأ بالعد العكسي: ثلاثة.. اثنان.. واحد. ثم انطلقت..

في اللحظة التي ركضت فيها نحو الحقيبة، كان العم قد بدأ بالتحرك باتجاه الوحش مركزًا على اتجاه اليمين حيث يراه الوحش بوضوح بينما تكفلت أنا بالجهة اليسرى. لم يكن أمامي سوى بضع ثوانٍ لاختيار السلاح وضرب الوحش وإلا سيكون الثمن حياة العم ألبيرت وحياتي أيضًا.

بدأ الوحش باللحاق بالعم ألبيرت لكن سرعان ما زادت قوته فصار يركض بسرعة كبيرة حتى بات قريبًا جدًا من الانقضاض عليه. بين صراخ أصدقائي، والرعشة في يديّ وأنا أبحث عن السلاح الذي قد أستطيع استعماله، ونداءات العم ألبيرت، أخرجْت أخيرًا قوسًا وسهامًا ثم بدأت بالتصويب نحو الوحش الذي فقد تركيزه عندما شعر بالسهام من حوله مفسحًا المجال للعم ألبيرت

كي يختبئ خلف الصخرة الكبيرة. بما أنني أستعمل هذا السلاح للمرة الأولى، لم يكن تصويبي ناجحًا على الإطلاق. حتى نجحت أخيرًا في رابع محاولة محدثًا إصابة في ظهره. اعتقدت لوهلة أن الكابوس قد انتهى وأنه سيُطرح أرضًا لافظًا أنفاسه. لكن الوحش كان أقوى بكثير من أن يتم قتله برمح خشبي حاد. والأسوأ من ذلك كله.. بدا أن إصابته جعلته يغضب أكثر. توقف لثوانٍ ثم أخرج مخالبه الحادة وبدأ في الركض باتجاهي

لم أشعر في حياتي من قبل بهذا الكم الهائل من الخوف. كان منظر ركض المخلوق المتوحش باتجاهي أسوأ كابوس يتجسد في الواقع. شعرتُ أن قلبي يكاد أن ينفجر من مكانه وألم حاد في صدري خدر يدي اليمنى. صرخ إيمو كي أركض، وبدون تفكير أطلقت العنان لقدميّ تحت الشمس الحارقة والعرق الذي بلل لباسي كاملًا. كنت أشعر برائحة الموت تقترب مني بعد كل جزء من الثانية واقتراب الوحش مني رويدًا رويدًا. فإذا به ينقض عليّ ويطرحني أرضًا بقوة جعلت صدري يهتز من مكانه.

مستلقيًا على ظهري، استطعت أن أرى كل تقلبات الألوان في عيون الوحش الذي كانت أنيابه على بعد مسافة بسيطة من وجهي، مستشعرًا لعابه ورائحة أنفاسه العفنة. سلاحي الوحيد كان الرمح الذي أطبقته بين فكيه حاميًا نفسي من أن يلتهمني. أخرجت كل قواي وأنا أ تدافع معه في مواجهة حاسمة لا أعرف كيف ستكون نهايتها. عجيب ما قد يصدر عن الخوف، يأس يكتسي حلة الشجاعة. هذا بالضبط ما حصل لي. أنا أخاف من الموت، لذلك أقاتل طوال حياتي. قاتلت كي لا أكون ذلك المشوه خِلقيًا الذي ترمي به الأيادي البيضاء خارج الجزيرة كي تلتهمه الوحوش البشرية كما كنت أعتقد.. وقاتلت كي لا أسمح لهم بفتح جسدي والتلاعب بأعضائه، قاتلت نفسي كي لا أيأس أو أفقد صوابي.. قاتلت الجميع.. قاتلت وقاتلت وسأقاتل. حتى إن حل الموت رغم كل شيء، لا أريد أن تكون آخر صورة لي في ذهني مرتبطة بشيء واحد.. الاستسلام.

في تلك اللحظة اختفى فجأة كل شعور للخوف بداخلي. فحل محله شعور جديد، لا يشبه الشعور الذي اجتاحني حين كسرتُ رقبة حارس البرج حتى الموت. هذا ليس شعور المواجهة من أجل النجاة كما اعتقدت. أنا الآن أشعر بالرغبة في القتل مجددًا. أريد رؤية هذا الوحش يموت على يديّ.

ركزت نظرتي على عينه مباشرة وقلت:

- أنا لست خائفًا منك.

بقوة لم أشعر بها من قبل، وجرأة لم أتحل بها يومًا في حياتي، دفعتُ الوحش وأنا ما زلت ضاغطًا على الرمح بين فكيه. أبعدته عني حتى سقط على جانبه الأيمن. قام مجددًا وعاد ليهجم عليّ. لكن ذلك لم يرعبني، بل تقدمتُ أيضًا نحوه بينما أسمع صرخات الجميع من بعيد. ما إن وصل إليّ حتى تغيرت معالم وجهه. لم تعد عينه تشع بالشر والتوحش. شعرت أنه بات خائفًا مني. أخفى مخالبه وتوقف وهو ينظر إليّ مترددًا. كانت لا تزال غريزة القتل تتحكم بكل شيء في جسدي. عند استعدادي للانقضاض عليه وغرس رمحي في قلبه، سبقني إليه العم ألبيرت موجهًا نحو رأسه مباشرة سلاحه الشبيه بالرمح والسهام لكنه حديدي يتخلله حبل متين أرداه قتيلًا في لحظتها.

توقفت في مكاني وأنا أشعر بدوار وخفقان في قلبي. ماذا حصل لي؟ لم صرت فجأة قاتلًا بارد القلب لا يخاف وحشًا يعادل أضعاف وزني؟ شعرتُ بانسلاخ كبير من ذلك الشخص الذي كان يتحكم بجسدي قبل قليل. فعُدت إلى صوابي، أو بالأحرى إلى آدم الذي أعرفه. الخائف، غير المدرك لما حصل للتو، الواقف في مكانه محدقًا في الوحش محاولًا استرجاع ما حصل.. لكن كالعادة.. عقله وجسده لا يساعدانه في شيء.

وصل إليّ العم ألبيرت والباقون. في حين تأملتني مايا وهي تتحسس وجهي وصدري لتطمئن أنني بخير:

- هل أنت بخير؟ هل أصابك ذلك الشيء؟.

مبتلعًا الصدمة وعلامات الاستفهام أجبتها:

- نعم أنا بخير لا تقلقي.

- يا إلهي كنتُ سأموت من الرعب عليك. اعتقدت لوهلة أنك ست...

- لا داعي لذكر الموت، كل شيء على ما يرام الآن.

قالها العم ألبيرت وهو يتفحص الوحش الغارق في دمائه. لم ينطق كل من إيمو وسيزار بكلمة. كانت معالم وجهيهما مبهمة، مليئة بالصدمة والرعب. أدار العم ألبيرت وجهه نحوهما قائلًا:

- أنتما بدل الوقوف هنا دون فعل شيء اذهبا واجمعا السهام من الأرض، قد نحتاجها بعد ذلك.

بدون نقاش ركض إيمو وسيزار إلى المكان الذي رميت فيه السهام نحو الوحش بشكل عشوائي. بينما اقتربْت أنا ومايا من الجثة الهامدة بالقرب منا. أثناء انشغال العم ألبيرت في اكتشاف كل جزء منها، لم تستطع مايا مقاومة فضولها وهي تسأل بوجه يملؤه الاشمئزاز:

- ما هذا الشيء بحق القدير؟.

رفع العم ألبيرت جزءًا من قدم الوحش قائلًا:

- يبدو أنه ذئب أو كلب بري في الأصل. لكنه طور من جسده بشكل عجيب ليصير مناسبًا لظروف الحياة في هذا المكان.

تدخلتُ في هذه التحليلات العلمية:

- هل كل المخلوقات تقوم بذلك إن كانت تعيش في بيئة كهذه؟.

قام العم ألبيرت وهو يمسح التراب من جسده قائلًا:

– بالتأكيد، هذه قاعدة موجودة منذ عصر الديناصورات. الحيوانات هي نفسها منذ ذلك العهد إلا أنها طورت نفسها عبر السنين كي تلائم التقلبات الزمنية والمناخية، حتى البشر ينحدرون من نفس القاعدة.

وضعت مايا يدها على كتفي قائلة:

– هيا بنا لنتناول بعض الطعام ونرتاح قليلًا قبل أن نكمل طريقنا. لا أريد أن أبقى هنا لمدة أطول.

تحت ظل الشجرة، انغمس كل واحد منا في الأكل دون أن ننطق بكلمة واحدة لمدة طويلة. لم أعلم إن كان الجميع لا يزالون تحت وقع الصدمة أم أن اليأس والخوف أطبقا على أفواهنا غير تاركين فرصة للثرثرة. كنت بين الحين والآخر أرفع رأسي لأجد عين سيزار تنظر إليّ بشكل غريب. في حين كان يدور كل من إيمو ومايا بين جوانبهما للاطمئنان أن لا مخلوق متوحش قادم باتجاهنا في هذا المكان الخالي من الناس. كنت أتمنى في هذه اللحظة لو استطعت أن أمحو من ذاكرة الجميع ما حصل قبل قليل، كي لا يطرحوا أسئلة أنا غير قادر على الإجابة عنها. تلك المواجهة المحتدمة مع وحش يعادل ضعف حجمي وخوفه مني في آخر لحظات عمره، ليس شيئًا يمكن غض البصر عنه.

بعد الوجبة السريعة كسر إيمو الصمت أخيرًا:

– أنا خائف يا شباب، لا أعرف ما الذي قد يحصل في اللحظة المقبلة. الموت يحيط بنا من كل زاوية.

أجابه سيزار بصوت متهكم:

– انظروا من يتحدث الآن، السبب الأساسي في وجودنا هنا.

تصاعد الاحمرار في وجه إيمو الذي أجاب بكل جرأة:

– أنت هو السبب، لو كنتَ أقفلت ذلك الفم الذي يعادل بكبره حجم الفيل لما وصلنا إلى هنا.

بدأ كل منهما بتبادل الاتهامات بينما حاولتُ جاهدًا عدم التدخل وجعل الخلاف يكبر أكثر. لكن مايا لم تستطع كبح غريزتها في حل المشاكل والخلافات:

- توقفا. نحن في وضع لا يسمح لنا بتضييع الوقت في شجارات طفولية. علينا أن نهدأ ونتحد. وإلا أصبحنا قوتًا للوحوش قبل وصولنا إلى وجهتنا.

صمت سيزار لثوانٍ، كانت عبارة عن هدوء يسبق العاصفة. أنا أعرفه جيدًا. فهو ليس من النوع الكتوم الذي يتحكم في أعصابه ويبتلع غضبه. خصوصًا عندما يرتفع حاجباه إلى الأعلى ويتوسع أنفه. إنها العادة الشهيرة لديه والتي تنبئ أنه سينفجر خلال ثلاثة.. اثنان.. واحد.

قام من مكانه موجهًا كلامه لمايا قائلًا:

- وجهتنا؟ عن أي وجهة تتحدثين؟ نحن لا نعلم حتى أين سنذهب. آخر شيء كنت أتصوره هو اللحاق بغريب أطوار عجوز في رحلة نحو المجهول. أنتم جميعًا تعلمون أنني لا أريد أن أهرب من الجزيرة. لا سبب لدي لأفعل ذلك. لست مشوها خِلقيًا ولا هاربًا من العدالة. كنت سأحظى أخيرًا بمنصب في البرج وأفوز بميثاق المغفرة. حياة رغيدة ورضى القدير عني والاقتراب من جماعة الأيادي البيضاء والتي إلى الآن لا نملك دليلًا قاطعًا على أنهم أشرار. كل ما نملكه هي رواية آدم. لا تنظروا إليّ بهذه الطريقة وكأنني شيطان على ما فعلته بإيمو. لقد قمت بما كان سيقوم به أي شخص في الجزيرة. احترمت القوانين والدين الذي ينص على التبليغ بكل مشوه خِلقيًا. أنتم من يجب عليكم الخجل لا أنا. خرقتم القانون وأغضبتم القدير لحماية إيمو. أنا هنا فقط لأنكم أشعرتموني بالذنب عند هروبكم فقررت المجيء وتوديعكم. سأعود إلى جزيرتنا. لا أريد الموت هنا.

ابتعد عنا بخطوات ثم توقف وهو يتأمل الأرض القاحلة حوله. تبادلنا نظرات مبهمة بيننا فقررت التوجه إليه والحديث معه. ما إن شعر بي خلفه حتى قال:

- لا تحاول يا آدم. سأعود إلى الجزيرة.

- وهل تظن أن طريق العودة سهل إلى هذه الدرجة؟ انظر ماذا حصل معنا قبل قليل. وحده القدير يعلم ما الذي تحمله هذه الأرض من وحوش.

أدار وجهه نحوي وعلامات الغضب بادية عليه:

- ما لا أستطيع فهمه لغاية الآن هو سبب هربك رغم أن الأيادي البيضاء لم يلمحوا وجهك عندما رأيتهم يقومون بتشريح ذلك الشاب. أنت كنت في أمان من كل شيء. لكن رغم ذلك كنت أكثر شخص يشجعنا على الهرب ويتصرف وكأنه هو المشوه خِلقيًا لا إيمو.

هذا هو المنعطف الذي كنت أخاف أن يصل إليه الحوار مع سيزار، الذي في معظم الأوقات يمكن اعتباره غبيًا. لكن في بعض الأحيان تستيقظ لديه موهبة التحليل فيصير ذكيًا لدرجة الخطر. ذكاء لا يمكن السيطرة عليه. فهو كالوحش الهائج الذي يتم حبسه لسنوات داخل زنزانة وفجأة تفتح الباب أمام وجهه. لذلك يخرج ثائرًا ليعانق الحرية ويحرق أي شخص يقف في طريقه عن قصد أو دونه.

لم أجبه، ولم أحاول التوضيح. بل صمتُّ على عكس عادتي. كان جسدي وعقلي لا يزالان في حالة تخدر مما حصل لي قبل قليل مع الوحش. لكن سيزار لم يكن كذلك على ما يبدو.

- أنا أستغرب لحالك يا آدم، كثيرًا.

- ما الغريب في حالي؟.
- أحيانًا أشعر أنك غريب الأطوار كثيرًا، وأحيانًا تكون ذكيًا للغاية، وفي بعض الأوقات أستغرب لمدى تهورك وطيبتك التي لا أستطيع فهمها. تضحياتك غريبة.. وما حصل مع الوحش زادك غرابة.

ابتلعت غصتي وأنا أسأله:

- وما الغريب في ذلك؟.
- قد يكون الآخرون تحت تأثير الصدمة غير منتبهين. لكنني انتبهت عندما تخليت عن خوفك وقررت مواجهة الوحش. بدوت وكأنك شخص آخر كليًا. لم تكن شجاعًا بل كنت كأنك الوحش نفسه. حتى ذلك المخلوق ارتعب منك وتراجع في لحظاته الأخيرة. هل كنت حقًا ستقتله؟.

شعرت حينها كأنني تلقيت عشرات الصفعات على وجهي في وقت قياسي حتى لم أعد أشعر بخديّ. لم يخطر على بالي أن سيزار من بين الجميع استطاع تمييز ما حصل في تلك اللحظة التي كان الخوف يحكم قبضته على نفوس وعيون الحاضرين.

- كل ما في الأمر أنني في تلك اللحظة شعرت باليأس واقتراب الموت مني. لذلك قررت الموت شجاعًا. وعلى ما يبدو أن الوحش لا يمتلك من الشجاعة ما يكفي للاستمرار في المواجهة.
- كان ذلك ليبدو طبيعيًا لو كان شخص آخر مكانك. لكنني أعرف أنك والشجاعة لا تلتقيان. أنت أكثر شخص حذر ومسالم قابلته في حياتي.

وضعت يدي على كتفه محاولًا إبعاد الشكوك عن عقله مبتسمًا:

- في الظروف القاهرة تصدر عنا أفعال لا يمكن أن نتخيلها يا صديقي. أنا متأكد أنك كنت لتغرز فيه رمحًا دون رحمة لو كنت مكاني..

صمت لثوانٍ ثم رد:

- دعنا من ذلك، هيا لنعد إلى الجزيرة معًا يا آدم. أنا متأكد أن مايا ستلحق بك إن وافقت. دع إيمو والعجوز يذهبان إلى وجهتهما المجهولة ولنعد جميعًا إلى المكان الآمن الذي قدمنا منه.

- وماذا عن الأيادي البيضاء؟ هل تريد أن يدمروا شعبنا دون أن يقف في وجوههم أحد؟.

- سنجد طريقة لكشفهم ونحن بينهم. أما هنا ونحن نلحق بذلك العجوز لن نفعل شيئًا.

- آسف يا سيزار. لا أستطيع التخلي عن أصدقائي. ولن أعود لتلك الجزيرة دون أن أملك شيئًا بين يديّ يثبت أن هؤلاء المخلوقات ليسوا ما يدعونه.

أدار وجهه متجاهلًا كلامي ساخطًا. أثناء استعدادي للعودة قلت له:

- لقد فات الأوان على العودة. الانتحار الحقيقي هو أن تذهب بمفردك في تلك الطريق. لنبق معًا ونحمي بعضنا البعض. لا بد أن القدير وضعنا جميعًا في هذا الموقف لسبب ما. فكر جيدًا قبل اتخاذ القرار.

بعد ابتعادي عنه ببضع خطوات. سمعته يقول بصوت عالٍ:

- على الأقل أخبرني أين سيأخذنا العجوز؟.

- إلى أرض الأحاديين. يبدو أنه يملك هناك أصدقاء قد يساعدوننا.

دون انتظار رد منه عدت إلى الشجرة لأجد العم ألبيرت يحدث مايا وإيمو عن الأحاديين أيضًا. ما إن وصلت حتى سألتني مايا:

- هل وصلت معه لحل؟.

- لا أدري. لكنني أشعر أنه سيعود عن قراره سريعًا.

تدخل العم ألبيرت:

- أرجو أن يكون سريعًا هو مرادف الآن، لأننا مجبرون على إكمال طريقنا.

بعد ثوانٍ وصل سيزار وقال بنبرة صوت منخفضة وعين تتهرب من النظر إلى وجوهنا:

- حسنًا لقد فزتم. لا أريد الموت في طريق العودة. لكن ماذا عن هؤلاء الأحاديين؟.

كرر العم ألبيرت السؤال:

- ماذا عنهم؟.

- ما نعرفه عنهم في الكتاب المقدس قليل. ويتمحور حول اختلافهم الكبير عنا وعيشهم كمتوحشين.

تكلم إيمو أخيرًا:

- هل أنت متأكد أيها العم أنهم لن يؤذونا؟.

ابتسم العم ألبيرت وهو يقوم من مكانه مستعدًا للذهاب:

- ألم يذكر في الكتاب المقدس أن النورانيين من أفضل خلق القدير؟ انظروا ماذا اكتشفنا عن الأيادي البيضاء. المعنى نفسه ينطبق على الجميع.

بعيون متسائلة نظر الجميع إلى بعضهم البعض غير مدركين قصد العم ألبيرت. لكنني خلال كل هذه السنوات استطعت أن أفهم بعض كلامه المليء بالألغاز. فما كان لي سوى أن أشرح لهم:

- المقصود هو أنه لا يجب أن نحكم على الآخرين بما نسمعه. قيل عن النورانيين إنهم مثاليون واكتشفنا أنهم قتلة بدم بارد. قد يكون الأحاديّون أشخاصًا طيبين يعيشون في سلام عكس ما نسمعه عنهم.

أومأ لي العم ألبيرت برأسه موافقًا على شرحي. ثم قال مخاطبًا الجميع:

- هيا لنكمل طريقنا. فلم يعد أمامنا الكثير من الوقت قبل غروب الشمس.

حمل الجميع حقائبهم وبدأنا بالمشي تحت أشعة الشمس الحارقة التي أشعرتنا بالعطش منذ البداية. لكننا رفضنا استهلاك مخزون الماء الذي نمتلكه غير متأكدين إن كنا سنصل إلى وجهتنا في وقت مبكر.

بعد سير دام لساعة دون توقف، لم يتحدث أحد بيننا. كان الجميع متيقظًا لكل حركة غير طبيعية تحصل حوله. لذلك وزعنا الأسلحة التي لا يعرف أي منا طريقة استعمالها في حال هجم علينا وحش ما. كانت الطريق طويلة، متشابهة، نفس الأرض القاحلة الشبيهة بالصحراء، والرياح التي جعلت بشرتنا تصبح متحجرة شيئًا فشيئًا. سرعان ما وصلنا إلى جبل شاهق الطول يعانق السحاب. توسطته بوابة شبيهة بالكهف لا يظهر من خلالها سوى الظلام. أخرج العم ألبيرت من حقيبته قنديلًا وأشعله على الفور لكن قوة الرياح لم تسمح للشعلة بأن تستمر. كرر الأمر مرة أخرى وقال وهو يدخل الكهف:

- الحقوا بي. هذه طريق مختصرة.

دخل دون انتظار رد أو اعتراض منا. تبادلنا نظرة قلق ليتكلم في خضم ذلك سيزار:

- تبًا، إنها طريق الموت حتمًا.

لم أرد إظهار قلقي الكبير أمام مايا وإيمو اللذين استنجدا بي في صمت وتركا لعيونهما مهمة التعبير. ابتعدت مسافة قصيرة حول الجبل لمعرفة ما يحمله في الضفة الأخرى. لكنني وجدت سلسلة من الجبال والكهوف ملتصقة فيما بينها مكونة غطاءً على المكان الذي دخله العم ألبيرت للتو. لا حل أمامي سوى اللحاق به. بدون أن أتحدث أو أشرح، لحقت به، فتبعني الآخرون مستسلمين.

كان الضوء الخافت الذي ينتجه قنديل العم ألبيرت غير كافٍ لإيضاح ما تحمله لنا الطريق المظلمة. بشكل غريزي سمحت لحواسي بأن ترشدني وتوضح لي المكان الذي أتحرك فيه. الأرضية مبللة بالماء، الرطوبة عالية، رائحة كريهة شبيهة بالجبن المتعفن. وأصوات تحرك أجنحة وتساقط قطرات مائية من السقف. بين الحين والآخر يفزع أحد منا عندما تظهر أمامه خفافيش أزعجها ضوء القنديل. حاولت مايا أن تتماسك لكنني أعرف جيدًا أن نقطة ضعفها هي الحشرات والخفافيش. وما هي إلا ثوانٍ حتى باتت تصرخ بين كل خطوة وأخرى في كل مرة يلمس جلدها شيء غريب. لم يطل الأمر كثيرًا حتى ظهر أمامنا نور مشع اقتحم الظلمة. توقف العم ألبيرت على بعد خطوات من المخرج قائلًا:

- الآن ستشاهدون ما لم تره أعينكم طوال حياتكم.

كانت لحظة أشبه بحلم. وكأن القدير حملنا من الجحيم إلى الجنة بين ليلة وضحاها. آخر ما أتذكر أنني سمعته هو إيمو قائلًا:

- أرجوكم أخبروني أننا وصلنا لمكان الأحاديين.

لقد كان المكان شبيهًا بالجنة التي وصفت في الكتاب المقدس، غابة استوائية يتوسطها شلال كبير وكل ما تشتهيه الأعين من خضرة ومناظر طبيعية لم أكن أظن أنها توجد على هذه الأرض. لم أصدق عينيّ، ولا أن ما

يفصل تلك الأرض القاحلة عن هذه الجنة مجرد جبل. لطالما علمت أن القدير يبدع في الخلق، لكن أن تعلم هو شيء، وأن تختبر ذلك بعينيك شيء آخر.

في لحظة انقلب مزاجنا وصرنا نضحك ونحن نتأمل هذا المكان الخاطف للأنفاس. اقتربت من مجرى مياه الشلال وبللت يديّ لأشعر ببرودة الماء فقررت تجربة الشرب منه. كان طعمه الحلو ألذ ما ذاقه لساني. هذا الماء لا يشبه إطلاقًا ماء الجزيرة المستخرج من البحر والذي تشعر وأنت تشربه كأنك تبتلع قطعة ملح صخرية في حنجرتك تزيدك عطشًا بدلًا من أن تروي ظمأك. فما كان أمامي سوى الغوص في النهر حتى وصل مستوى الماء إلى بطني. كانت برودة المياة تتصاعد مع جسدي محدثة شعورًا بالانتعاش لا يوصف، محا في بضع ثوانٍ كل تلك الحرارة المستعرة التي شعرت بها في الطريق إلى هذا المكان.

تأملت الجميع من حولي. كانت مايا منشغلة بتفحص الفراشات التي كانت في أكبر حجم ممكن. كل واحدة منها تعادل حجم اليد كاملة والبعض قد تجاوزها. تطوف بألوانها الزاهية حول الزهور ناشرة أجنحتها الملونة في الهواء. بينما استلقى إيمو على الأرض المغطاة بالحشائش، قفز إلى جانبي سيزار غير مصدق لبرودة الماء الجاري وصفائه، ثم قال بصوت منخفض:

– فقط بيننا.. أظن أن العجوز على حق. هذا المكان رائع والبقاء فيه يستحق كل العناء.

– كلام جديد من شخص كان قبل دقائق يتذمر كالعجوز.

تبادلنا معًا ضحكة عالية انتهت برش كل منا الآخر بالمياه العذبة غير مبالين بكل ما يحصل خارج هذه الجنة الصغيرة. سرعان ما قاطعنا صوت العم ألبيرت قائلًا:

– لا تفرحوا كثيرًا. فنحن لن نظل هنا.

اختفت الابتسامات من وجوهنا حتى همس لي سيزار قائلًا:

- حسنًا أسحب كلامي حول العجوز، عاد لغرابة أطواره.

حاولت استيعاب كلام العم ألبيرت لكنني فشلت في ذلك. كيف يمكن أن نغادر هذا المكان الذي لا يسمع فيه سوى صوت العصافير والمياه المتدفقة؟ مغادرة هذه الجنة أشبه بمحاولة انتحار بالنسبة لي.

- لمَ علينا أن نغادر؟.

جلس العم ألبيرت على صخرة صغيرة حاملًا لعصاه ثم أجابني:

- هذا المكان ليس كما يبدو لكم، لا يمكن العيش فيه. أولًا هو يعتبر معبرًا لكل المخاطر كون الباب المؤدي إليه غير محمي. ثانيًا في الليل تخرج المخلوقات المتوحشة وتسيطر على هذه الغابة الصغيرة..

قام من مكانه وهو يشير بيده إلى فراشة باللون الأسود اتخذت من زهرة وردية مكانًا لها:

- في هذا المكان المخلوقات ليست كمثيلاتها. إن كانت فراشة من هذه الفصيلة في هذا الحجم تخيلوا معي كيف ستكون الأفاعي والحيوانات المفترسة؟ هذه الجنة كما تلقبونها هي مؤقتة فقط في النهار. لكن عندما يسدل الليل ستاره تتحول إلى جحيم.

بنبرة من اليأس قالت مايا:

- وا أسفاه. إذن لمَ نحن هنا؟.

- لنملأ مخزون الماء ونرتاح قليلًا كي نكمل الطريق. لم يتبق لنا الكثير لنصل.

تعكر علينا صفو فرحتنا ليعتم اليأس على نفوسنا دون استئذان. خرجت من النهر وجلست على ضفته قرب إيمو ومايا حتى تجف ملابسي وشعري الذي التصق بوجهي. بينما تكلف العم ألبيرت بمهمة جمع بعض الأعشاب لسبب غير معروف. شعرت بالبرد عندما التصقت ملابسي على جسمي وبدأ الريح بمهمته في تجفيفها. أخرجت من حقيبتي الجلدية عود كبريت ثم ساعدني إيمو في جمع بعض الأغصان والأوراق المتساقطة والتي منحتنا شعلة ممتازة جعلت الدفء يتسلل تدريجيًا في المكان. قام كل من إيمو وسيزار للتجول حول الغابة والتعرف عليها بعد أخذ موافقة العم ألبيرت والذي بدوره جلس كعادته على صخرة واضعًا ساقيه فوق بعضهما البعض بشكل متقاطع وبدأ بالتأمل. لم يظل سواي أنا ومايا قرب النار. طوال هذه الطريق لم يتسن لي أن أتحدث معها على انفراد وأن أعرف ما يجول في خاطر هذه الفتاة الهادئة التي ما تلبث أن تفاجئني في كل لحظة عصيبة.

- كيف حالك يا مايا؟.

أجابتني وهي تلاعب غصنًا بين أصابعها:

- لا أدري. كل شيء حصل بسرعة حتى لم أعد قادرة على استيعاب الأمور. وأنت؟.

ابتسمت ساخرًا:

- أحسدك على شعورك. أما أنا فقد تعبت من استيعاب كل ما يجري.

- أتدري شيئًا.. لم أشعر بالخوف بهذا القدر في حياتي من قبل. عندما هجم عليك الوحش شعرت أن قلبي سيتوقف في تلك اللحظة. لم أرد أن أراك تموت أمام عينيّ..

رسمتُ على محياي ابتسامة مصطنعة لأجاملها على اهتمامها الكبير بي. رغم عدم قدرتي في الوقت الحالي لتقديم أي شيء إيجابي، حتى الابتسامة نفسها تبدو صعبة بالنسبة لي.

- هل أنت نادمة على القدوم معنا؟.

صمتتْ شاردة وهي تحدق بالنار ثم أجابت:

- أعلم أن إجابتي قد تبدو لك جنونية. لكنني فعلًا لست نادمة. بقائي في تلك الجزيرة دون أن تكون أنت فيها يعني موتًا بطيئًا كان ليبدو أمامه القتل من طرف وحش أرحم ألف مرة. ناهيك عن كابوس أبي.

لم تتبق لدي كلمات لأبادل بها كل هذا الحب والتعلق الذي تشعرني به مايا دائمًا. أكثر ما يعجبني فيها أنها لا تضغط عليّ أبدًا. فحتى إن توجب عليّ أن أكون لطيف الحديث أو أبادلها بكلام معسول، مايا لا تلومني أو تطلب مني أن أتلو على مسامعها ما تحبه جميع الفتيات. هذا ليس طبعي ولا أعرف أساسًا كيف أكون لبق الحديث مع الآخرين. قد يكون انعزالي سببًا في ذلك. الشيء الوحيد الذي يجعلني لا أقع في المتاعب بسبب هذا العيب هو عدم محاولتي التعرف على الغرباء.

- هل اشتقتَ إلى الجزيرة؟.

كان طرحها لهذا السؤال مسألة وقت لا أكثر، شيء انتظرته منذ بداية هذه الرحلة.

- عندما أسمع بالجزيرة لا أتذكر سوى جدتي وأمي. كانت جدتي لتحب هذه الغابة وتضع قدميها المتعبتين وسط النهر البارد كي تشعر بالارتخاء. والشيء الثاني الذي يخطر على بالي هو كوخي الصغير الذي نجتمع فيه أنا وأنت دائمًا ونراقب من خلال نافذته الجزيرة والبحر المحيط بها.

ابتسمت مايا وهي تعود بالذاكرة إلى الوراء وتتذكر تفاصيل بسيطة كنا نتخذها حجة للتمسك بحبل الأمل والعيش في تلك الجزيرة القاتلة لكل الآمال. لكن في خضم ذلك عادت ملامح القلق إلى وجوهنا بعد أن تسلل الخوف مما سيحصل بعد أن نتخطى هذه الغابة إلى نفوسنا. فقالت مايا:

- عندما انفجر سيزار ساخطًا أمامنا لم أرد أن أظهر له أن معظم كلامه منطقي فأنت تعلم أنه كالطاووس ما إن توافقه على شيء حتى ينفش ريشه عاليًا. نحن حقًا في رحلة نحو المجهول. وأشاطره نفس الشكوك حول العم ألبيرت. في بضع ساعات اكتشفنا العديد من الأسرار حوله. وحده القدير من يعلم ما يخفيه أكثر. إضافة إلى موضوع اللجوء إلى الأحاديين الذين لا نعرف عنهم سوى الأشياء السلبية من الكتاب المقدس. أَوَ لا يوجد بشر على هذا الكوكب غيرهم للذهاب عندهم؟.

- نحن لا نملك خيارًا آخر. لا أنكر أنني أيضًا لا أثق في العم ألبيرت وما زلت مقتنعًا أنه يخفي عنا الكثير. لكننا نحتاج إليه. تذكري يا مايا أن مصير المئات على جزيرتنا يعتمد علينا. جماعة الأيادي البيضاء لا يمكن أن يسيطروا لكل هذا الوقت. أما الأحاديون فلا أظن أنهم سيكونون لنا أعداء طالما العم ألبيرت يملك أصدقاء بينهم لاستقبالنا.

بدت مايا وكأنها تذكرت شيئًا للتو حتى ارتفع حاجباها عاليًا وهي تسألني:

- لم تخبرني كيف أقنعت العم ألبيرت بالمجيء معنا. هل تعرف عنه سرًا؟.

توجهت يداي مباشرة إلى الحقيبة التي وضعت فيها الورقة السرية قبل سباحتي في النهر كي لا تتبلل لأريها لها. ما إن بدأت بالبحث عنها حتى سمعت صوت إيمو ينادي عاليًا:

- آدم.. مايا.. تعالا لتريا شيئًا عجيبًا.

شعرت بالقلق وأنا أقوم برفقة مايا لنلحق بالصوت متخذين تردداته مرشدًا لنا. فأنا بعد حادثة هجوم الوحش أصبحت أعاني من حساسية سماع اسمي ينادى عليه من بعيد. ركضنا متجهين نحو إيمو الذي كان يعتلي أطول تلة مجاورة للشلال العالي. اعتقدت أن العم ألبيرت سيخرج من سبات تأمله ويلحق بنا لكنه يبدو غير مبالٍ طالما أن النداء ليس نداء خطر. صعدنا بشق الأنفس وسط الغابة وصولًا إلى التلة العالية. بدا إيمو متحمسًا بينما جلس سيزار على جذع شجرة يحمل بين يديه التوت البري الأسود:

- انظر يا آدم ماذا وجدت في الأسفل.

أشار لي إيمو بيده كي أرى من المرتفع ما وجده. وقفت على بعد خطوة واحدة من حافة التلة التي تطل على الشلال. شعرت بالدوار حتى جثوت على ركبتي كي أحافظ على توازني محاولًا رؤية شيء غريب. لكن الصوت سبق الصورة هذه المرة. كان صوت طائر صغير يصرخ دون توقف. حاولت تتبع الصوت بعينيّ فإذا بإيمو يرشدني إلى جذع شجرة معلق في أسفل التلة يوجد عليه صغير شبيه بصوص طائر اللقلاق الذي يسكن جزيرتنا. كان يبدو مرتعبًا يرتجف من البرد بجلده الزهري الخالي تمامًا من الريش. شعرت بعاطفة شديدة نحوه وحن قلبي عليه لأدير وجهي نحو إيمو الذي ما إن لمح نظرتي المعروفة حتى قال:

- لا.. إياك أن تفكر حتى في ذلك.

وجهَ إيمو نظرات استغاثة نحو مايا التي عقدت ساعديها قائلة:

- معه حق يا آدم. هذا الصوص موجود في منطقة خطرة يستحيل الوصول إليها.

عاودت النظر إليه ومراقبة أدق تفاصيل المكان الموجود فيه ثم قمت ونفضت الغبار عن ركبتيّ قائلًا:

- لا يمكن أن نتركه هنا، سيموت جوعًا أو يتناوله أحد وحوش الليل.

- هذه هي قوانين الغابة لا يمكن أن نغيرها، القوي يأكل الضعيف.

تدخل سيزار أخيرًا وفمه مملوء بالتوت قائلًا:

- لا داعي لمحاولة إقناعه يا شباب، أنتم تعرفون آدم جيدًا.

وضع إيمو يده على جبينه قائلًا:

- حقًا ندمت على مناداتك. اعتقدتُ أنك ستجد ذلك مثيرًا للاهتمام لا أن تنتحر.

توقفتُ لثوانٍ وأنا أفكر في طريقة لتطبيق خطة إنقاذ الصوص قبل فوات الأوان. قام عقلي بنسج خيوط الخطة التي بدت معقولة لي لكنها انتحارية بالنسبة لأصدقائي بعد سماعها. صرخت مايا قائلة:

- تربط حبلًا بين الشجرة وخصرك ثم تنزل إليه؟ هل جننت؟ في الأسفل يوجد صخر قاسٍ إن انقطع الحبل وسقطت عليه ستموت لا محالة..

- لن يقع أي شيء من ذلك. سنربط الحبل جيدًا وأنتم ستمسكون بطرفه العلوي كاحتياط. أما أنا فعندما أمسك بالصوص لن أصعد إليكم بل سأنزل إلى النهر كي لا نضغط بأوزاننا على الحبل.

رغم عدم اقتناعهم بالأمر فإن الاستلام لعنادي كان الحل الوحيد أمامهم، فمن المعروف أنني كنت لأطبق خطتي حتى إن لم يوافقوا على مساعدتي وهذا ما سيعرضني لخطر إضافي حتمًا. في خضم ذلك لم أعرف لمَ شعرت بحاجة كبيرة لإنقاذ ذلك الصوص مهما كلفني الأمر. رغم ارتعابي من فكرة الموت فإن الأمر بدا لي كأنني أحاول تعويض قتلي لذلك الحارس بإنقاذ روح طير أمام القدير. أعلم أن روح البشر لن تتساوى مع الحيوان لكن

على الأقل سأكون قد قمت بعمل حسن أستطيع اللجوء إليه في تلك الأوقات المظلمة التي أختلي فيها مع نفسي وأتذكر كم أنني شخص سيئ. سيخطر على بالي حينها أنني لست بذلك السوء الذي أظنه.

كان الحبل الذي أحضره العم ألبيرت في الحقيبة التي حملتها مايا متينًا وطويلًا لدرجة كافية من أجل استعماله للمسافات الطويلة. عقدت مايا حول خصري الحبل عدة مرات وهي تتأكد بعد كل مرة من متانته وتردد في نفسها «هذا جنون». حان وقت أن يتم ربط الطرف الآخر من الحبل حول جذع شجرة قريبة من المنحدر، تكفل به إيمو بينما كل ما قام به سيزار هو التذمر من شدة عنادي حول فكرة اعتبرها انتحارًا.

حانت لحظة الحقيقة، حين نزلتُ من المنحدر كأنني أتسلق جبلًا بشكل عكسي وببطء شديد وأنا أتحسس بيديّ وقدميّ كل الثغرات لأمسك بها وأحولها لمثبت لوزني قبل النزول أكثر. بدأت أشعر بالدوار في كل مرة أقوم بأخذ نظرة خاطفة نحو الأسفل فلا أرى سوى الصخور والمياه الجارية بقوة. فكان صوت زقزقة العصافير وخرير المياه مشتتًا قويًا لانتباهي لكنني حاولت جاهدًا أن أركز كي لا أقذف بنفسي للموت.

كان كل شيء على ما يرام وأنا أنزل بحذر نحو الصوص الذي لم يتوقف عن الصراخ كأنه يناديني كي أنقذه. فما لبثت أن أضع يدي على حجر يتخلل المنحدر كي أحدد وضعيتي لخطوتي التالية، حتى شعرت بشيء غريب يتحرك عليها. رفعت رأسي كي أتحقق إن كانت مجرد أوهام تصورها لي مخاوفي، فإذا بي أرى حشرة سوداء كبيرة بحجم الكف تستشعر يدي بقرون صغيرة مستعدة للسع جلدي.

في ردة فعل لا إرادية، سحبت يدي اليمنى ونفضتها حتى سقطت الحشرة إلى الأسفل. لكن جسدي لم يكن يعمل لصالحي، فقد انتفض من شدة الرعب حتى فقدت التوازن ولم أعد قادرًا على التمسك بأي شيء. كل ما شعرت به

هو قوة الريح الذي يصفع خديّ وأنا أسقط باتجاه الصخور ودقات قلبي التي اخترقت أذنيّ من شدة قوتها، صراخ مايا وإيمو في الأعلى وصوت الصوص.

توقفتُ فجأة على بعد مسافة قصيرة جدًا من الصخور. رفعت عينيّ إلى الأعلى غير مصدق أنني نجوت من موت محتوم. تعاون كل من مايا وإيمو وسيزار وأمسكوا بالحبل ثم أعادوه إلى الخلف حتى أوقفوا سقوطي السريع. جميعنا لم ننتبه لتفصيل صغير أثناء الاستعداد لهذه المهمة الانتحارية، لقد كان الحبل أطول بكثير من المسافة نحو الصوص الذي لا يتعدى مكانه منتصف المنحدر. لذا ما كان لينفعني بأي شيء. تذكرت في هذه اللحظة ما كنت أفعله في الجزيرة عندما كنت طفلًا. تعودت أن أستخدم الحبل الذي أسرقه من البيت وأربط طرفًا مع الشجرة وطرفًا حول خصري، ثم أنزِل دون الإمساك بأي شي نحو المنحدر الذي يوجد فيه الفطر الأحمر المرقع بالأبيض كي أبيعه في السوق وما أربحه من مال أبني به كوخي الصغير وأجهزه بكل ما أحتاجه. وفي حال ما إذا كان الحبل أطول مما أحتاجه، أقوم بالالتفاف عدة مرات حول نفسي حتى أنقص من طوله ثم أعود لإكمال مهمتي. لقد كنت أسمي هذه الحركة بـ «الشرنقة».

من ظن أن حركة طفولية قمت بها منذ سنوات ستخطر على بالي في هذا الموقف. أشرتُ بيدي لأصدقائي كي أعلمهم أنني بخير، ثم أمسكت باليد اليسرى جزءًا من الحبل بينما ثبتُ قدميّ على المنحدر فصرت أظهر لهم وكأنني أقف على أرض صلبة بشكل معاكس قادم نحوهم. عدت إلى الخلف مبتعدًا عن المنحدر حتى صرت معلقًا كريشة وسط الرياح وبدأت بالدوران حول نفسي بينما أعود بعد كل دورة إلى المنحدر واضعًا قدمي عليه ثم أكرر الدورة التالية حتى التفتّ عدة طبقات من الحبل حولي جعلتني أرتفع إلى الأعلى تلقائيًا ثم قلت بصوت عالٍ:

- حسنًا يا شباب أفلتوا الحبل الآن..

أجابتني مايا:

- هل أنت متأكد؟.

- نعم لا تقلقي.

بعد تردد أطلقوا الحبل فصرت قادرًا أخيرًا على التحكم في كل شيء. صعدتُ بضع خطوات ثم بدأت بالاقتراب من الصوص الذي ما إن شعر بوجودي حتى توقف عن الصراخ. مع الضغط الذي تولده الحبال الملتفة حول خصري بدأت أشعر بألم في أسفل ظهري، حاولتُ جاهدًا مد يدي نحوه لأمسكه. لكن سرعان ما انقسم الغصن الذي كان يتخذه ملجأ وهوى نحو الهاوية. بسرعة كبيرة وفي جزء من الثانية أمسكتُ به فشعرت بحرارة كبيرة في جسده العاري من الريش. وضعته داخل قميصي فإذا بحرارة جسده تطبع بصمتها على صدري. مسكت الحبل بقوة وبدأت بالالتفاف مرة أخرى نزولًا ببطء حتى وصلت إلى النهر الذي اقتحمت مياهه ساقيّ. بللتُ يدي بالماء البارد ومررتها على جسد الصوص كي ينتعش وتنخفض الحمى التي يعاني منها.

وصلتُ أخيرًا إلى اليابسة حيث وجدتُ العم ألبيرت لا يزال متأملًا يقوم بصلواته التي لا تنتهي دون أن يشعر بأي شيء مما حصل. أخرجتُ الصوص من قميصي ووضعته قرب النار التي أشعلناها سابقًا، سرعان ما لحق بي الآخرون. قالت مايا وهي تجلس بالقرب مني:

- أنت متهور، كدت أن تقتلني من شدة الرعب قبل أن تموت.

ابتسمت مجيبًا:

- لكن ذلك كان يستحق العناء أليس كذلك؟.

تجمعنا حول الصوص الذي رغم حرارته المرتفعة، كان لا يزال يرتجف من البرد. عيناه مغمضتان وجلده زهري اللون بينما عنقه بلون برتقالي فاتح جدًا. منقاره الصغير يطلق صيحات صغيرة لا يمكن أن تعني سوى شيء واحد.. الجوع.

- لا بد أنه يتضور جوعًا.

لمس إيمو عنقه قائلًا:

- نحن لا نعرف حتى ما هي فصيلته. كيف لنا أن نحدد ما يتناوله؟.

تدخل سيزار:

- أراهن على أنه نسر أو صقر.

أخرجَت مايا قطعة خبز من الحقيبة ثم بللتها بالقليل من المياه ووضعتها أمام منقار الصوص الذي بدوره لم يقم بأي ردة فعل توحي على أنه يتقبل هذا النوع من الطعام. جلستُ حائرًا وأنا أفكر بطريقة لإطعامه. لا بد أن الكتب التي قرأتها في الجزيرة قد ذكرت شيئًا ما بخصوص هذا الموضوع. فجأة، تذكرت كلمة «مضغة». تلك الكلمة الغامضة التي سمعتها للمرة الأولى أثناء درس في المعبد، عندما قال معلمنا وهو يقرأ إحدى صفحات الكتاب المقدس في الفصل الخامس:

- كالمضغة خطاياك أيها الإنسان، ما إن تطرحها حتى تُفتح أمامك أبواب الجنة. وإن ابتلعتَها حفرتَ طريقك نحو الهاوية. لكن أبواب التوبة مفتوحة في وجهك حتى يحين يوم الانعتاق.

شعرت بفوار من السعادة بعد أن ربطتُ الكلمة مع ما قرأته في كتاب الحياة البرية، حين وصلتُ لفقرة تتحدث عن تربية الطيور لفراخها. حيث تقوم الأم بمضغ الطعام ورميه في أفواههم خلال أولى أيامهم على الأرض حتى يصبحوا قادرين على المضغ بأنفسهم.

حملت قطعة الخبز ومضغتها لثوانٍ ثم جعلتها قريبة من منقار الصوص الفتي الذي ما إن شعر بها حتى فتح فمه مطلقًا نداءاته فوضعتُ المضغة بداخله فابتلعها طالبًا للمزيد. رفعت عينيّ لأجد الجميع ينظرون إليّ بوجوه مستغربة لما فعلته للتو. لم يستطع سيزار كتم فضوله قائلًا:

- من أين تعلمت هذا؟.

- في الوقت الذي قضيته في المكتبة بينما نعَتني بغريب الأطوار المهووس بالكتب.

احمر وجه سيزار خجلًا فغادر مشيرًا لإيمو كي يجمعا بعض الفواكه قبل رحيلنا. بينما أتممت مهمة إطعام الصوص وساعدتني مايا في تقطيع الخبز لقطع صغيرة. بعد صمت طويل قالت:

- عرفتك لثماني عشرة سنة، اعتقدت خلالها أنني أعرف كل شيء عنك، لكنك اليوم أثبت لي العكس.

ابتسمتُ وأنا أربتُ بأصابعي على رأس الصوص ثم أجبت:

- حتى أنا لم أعرف نفسي كما عرفتها اليوم.

- لماذا تصر على العناية بهذا الصوص رغم أن الأمر ليس بهذه الضرورة؟.

مرت في عقلي مئات الأجوبة لكنها كانت لا تستحق المخاطرة. هل أخبرها أنني لا أعرف إجابة محددة لسؤالها؟ لا أدري ما الذي يربطني بهذا المخلوق المسكين؟ هل أخبرها أنني قاتل يبحث عن المغفرة في هذا الصوص البريء؟ هل ستفهم أنني أبحث عن فرصة ثانية مع القدير؟ أو تتهمني أنني كمن يحاول ترقيع ثقب هائل بخيوط رفيعة؟ لم الحقيقة بهذه الصعوبة؟ هذا هو السؤال الذي أعرف إجابته. لأن تلك النظرة التي تنتجها عيناها في هذه اللحظة..

نظرة الفخر بي، انعكاس لصورة جميلة أبحث عنها لنفسي كي أصلح الشرخ بداخلي. لا أريد خسارتها. بمجرد إخبارها بمن أكون.. سأخسر ما أحب أن أكون في عينيها. إنها تراني بطلًا، متهور أحيانًا، لكن على حق، وأبعد كل البعد عن إراقة الدماء.

نظرتُ إلى الطائر الصغير الذي اتخذ من كف يدي بعد أن امتلأ بطنه وسادة لينام عليها، وتساءلت مجددًا، هل هو محظوظ أنني أنقذت حياته اليوم؟ أم أنه من أتعس مخلوقات الأرض لأنني اخترته كي أمارس عليه أنانيتي؟ تلك الأنانية الصاخبة بداخلي المتعطشة لأي شيء جميل أقوم به كي أعيد الاعتبار ولو مؤقتًا لآدم المجروح. هل يا ترى عندما تعود لي تلك الرغبة الجائعة للقتل سيكون هذا الصوص ضحيتي التالية؟ وحده القدير يعلم الإجابة.

- لأنني أعرف شعور أن تكون في مأزق وتتمنى أن يمد لك أحد يد العون ويضحي من أجلك.

كانت هذه الإجابة هي الوحيدة الكافية لإقناع مايا أن لا شيء مريب حول فكرة تضحيتي بحياتي في سبيل هذا المخلوق. إجابة أعتبرها جزءًا من الحقيقة. فأنا منذ سنوات طويلة أتمنى أن تأتي يد من اللامكان أو اللازَمان وتنتشلني من الجحيم الداخلي الذي أعيشه.

لم تجبني، لم تسألني، لم تحاول أن تفهمني. هذا ما أريده بالضبط الآن. هي تعلم أنني عندما أشعر بالرغبة في الحديث، سألجأ إليها وأخبرها دون نقاش. تأملتِ الصوص قائلة:

- ماذا لو كانت والدته تبحث عنه؟.

- لو كانت هنا لقدمت لمساعدته. لا أستطيع أن أخاطر بتركه في هذا المكان.

- معك حق. هل سنأخذه معنا؟.

- نعم. سأحرص على العناية به ريثما يتماسك ويصبح قادرًا على الطيران ثم أطلق سراحه.

ضحكت مايا مطولًا حتى أشعرتني بفضول كبير لمعرفة سر هذه الضحكة فسألتها:

- ما المضحك في الأمر؟.

نظرت إليّ وهي تمسح عينيها من الدموع الناتجة عن الضحك مجيبة:

- أنت دائمًا تمثل أمام الآخرين أنك بارد القلب والمشاعر. لكنك في الواقع شخص رقيق جدًا وأشعر كثيرًا أنك تفضل الحيوانات عن البشر. انظر إلى نفسك الآن، أنت بمثابة أم لهذا الصوص الصغير.

بادلت ضحكتها بابتسامة خفيفة. علمت أنها كانت على حق. الحيوانات بالنسبة لي أفضل بكثير من البشر. بريئة مهما زاد توحشها، ردات فعلها مبررة مهما كانت غير متوقعة. إنها لا تخون كالآخرين. لا تنظر إليك بعيون تملأها الكراهية والتشكيك. لا تحاسبك، لا تصنفك، لا تشعرك أنك ناقص أمامها. إنها عكس كل شيء سلبي في البشر، فهي الوحيدة التي لا تشعرني أنني مشوه خِلقيًا.

وصل إيمو وسيزار وهما محملان بالفواكه بين طيات قميصيهما. شعرت بمجرد النظر إلى وجه إيمو أنه قد تشاجر للتو مع سيزار.. لا بد أن سيزار ذكره بما يتمنى أن ينساه، وكرر نفس القصة على مسامعه. لم أرد أن أشعل فتيل نار شجار مجددًا بمحاولتي الصلح بينهما. لذا انشغلت مع الصوص بينما قامت مايا لتساعدهما في غسل الموز والتفاح بمياه النهر. ما هي إلا ثوانٍ حتى لمحنا سهمًا ينتقل مباشرة إلى النهر. فإذا بالعم ألبيرت حاملًا قوسه يركض وسط المياه ويحمل بين يده السهم الذي انغرس في جسد سمكة

كبيرة باللون البني تتخللها خطوط زرقاء. كرر العملية مرتين تحت أعيننا المندهشة من براعة تصويبه حتى اصطاد ثلاث سمكات من الحجم الكبير تحت تصفيقات الجميع. اقترب منا قائلًا:

- هيا لنشوي هذه الأسماك ونملأ بطوننا. سنرحل مباشرة بعد انتهاء الوجبة قبل غروب الشمس.

تكفلت مايا بمهمة شواء السمك الذي ثبتته بمساعدة إيمو وسط غصن ثم دهنته بما تبقى من جبن الجزيرة. انتظرتُ أن يقول العم ألبيرت شيئًا حول الصوص النائم، لكنه لم يكلف نفسه حتى عناء النظر إليه.. لكن سيزار كعادته، سيثرثر مجددًا:

- ما رأيك أيها العم بهذا المخلوق الذي كاد أن يموت آدم في سبيل إنقاذه؟.

أخيرًا أدار العم ألبيرت وجهه نحو الصوص ورمقه بنظرة خاطفة ثم رسم على شفتيه ابتسامة غامضة قائلًا:

- جميل.

جميل؟ لم تكن هذه الإجابة المنتظرة منه. اعتقدت أنه سيوبخني على ما فعلته، أو على الأقل سيقترب لتفحص الصوص ومساعدتي في تحديد جنسه ونوعه. لم يكن هذا نفس الشخص الذي علمني في مكتبة الجزيرة. الشخص الذي كان يحاورني طوال الوقت، ولا يسمح لي بأن أصمت لأكثر من دقيقة. كان يسألني دائمًا عما يدور في خلدي، ينتقدني إن أخطأت، ويعلمني كيف أصلح خطئي. لكن الآن بات بيننا حائط كبير يمنع كلًا منا من التواصل مع الآخر. لُمت نفسي لأنني كنت السبب في ذلك. أنا من هدده بتلك الورقة الغامضة كي يرافقنا. لكن لم يكن أمامي خيار آخر. وهو بدوره أخفى عنا الكثير. بل أظهر لنا طوال تلك السنوات أنه شخص مختلف تمامًا. لذا نحن

الآن متعادلان. لا يمكن له أن يلومني على ما فعلتُه كي لا أذكِره بما أخفاه عني في الماضي. لذا لن أبادر بتحطيم ذلك الجدار الفاصل بيننا. سأتركه حتى ينهار تلقائيًا عندما تعصف به رياح الحقيقة.

التهمنا الوجبة اللذيذة كأننا لم نتناول السمك من قبل طوال حياتنا. سمك الأنهار مختلف كليًا عن سمك البحار. ومما زاده لذة ذوبان الجبن من فوقه حتى صار شبيهًا بفطيرة جدتي المصنوعة من الفطر والجبن والقرع. كانت مايا الوحيدة بعد جدتي وأمي التي تتقن فن الطبخ. لم تنس أن تفتح الأسماك وتغسلها جيدًا ثم ترمي أحشاءها وأشواكها وتقطع رأسها قبل أن تشويها احترامًا لتعاليم ديننا الذي يمنع أن نتناول السمك دون القيام بهذه الطقوس مهما كانت الظروف. تناولنا بعد ذلك التفاح والموز حتى شعرنا بامتلاء تام في بطوننا.

بدأ وهج الشمس يخف في السماء معلنًا أن غروبها بات وشيكًا. قمنا ونحن نجمع حاجاتنا فإذا بسيزار يقول لي بصوت منخفض:

- سأشتاق حقًا إلى هذا المكان. لا أريد مغادرته.

- لقد سمعتَ العم ألبيرت يقول أنه يتحول إلى وكر للوحوش في الليل.

- وهل علينا تصديق كل ما يقول العجوز؟ نحن لا نعرف حتى إن كان ألبيرت هو اسمه الحقيقي.

تجاهلت وساوس سيزار التي قد تكون محقة هذه المرة. لكنني لست مستعدًا للحيرة مجددًا والتفكير الزائد ونحن على وشك بدء جزء مجهول من رحلتنا نحو أرض الأحاديين. مزقتُ الجزء السفلي من قميصي الذي يصل طوله إلى ركبتي، ثم لففته حول صدري تاركًا مساحة صغيرة في المنتصف. حملت الصوص النائم بكل أمان ووضعته وسطها كي تكون مراقبته أثناء السير سهلة عليّ.

سرنا نحو المدخل المظلم الذي أوصلنا إلى هذه الجنة المخفية الشبيهة بالأحلام. كنا نشعر بالحسرة ونحن نودع أجمل مكان رأته أعيننا من قبل. لكن الرحلة يجب أن تستمر. وصلنا أخيرًا إلى العالم الخارجي الذي نسيناه وسط هذه الغابة. الرياح عاتية والرمال تتطاير حتى صار الضباب يملأ كل زاوية من الأرض القاحلة. شكرنا القدير على أن الشمس ستغرب كي لا نضطر إلى السير تحت أشعتها الحارقة وتزيد الرياح من الأمر سوءًا. وسرنا نحو وجهتنا المجهولة نسبيًا.. أرض الأحاديين.

كانت الطريق وعرة جدًا. الغبار المتطاير يتداخل في عيوننا مرارًا وتكرارًا حتى صرنا عاجزين عن معرفة الاتجاه الذي يقودنا فيه العم ألبيرت. في هذه المرحلة من الرحلة، تمكن التعب من أجسادنا ونفوسنا. فصرنا غير قلقين حول المكان الذي سنذهب إليه طالما أننا سنجلس ونرتاح فيه. كنت أشعر بالرعب عندما اختفت أضواء السماء وصار الليل ملك المكان. فلم يكن أمامنا خيار سوى التمسك بما ينعمه علينا القمر والنجوم من حوله من ضوء خافت يشردنا نحو الطريق المجهولة. طوال الوقت كنت مستعدًا لأن يخرج وسط الظلام مخلوق متوحش وينهش أجسادنا دون حتى أن نتعرف عليه.

تأملت الجميع من حولي. صامتون، يائسون. كل منهم غارق وسط هيجان أفكاره ومخاوفه. حتى سيزار الذي توقعت منه أن يتذمر ويشتم خلسة العم ألبيرت كعادته، كان يحمل حقيبته وثوب حول رأسه يحميه من الرمال المتطايرة دون أن يشعرنا حتى بوجوده. شعرت بمسؤولية كبيرة في هذه اللحظة. وكلفت نفسي بمهمة كسر حاجز الصمت الذي لا يساعد أبدًا في تخطي مواقف صعبة مثل هذه. فما كان أمامي سوى أن أسأل العم ألبيرت:

- كم تبقى لنا من الطريق؟.

دون أن يكلف نفسه عناء التوقف أجابني وهو يركز في طريقه:

- أوشكنا على الوصول..

أشعَرتني إجابته براحة نسبية طمأنتني أن هذه المغامرة المجهولة شارفت على الانتهاء. سرعان ما تبخرت المشاعر الإيجابية وحلت محلها المخاوف والشكوك. فأنا إلى الآن لا أعرف سوى القليل عن الأحاديين، ولا أعرف كيف سيستقبلوننا. تذكرت في خضم ذلك ما كنت أفعله كل ليلة في مثل هذا التوقيت في الجزيرة: أدخل البيت لأجد جدتي تقوم بحياكة الملابس في كرسيها الخشبي بجانب المدفأة في الأيام الباردة تستقبلني بتلك الابتسامة المشرقة. آه كم اشتقت إليها. حاولت جاهدًا عدم التفكير بالمنزل والجزيرة والأحباء، فذلك يشعرني أنني ما زلت طفلًا صغيرًا متعطشًا لحضن دافئ واستقرار عائلي. لم أظن يومًا أن خروجي من الجزيرة الذي كنت أنتظره بفارغ الصبر، ليس بنفس الروعة التي تخيلتها. الحقيقة سَحقت تلك الأحلام الوردية عن عالم ما بعد البحر المحيط بجزيرة النور. لا جنة هنا، لا أمان هنا، ولا وجود لبشر إلى الآن. كل ما تخيلته في السابق لا يوجد أبدًا ولا أعتقد أنني سأجده.

- لقد وصلنا.

سمعت صوت العم ألبيرت وهو يتوقف أخيرًا ويشير بيده نحو أرض تبعد بضعة أميال عنا. نفس الأرض التي لمحتها من بعيد عندما خرجت في رحلة الصيد. بدت لي الأضواء والبيوت غير الواضحة أقرب من أي وقت مضى. نعم لقد وصلنا أخيرًا، ودقات قلبي المتسارعة لم تتقبل الأمر بنفس السرعة التي تقبل بها عقلي حقيقة أننا على بعد خطوات من أرض الأحاديين.

مشينا في خط مستقيم وسط الظلام حتى شعرنا بأن الرياح تخف بعد كل خطوة نخطوها نحو الأرض. تأملتُ الصوص على صدري لأجده غارقًا في نومه. المسكين لا بد أنه متعب جدًا بعد وقت طويل من الصراخ فوق ذلك

الغصن منتظرًا النجدة. شعرت بالحسد لكونه في عالم آخر لا يشعر بما نحن على وشك الدخول فيه.

فجأة سقطت مايا على ركبتها. توقفنا وقمت بحملها ونحن نتفقد وسط الظلام سبب تعثرها. أخرجَ إيمو عود كبريت وأشعله لنرى حبلًا بني اللون يمتد إلى ما لا نهاية بارتفاع طفيف عن مستوى الأرض. لم تمر ثانية واحدة حتى وجهت نحو وجوهنا أضواء قوية حجبت الرؤية عنا، وسمعنا أصوات خطوات لأشخاص يقتربون منا وصوتًا غريبًا شبيهًا بالبوق يرتفع عاليًا. لم أفهم ما يحصل من حولي. فما كان أمامي سوى الركض برفقة أصدقائي إلى الأمام ونحن نقاتل لنرى وسط الضوء القوي خطواتنا. شعرت فجأة بشبكة تُلقى حولي وتجرني بقوة نحو الأرض لمسافة متوسطة. فتحتُ عينيّ أخيرًا بعد أن وضحت الرؤية، فوجدت أمامي أشخاصًا يوجهون أسلحة نحو وجوهنا مرتدين لباسًا جلديًا وأقنعة سوداء لا تُظهر من وجوههم شيئًا. في هذه اللحظة جهزت نفسي للموت، أغلقت عينيّ وتلوت صلاتي الأخيرة في نفسي. لأسمع صوت أحد الرجال المسلحين يقول:

– من أنتم؟ لم جئتم إلى هنا؟.

أجابهم العم ألبيرت:

– جئنا في سلام من جزيرة النور. أنا لست غريبًا عن هذا المكان.

– ما اسمك؟.

صمت العم ألبيرت لثوانٍ وقال:

– القائد السابق لفرقة المارقين رقم ١٥، دانييل جيبرو.

فور سماع الرجال الملثمين لاسم العم ألبيرت تراجعت أسلحتهم عن رؤوسنا وبدؤوا بسحب الشباك الملتفة حولنا جميعًا. قمت وأنا غير مصدق

أنني نجوت من الموت الوشيك مرة أخرى. لكن صدمتي بما سمعته للتو من العم ألبيرت جعلتني أنسى صدمة الاقتراب من الموت. شعرت بفضول كبير لمعرفة من يكون دانييل ومن هم المارقون الذين تحدث عنهم. لا يفشل هذا الرجل بمفاجأتي في الفترة الأخيرة. صدمة تلو الأخرى، كذبة تلو الأخرى، ولغز يجر الآخر. إنها سلسلة مفاجآت لا يبدو أنها ستنتهي قريبًا.

أشار لنا واحد من الملثمين باللحاق به تحت تلك الأضواء القوية الموجهة نحونا. بدأ كل منا بالاطمئنان على الآخر. فتذكرتُ أمر الصوص، قمتُ بنظرة خاطفة لأتحقق إن كان بخير فوجدته لا يزال يغط في نوم عميق. لم أظن يومًا أن صغار الطيور لها نوم ثقيل يجعلها لا تشعر بأي شيء يحصل من حولها لهذه الدرجة. أما عن العم ألبيرت، فلم أستطع التحكم في تعابير وجهي التي جعلتني أوجه نحوه نظرة غضب كبيرة جعلته يومئ لي برأسه معبرًا أنه سيشرح لي لاحقًا.

سرنا معًا ونحن نلحق بالملثمين حتى وصلنا إلى الباب الحديدي الهائل الحجم والذي فُتح أمامنا لنجد خلفه عالمًا آخر لم نر له مثيلًا، أرض تختلف كليًا عن جزيرتنا، وأشخاص لا يشبهوننا في شيء. كل شيء غريب في هذا المكان. حتى التربة والرائحة والمناخ. وكأنه منفصل عن الكوكب الذي نعيش فيه. سرنا وسط جموع الناس الذين أحاطوا بنا يراقبون أدق تفاصيلنا. لكنهم ليسوا الوحيدين المنبهرين بنا، بل نحن أيضًا غير مصدقين لما نراه. كانت أشكالهم مخيفة. أجسادهم مغطاة بوشوم وصلت عند البعض إلى الوجه، لباس أسود جلدي وتسريحات شعر غريبة ومستفزة. الجميع هنا يحلقون نصف رؤوسهم ويتركون الآخر، والبعض ترتفع خصلاته إلى الأعلى كأنها أشواك قنفذ بري. فيعجز الناظر عن التفريق بين النساء والرجال، الجميع متشابه ومختلف في آن واحد. العضلات المفتولة تغزو المكان والقطع الحديدية

المعلقة حول أجسادهم تلمع تحت الأضواء المرتفعة في الأعلى والمعلقة وسط أعمدة غريبة الشكل متفرقة حول المكان بأكمله.

أشكالهم المخيفة جعلتني أشعر بالخوف والقرف في آن واحد. بدوا لي وكأن الحضارة لم تصل إليهم فصاروا متوحشين متسخين بأشكال شيطانية. كيف استطاعوا تشويه خلق القدير واللعب بأجسادهم حتى صاروا كالمسوخ وأسوأ من المشوهين خِلقيًا؟ شعرت لوهلة أن جزيرتنا وسكانها ودينا القاسي بالنسبة لي، أرحم وأَرقى بكثير من مكان لا يحكمه دين وتترك فيه العصمة في يد البشر. لم أظن في حياتي أن الدين والقوانين مهمة لهذه الدرجة، وكم نحن مخلوقات فوضوية لا تعرف العيش في نظام عندما لا نؤمن بشيء. هل حقًا الفراغ من الشعور بالقدير والإيمان به يحول الإنسان إلى كائن خارج عن السيطرة متوحش ترقى الحيوانات أمامه؟ هذا المكان كان الإجابة المثالية عن سؤال لم يسبق لي طرحه. إنها المرة الأولى التي أشعر فيها أن دين الهلييث محق في شأنهم، وأن كل شيء قاله القدير عنهم في الكتاب حقيقي. عندما وصفهم بأنهم عبدة الشيطان خارجون عن طاعة القدير وأن رفضهم للدخول في الدين جعل السماء تلعنهم وتحولهم إلى مخلوقات مثيرة للاشمئزاز. لقد كان القدير محقًا عندما أوصانا أن نبقى بعيدين عنهم كي لا تدنس طهارتنا النورانية. لكن لسخرية القدر، ها نحن نلجأ إليهم للمساعدة والهرب من جحيم لآخر. أعترف أنني شعرت بالضياع. فنحن هاربون من مكان يحكمه دين أوصانا أن نظل بعيدين عن الناس الذين نلجأ إليهم. فلمَ إذن جماعة الأيادي البيضاء، التي من المفترض أن تكون أطهر ما على وجه الأرض، تفعل ما رأيته؟ من الكاذب ومن المحق؟ لا أعرف..

بعد أن خف ضغط الجماهير المجتمعة من حولنا استطعنا أخيرًا معرفة ما تحمله هذه الأرض من منازل. وهنا كانت الصدمة. لم أر في حياتي أفضل من هذه التصاميم والبنايات الرائعة والغريبة في آن واحد. كانت البيوت بطبقات

تلي الأخرى مرتفعة نحو السماء عكس بيوتنا الصغيرة التي لا يتعدى ارتفاعها بضعة أمتار وتقف كل منها بعيدة عن الأخرى. لمحنا أطفالاً ينزلون في جسم غريب شبيه بخندق يمتد من مخرج بيت في طابق علوي إلى الأرض، فينزلقون فيه وهم يصرخون ويضحكون. بينما يرقص البعض في مكان ويركض البعض الآخر حاملين قنينات خمر قربهم تحت أصوات موسيقى مرتفعة. ففهمت أننا وصلنا في وقت احتفال لم يجعلهم يتكبدون عناء إيقافه للتعرف علينا.

ألقيتُ نظرة خاطفة على أصدقائي فوجدت الجميع بأفواه مفتوحة وعيون تراقب أدق تفاصيل هذا العالم الخيالي. خصوصًا عندما وصلنا أمام مبنى طويل جدًا وضخم ينافس جمال البرج في جزيرتنا. كان محاطًا بالزجاج العاكس للضوء، رغم ظلمة الليل فإن ذلك لم يمنعه من البزوغ كشمس تشق طريقها وسط ظلام الليل. مهما تحدثتُ ومهما وصفت لن أعطي لهذا المكان حقه. معظم ما أراه لا أعرف تسميته. أشياء غريبة وأجسام كبيرة متفرقة في هذا المكان الذي رغم جمال معالمه، فإنه يفتقر جدًا للنظام والنظافة.

كانت العيون المحيطة بنا تشعرني بالاختناق. فصرت أتمنى لو كنت أملك فرصة للهرب من هذا المكان الغريب. لكن لا مجال لفعل ذلك وأنا بمثابة نقطة وسط بحر مجهول. توقفنا بعد أن توقف الملثمون بينما تقدم أحدهم ودخل وسط المبنى الزجاجي. انتظرنا في صمت ونحن نسرق نظرات بين الحين والآخر للناس من حولنا. لم يطل الانتظار كثيرًا حتى خرج شاب وأشار بيده كي نلحق به. فُتح باب المبنى الكبير فإذا بنا نجد مكانًا ليس بنفس روعة الخارج. كانت الألوان قاتمة رغم الإضاءة القوية في الحائط العالي. عدة أشخاص يتحركون ذهابًا وإيابًا يبدون أكثر تحضرًا من الناس في الخارج. بدت الأوشام أقل على أجسادهم ولباسهم أرقى من الآخرين. لفت انتباهي مصعد كبير نحو الطوابق العليا شبيه جدًا بمصعد برج الجزيرة، والأرضية الرمادية العادية التي لا تليق أبدًا بمبنى جميل من الخارج.

فجأة لمحنا شخصًا ينزل من المصعد برفقة رجلين. اعتقدت لوهلة أنه فعلًا رجل. لكن ما إن اقتربَتْ من الضوء حتى علمت أنها امرأة. لم أر في حياتي امرأة بهذا الشكل من قبل. كان رأسها الأصلع لامعًا جدًا تحت الضوء بينما بدت على وجهها علامات القوة والشموخ، رغم أنها قد تكون على مشارف الخمسين ربما، فإنها تبدو قوية البنية بجسد نحيل مرتدية لباسًا جلديًا وحذاءً من نفس النوع بكعب عالٍ يصل إلى منتصف ساقها بينما بدت يداها المفتولتان مليئتين بالوشوم. ما إن وصلت عيناي للتركيز على وجهها حتى أقلقتني نظرة عينيها الخضراوين اللتين يحيط بهما الكحل مما زاد من شخصيتها القوية بروزًا وتلك الحلقة الفضية المخترِقة لأنفها والوشم الذي يمتد من ذراعها وصولًا إلى أعلى عنقها. تقدمتْ وصوت كعب حذائها يسبقها بكل ثقة ثم ابتسمت وهي توجه نظراتها القوية نحو العم ألبيرت:

- كان عليّ التأكد بنفسي من حضورك لأصدق ما سمعتُه يا جيبرو.

بدا العم ألبيرت متفاجئًا وهو يتفحصها لثوانٍ ثم قال:

- إيفا؟ هل أصبحت قائدة الأحاديين؟.

هذه المرة لم تبتسم. بل ردت بنبرة صوت باردة:

- تقصد «الكونتيسا إيفا». هذا اسمي الجديد. ونعم صرت القائدة بعد والدي.

- ماذا حصل لماركوس؟.

- توفي.

صمتَ العم ألبيرت فصار وجهه يحمل علامات الصدمة لسماع هذا الخبر الجديد. لم يرُد أو يستفسر، وهذا ما أشعل في عقلي نيران الفضول لمعرفة ما يجمعه بها. وضعت الكونتيسا إيفا يديها خلف ظهرها وتفحصت

وجوهنا الواحد تلو الآخر وهي تتقدم وتتوقف عند كل واحد منا. كان الجميع يخفض عينيه في كل مرة تصل أمامه. لكن ما إن وصلت بالقرب مني وهي تتفحصني حتى شعرت برغبة كبيرة في تحديها والنظر مباشرة في عينيها. لم تعجبني هذه الإنسانة منذ أول ثانية لمحتها فيها. كان جسمي يقشعر وأنا أوجه نظرتي إليها دون استسلام، حتى عادت نحو العم ألبيرت قائلة:

- من يكون هؤلاء؟.

- إنهم تلامذتي من جزيرة النور، هم هاربون منها.

بوجه طغت عليه علامات السخرية والاشمئزاز:

- نورانيون... بشرة صافية وملابس فاتحة، هؤلاء الناس حقًا لا يتغيرون.

وجهَتْ نحونا نظرة خاطفة ثم عادت لتكمل حديثها:

- أنت تعلم موقفنا من دخول هذه النوعية من البشر أراضينا.

- إنه وضع طارئ وأنا متأكد أنك ستفهمينه عندما أشرحه لك.

- بالتأكيد يجب أن أفهم كل شيء. وأكثر ما يشغل بالي هي عودتك، فأنت أيضًا لست مرحبًا بك مثلهم..

أشارت بيدها نحو أحد الرجال المرافقين لها قائلة:

- خذ الأولاد إلى القبو، أنا وجيبرو سنقوم بالحديث.

اقتادنا الرجل نحو قبو مظلمٍ جعلنا نشعر كأننا في الطريق إلى الجحيم. لكن سرعان ما فتحت الأبواب وأشعل ضوء خافت جعل المكان أقل رعبًا مما ظننتُه. جلسنا الواحد تلو الآخر على الأرض في هذا المكان الخالي تمامًا من أي أثاث. دام الصمت لعدة ثوانٍ. لكن سيزار قام من مكانه ووقف وسط القبو بعد أن أقفلت الباب خلفنا بالمفاتيح قائلًا:

– تبًا، ألم أخبركم أن ذلك الرجل لا نعرف حتى إن كان اسمه حقيقيًا؟ كل شيء حوله كاذب.

أومأ إيمو برأسه موافقًا ثم قال:

– ما كان علينا الوثوق به. لقد اقتادنا إلى هذا المكان المخيف ووحده القدير يعلم ما إن كانوا سيؤذوننا.

أجاب سيزار:

– سيقتلوننا حتمًا. ألم تسمع ماذا قالت الصلعاء للتو؟ نحن ليس مرحبًا بنا في هذا المكان. علينا أن نصلي كل دقيقة كي يشفقوا علينا ويطردوننا بدل قتلنا.

انتظر سيزار ردًا مني. لكنني كنت أحاول جاهدًا الخروج من تيارات أفكاري العاصفة كبحر هائج. نظر إليّ أنا ومايا قائلًا:

– أنتما ألن تتحدثا؟ ألم تقل يا آدم أننا مجبرين على الوثوق بالعجوز؟ ندمتُ على سماع نصيحتك. كان عليّ العودة إلى الجزيرة حتى لو تناوبت على قتلي وحوش الصحراء.

رفعتُ رأسي أخيرًا وقلت له:

– لا داعي للندم والنحيب على شيء لا يمكننا تغييره. ما حصل قد حصل..

لم يبدُ سيزار هذه المرة مقتنعًا بكلامي. فبادر بالجواب مباشرة:

– آسف يا صديقي هذه المرة كلامك المهدئ لا يفيد. نحن هنا بسبب إيمو، وبسببك أنت أيضًا. ليتك لم تحاول إنقاذه وجعلت القصير يموت ونحيا نحن بسلام. كان ذلك سيجنبك رؤية ما كانت تفعلُه جماعة الأيادي البيضاء، هذا إن كان ما رأيته صحيحًا.

شعرت برسالة مبطنة تحت كلامه، رسالة فحواها أنني قد أكون كاذبًا. وهذا ما لن أسمح به. أستطيع تقبل أي شيء سوى أن يتهمني أحد بالكذب بموضوع حساس مثل هذا. قمت من مكاني بعد أن وضعت الصوص بالقرب من حقيبة مايا واقتربت منه:

- هل تقصد أنني اختلقتُ كل هذا عبثًا؟.

- من يدري قد تكون فعلت ذلك. لم أسمعك يومًا تمدح جماعة الأيادي البيضاء. قد يكون كرهك لهم هو سبب اختلاقك لما قلته. هذا ما يحصل عندما تتقرب من غريب أطوار كذلك العجوز الكاذب.

بدأت نيران الغضب تستعر بداخلي وأنا أحاول إخمادها كي لا يصدر مني أي تصرف طائش:

- هل جننت؟ كيف لي أن أقوم بهذا الشيء فقط لأنني لا أطيق شخصًا ما؟ لا أحد سيخرج من مكان آمن هربًا لسبب تافه. لا تنس أنني لم أطلب لا منك ولا من مايا مرافقتي أيها الجبان.

تعالت نبرة صوته وهو يقترب من وجهي قائلًا:

- أنت هو الجبان والكاذب أصلًا، أتحداك أن تثبث لنا الآن ما رأيته..

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أنقض عليه بلكمة أسقطته أرضًا. فإذا بإيمو يمسكني ويعيدني إلى الخلف. لكن سيزار لم يبدُ كشخص قد تعلم درسه، بل قام وحاول الهجوم عليّ حتى بدأنا بتبادل اللكمات والضرب، رغم أن بنية جسده أقوى مني فإنني شعرتُ بطاقة كبيرة في جسدي ورغبة قوية لضربه حتى الموت. لم أتوقف سوى عند سماع صوت مايا وهي تصرخ قائلة:

- توقفوا أيها المجانين.

كانت صرخة مايا بعد صمت طويل مفاجأة لنا. استجبنا لها بسرعة وانفصلنا عن بعضنا البعض. اقتربتِ منا وعلامات الغضب بادية على وجهها:

- نحن في كابوس ولا يهمكم سوى إثبات من المحق ومن المخطئ هنا. جميعنا في هذا المكان تحت ظرف واحد. لا أحد غصَبَنا على الهرب. لا أحد ضغط عليك يا سيزار لتأتي وتودعنا تلك الليلة. وأنا رافقت آدم بكامل إرادتي. لذا لا أريد أن أسمع مرة أخرى هذا الموضوع. مفهوم؟.

أجبناها بصوت منخفض:

- مفهوم.

عدنا للجلوس على الأرض ولصمْتنا الذي كان كتيار مائي يجرفنا نحو فكرة واحدة، الموت في هذا المكان. كل ثانية تمر بمثابة سنة من الرعب داخل جحيم الانتظار. فجأة فُتح الباب، ودخل العم ألبيرت بوجه عبوس. بعد أن أُقفل الباب خلفه، قمنا من أماكننا بعيون تحمل مئات الأسئلة. لكنه سبقنا قائلًا:

- قبل أي شيء، أنا مدين لكم بشرح.

أخذ نفسًا عميقًا حتى توسعت حدقتا عينيه ثم بدأ بالسرد:

- اسمي الحقيقي دانييل جيبرو. أنا من الأحاديين. ولدتُ وترعرعت هنا. كما سمعتم من قبل، كنت قائدًا لفرقة المارقين رقم ٥١. فرقة مكلفة بالخروج من أرض الأحاديين واستكشاف المناطق المحيطة وتأمين الطريق عبر التخلص من الوحوش. كانت هذه الأرض أفضل حالًا مما ترونه اليوم. عندما كان والد إيفا هو الحاكم، كان كل شيء بخير. لطالما كنا فضوليين لمعرفة ما يحصل في العالم الخارجي. وهنا أقصد جزيرة النور. لقد كنت مولعًا بالقراءة والأدب. لذلك جذبتني ديانة الهلييث وتعاليمها. فقررت بعد موافقة القائد السابق للأحاديين ماركوس، أن أقوم بالمهمة المستحيلة وأدخل بينكم لدراستكم. كان الوصول إليكم صعبًا جدًا ومرهقًا. لكن للوصول لذة كبيرة. حينها

رأيت السلام والنظام الذي تعيشون فيه، شعرت بالأمان، لأنني رغم كوني أحاديًا في الأصل، فإنني لم أكن أوافق على طريقة عيشنا بلا دين أو قوانين تحكمنا. السنين مرت بسرعة حتى تعودت عليكم ولم أستطع مغادرتكم.

عم الصمت في الغرفة. وتبادلنا نظرات الصدمة ونحن نسمع أن كل ما عرفناه عن هذا الرجل في السنوات الماضية كان كذبة. انتظرت أن يتدخل أحدهم ويسأله، يوبخه، لكنهم التزموا الصمت. وكأنهم تعبوا من المحاولة، تعبوا من التساؤل. فصاروا يتقبلون أي شيء يسمعونه. لكن هذه القاعدة لا تنطبق عليّ.

- إذن كنتَ جاسوسًا بيننا؟.

نظر العم ألبيرت إليّ بعين توقعتْ سؤالي. ليجيب:

- الأمر بعيد كل البعد عن ذلك. لقد قدمت عندما كنت في الثلاثينات من عمري، شابًا قويًا طموحًا. ماركوس كان يطمح لتوحيد جزيرة الجنة بأرض الأحاديين كي نصير قوة كبرى ونعتمد على بعضنا البعض لمواجهة ظروف الحياة القاسية. لذلك كان على أحد يثق به أن يدخل بينكم ويدرسكم نظرًا لقلة معلوماتهم عنكم. تطلب مني الأمر عشر سنوات لمعرفة دينكم وحفظ قوانينكم. كان المشروع في خطى ثابتة. أكتب وأرسل ما تعلمته عنكم لماركوس. لكن فجأة توصلتُ برسالة منه تطلب مني التوقف عن ذلك، وعدم دخول أرض الأحاديين أو إخبار أي شخص عن مشروعنا السري. وجدتُ نفسي في مأزق. لا أعرف ما يحصل معه ولا أستطيع إتمام مشروع حياتي. لكنني الآن صرت أعرف لمَ طلب أن أتوقف. لم تعد هذه الأرض كما كانت سابقًا.

تحدثتْ أخيرًا مايا قائلة:

- والآن ما مصيرنا؟ هل سيقتلوننا؟.

ابتسم العم ألبيرت قائلًا:

- لن يحصل ذلك. لقد اتفقتُ مع إيفا على أن تظلوا هنا شرط أن لا تشكلوا أي خطر على المكان. لا تخبروا أحدًا عن أي شيء، خصوصًا عن جماعة الأيادي البيضاء وتشوه إيمو الخلقي. هذا المكان ليس بالمثالية التي تتخيلونها..

أشار لنا كي نلحق به. فتح الباب وخرجنا وسط القبو الطويل حتى وصلنا أخيرًا لمدخل المبنى الكبير. ثم خرجنا منه أخيرًا ونحن نشكر القدير على إبقائه لنا أحياءً سالمين. كان العم ألبيرت يتحرك بشكل سريع وسط جموع الناس المنشغلة بالاحتفال. لأسأله:

- لم الجميع هنا يرقصون ويحتفلون؟.

- أرض الأحاديين صارت مقسمة لجزئين: الأول خاص بـ «المارقين» وهم الذين تراهم الآن يعيشون بطريقة فوضوية ويحتفلون اليوم بذكرى انتصارهم في الثورة التي قاموا بها منذ سنوات وأدت إلى تقسيم هذه الأرض. بينما النصف الآخر يسكنه «الناريون». لا يوجد فرق كبير بينهم وبين المارقين لكنهم يظلون أهدأ وأكثر تحضرًا وسلامًا منهم.

شعرتُ بالضياع وأنا أسمع هذه الأسماء الغريبة. مارقون وناريون وثورة واحتفالات، معلومات كثيرة لم يكن عقلي قادرًا على تحليلها وأنا أسرع بخطاي كي أبتعد قدر المستطاع عن الناس المثيرين للاشمئزاز من حولي. علم العم ألبيرت ضياعنا الذي عبر عنه التزامنا بالصمت فقال:

- أعلم أن كل ما يحصل الآن غريب عليكم. لكنكم ستتعودون على هذا المكان. إنه مختلف جدًا عن الجزيرة..

سأله إيمو بفضول قائلًا:

- كم سنظل في هذا المكان؟.

- لا أدري، لا يزال الوقت مبكرًا للإجابة على هذا السؤال.

وصلنا إلى مكان غريب بشكل لا يصدق. كانت فيه سكك حديدية تبدأ من الأرض صعّدونا نحو السماء بطريقة متعرجة ولمسافة بعيدة. تعددت السكك التي تداخلت في بعضها البعض محدثة اشتباكًا غريبًا في الأعلى. طلب منا العم ألبيرت الصعود في جسم حديدي دائري كبير شبيه بفنجان الشاي الخزفي الذي يصنعه والد سيزار في الجزيرة. فتح بابه قائلًا:

- ما ترونه هو أحد أكثر وسائل النقل تطورًا في هذا المكان. هذا الجسم الحديدي المسمى بالنقالة يقوم بإيصالك إلى الضفة الأخرى بوقت قياسي على السكة الحديدية ويرتفع بك عاليًا في السماء.

شعرنا بحماسة كبيرة لركوب النقالة الحديدية. فتسابقنا للدخول إليها ليقفل العم ألبيرت الباب ويجر جسمًا صغيرًا بقوة ويطلقه. تحركت النقالة بسرعة كبيرة نحو الأعلى حتى اهتز جسدي وأنا أراقب الأرض من الأسفل. كان شعورًا رائعًا أن تعانق السماء عاليًا. تبادلنا الضحكات ونحن نرفع أيادينا عاليًا ونصرخ بحماس والرياح تصفعنا بقوة غير مبالين لأي شيء. كانت أول لحظة جميلة لنا منذ وصولنا إلى هذا المكان الذي ما زلت لا أعرف عنه الكثير.

بعد رحلة دامت بضع دقائق نزلت النقالة إلى الأسفل وتوقفت أمام أرض تختلف كثيرًا عن ما رأيته قبل قليل من أرض الأحاديين. فتح العم ألبيرت الباب ثم خرج لنلحق به وهو يشرح لنا قائلًا:

- هذه هي أرض الناريين. هم أقل بهرجة من المارقين وأهدأ طبعًا، هنا أعرف أشخاصًا موثوقين..

تأملنا البيوت العادية الشكل التي تشبه قليلًا شكل البيوت في الجزيرة إلا أن هذه أرقى وأكثر متانة من بيوتنا. لفتت انتباهي الأرضية الصلبة العجيبة لأرض الأحاديين والتي ينتج عنها أصوات خطواتنا بشكل جديد. سألت مايا العم ألبيرت قائلة:

– كيف استطاعوا بناء هذه الأرضية الغريبة؟.

– إنها مصنوعة من طبقات الفولاذ القوي. الزلازل تكثر في سنوات الصيف الحار وتشقق الأراضي. هذه الأرضية تحمي البيوت من السقوط والانهيار خلال الزلازل لأنها مثبتة عليها بإحكام. المكان هنا متطور علميًا بمئات المرات عن جزيرة النور.

نقطة أخرى تحسب للأحاديين، الذين بدأت تتغير صورتهم في عقلي تدريجيًا. اكتشفت أنهم أكثر ذكاءً منا بمراحل. في الوقت الذي نتأمل فيه انهيار بيوتنا وانشقاق أراضينا خلال كل زلزال عاجزين، هؤلاء الأشخاص قضوا سنوات من الأبحاث والعمل الشاق للقيام بإنقاذ أراضيهم من الدمار في كوكب لا يمكن التنبؤ بما قد يحدث فيه الثانية بعد مثيلتها.

كانت الحركة خفيفة في هذا المكان. الناس هنا يشبهون المارقين في أوشامهم لكن لباسهم أجمل. ولا يصدرون أصواتًا مرتفعة أو يتجولون وهم يشربون الخمر. بدا لي وكأن الناريين يعيشون اليوم حدادًا على خسارتهم تلك المعركة في الماضي مع المارقين. من كان يظن أن الأحاديين يتفرقون لمجموعتين كل منهما تقاطع الأخرى؟ حتى الكتاب المقدس فشل في التنبؤ بهذا الانقسام.

بعد طريق طويلة وصلنا إلى بيت فخم في حي لا توجد فيه بيوت كثيرة سوى بعض البنايات التي تبيع الأكل الشهي الذي ما إن وصلتْ رائحته نحوي حتى بدأت أمعائي تصدر أصوات الجوع. طرق العم ألبيرت الباب مرتين بينما ظللنا نتأمل المنزل الكبير المغطى بالكامل باللون الرمادي بينما أحاطت ببابه

ونوافذه قطع حديدية مزخرفة جميلة. فتح الباب شاب يرتدي بذلة زرقاء تلتصق بجسده المفتول قائلًا:

- تفضل، القائد بانتظارك.

لحقنا به دون كلام وسط المنزل الذي يشبه تمامًا ما قد يتوقعه المرء بمجرد رؤيته. كان أكثر سلامًا من المبنى الذي استقبلتنا فيه الكونتيسا إيفا. ألوان رغم وهجها الخافت فإنها تعطي رونقًا جميلًا للأعين على الحيطان وتذكرني ببيوت الجزيرة من الداخل والخارج، والتي يعكف سكانها على صباغتها بالأزرق والأبيض والأرجواني. وقفنا في الردهة الواسعة حتى فتح رجل باب مكتبه وخرج منه بثقة وافقت عليها خطواته الثابتة على الأرضية المغلفة بالرخام الرمادي. كان رجلًا في الأربعينات من عمره، طويل القامة، بعضلات مفتولة غطتها الأوشام، ووجه ذي نظرة صارمة بعينيه الفاحمتين وملامح وجهه الصارمة. لم يكن مثيرًا للرعب رغم صلابته مثل الكونتيسا إيفا. بنظرة واحدة مني استطعت الشعور أن هذا الرجل أفضل منها. النظر إليه يشعِر المرء بالراحة النفسية والفضول لمعرفته في آن واحد. عانَق العم ألبيرت بابتسامة طفيفة أظهرت أسنانه البيضاء اللامعة والتي تعاكس أسنان الكونتيسا المستبدلة بأسنان حديدية، فلف ذراعه القوي حول ظهر العم ليثير انتباهي سواره الجلدي الجميل.

- كنت أعلم أنك ستعود يومًا ما يا جيبرو.

رجع العم ألبيرت بخطوتين إلى الوراء مجيبًا:

- لم أعرف أن الأخبار تصلك بهذه السرعة يا إيغور.

- لا يمكن للقيادة والصمم الامتثال في مكان واحد.

تبادل الرجلان ضحكة أظهرت معرفتهما الكبيرة ببعضهما البعض. سرعان ما أدار العم وجهه وأشار لنا معرفًا إيغور بكل فرد منا:

- أعرفك برفاقي. سيزار، إيمو، مايا وآدم. يا شباب أعرفكم بقائد الناريين، إيغور.

تبادلنا ابتسامة مصطنعة خصوصًا أن نظرات إيغور لم تكن مرحبة كثيرًا بل كانت تتفحصنا بشكل مشكك. نادى بصوت عالٍ قائلًا:

- ماريا، خذي ضيوفنا إلى الطابق العلوي.

بسرعة قدمت امرأة عجوز بوجه بشوش يعد الأول الذي أراه هنا منذ وصولي. ابتسمت لنا بفستانها الأزرق الغامق وأشارت لنا بالصعود قائلة:

- تفضلوا يا أعزائي. سنطعمكم أولًا، فلا بد أنكم تتضورون جوعًا.

كان موضوع الطعام أكثر شيء مفرح يمكننا سماعه في هذه اللحظة. رُسمت على وجوهنا ابتسامة كبيرة ونحن نلحق بها بينما دخل العم ألبيرت برفقة القائد إيغور إلى المكتب. أدخلتنا السيدة المضيافة إلى غرفة جميلة تتوسطها طاولة كبيرة تحيط بها عدة كراسي. جلس كل منا في مكانه بخجل بينما نادت ماريا على فتاة في سنوات المراهقة خجولة بخدين أحمرين عرفتها علينا قائلة:

- أعرفكم بحفيدتي آنجلا. سنحضر لكم الطعام حالًا.

بعد مغادرتهما استطعنا أخيرًا تنفس الصعداء. كل منا أنهكه التعب لدرجة كدنا ننام فوق الطاولة. قال إيمو وهو يخلع حقيبته عن ظهره:

- أخيرًا لحظة سلام. لا أصدق أننا ما زلنا على قيد الحياة.

ابتسمت مايا مجيبة:

- القدير قام بحمايتنا حتى وصلنا سالمين. سأصلي له شكرًا قبل النوم.

- لكنني قلق من تلك المدعوة إيفا وحتى إيغور. لا أدري ماذا قد يصدر عنهما.

أدرت وجهي نحو إيمو وأجبته:

- في موضوع إيفا أتفق معك. لكنني أشعر بالأمان نسبيًا في هذا المكان. إيغور ألطف منها.

لم تستطع مايا أن تمنع نفسها من سؤال سيزار الصامت على غير عادته عاقدًا ساعديه في شرود:

- وأنت ما رأيك يا سيزار؟.

أجابها بصوت متعب:

- كل ما أريده الآن هو الأكل والنوم لأطول فترة ممكنة. اسأليني في الصباح.

وصلتِ الجدة ماريا وحفيدتها حاملتين للصحون المليئة بالطعام لتقوم مايا وتساعدهما في ترتيبها على الطاولة. لم ننتظر إشارة من أحد لنبدأ بالأكل. كان طعم الدجاج المشوي والأرز المسقي بالمرق شهيًا جدًا. جلست الجدة وآنجلا الخجولة أمامنا وقمنا جميعًا بمشاركة الطعام. عندما خف جوعنا نسبيًا وتباطأت حركة الأيادي المتعطشة للأكل، سكبت لنا آنجلا عصير الرمان. وهنا بدأت جلسة التعارف:

- أنتم من جزيرة النور؟.

ابتسمتْ مايا لآنجلا وهي تمسح فمها بالمنديل قائلة:

- نعم نحن من الجزيرة. ألم يسبق لك أن التقيت بشخص مثلنا؟.

أجابت آنجلا بالنفي. لتتدخل جدتها قائلة:

- اعذريها فهي مذهولة لرؤيتكم. لم يسبق أن زارنا أحد خارج أرض الأحاديين. لكن أريد معرفة شيء يثير فضولي. ما الذي جعلكم تتركون جزيرتكم الآمنة وتأتون إلى هذا العالم الجديد؟.

تبادلنا نظرات خوف بيننا بعد أن تذكرنا نصيحة العم ألبيرت بعدم إخبار أحد بسبب مجيئنا. الوقت يمر وعلى أحدنا الإجابة قبل أن تشك المرأة العجوز في أمرنا. كعادتي بادرت بأول شيء خطر على بالي:

- لا نشعر أننا ننتمي لذلك المكان. والعم ألبيرت شوقنا لاكتشاف أرضكم والتعرف عليكم.

نظرت إلينا بوجه تملأه ابتسامة كبيرة حتى صارت تشبه كثيرًا جدتي. عندما بدأت سيول مشاعر الاشتياق لها حاولت التهرب منها بالاطمئنان على الصوص النائم داخل حقيبة مايا المفتوحة بالقرب مني. عندها شعرت أنني بحاجة ماسة لمعرفة العديد من المعلومات من الجدة ماريا:

- أخبريني ما الذي تعرفونه عنا؟.

- كل ما نعرفه أنكم أولئك الناس المنغلقون على أنفسهم، مسالمون يعكفون على الصلاة طوال الوقت. هل أنا مخطئة؟.

- أنت محقة. وأنتم ألا تصلون؟.

ابتسمت الجدة ماريا بخجل:

- إن كنتم تعرفوننا فلا بد أنكم تعلمون أننا لا نؤمن لا بدين ولا بوجود الله.

- نعم أعلم ذلك، اعتقدت أنكم قد تكونون قد اخترعتم ديانة ما لكم بعد كل هذه السنوات.

- نحن يا بني لا نؤمن سوى بالحقائق، الأشياء التي نستطيع لمسها واستشعارها. لا يمكن أن نؤمن بشيء لا نراه، فلا أحد يضمن لنا إن كان حقًا يوجد إله في السماء.

بدت على وجوهنا علامات الانزعاج بدون استثناء. فمهما كانت نظرتي لدين الهلييث وكتابه، لم يخطر ببالي يومًا ما أن أشكك في وجود القدير. إنه شيء أشعر به بداخلي. حتى إن سألوني عنه وطلبوا مني أن أعطيهم دليلًا على وجوده قد أفشل في إقناعهم، لأنني لا أستطيع إخراج قلبي لهم كي يروا كم هي مساحة القدير فيه. أشعر به في كل مكان، في كل لحظة، حتى في اللحظات التي أتمنى لو كان غافلًا عما أفعله ولا يراني. لكنني أعلم أنه يراني، يشعر بي، بغض النظر عن شعوره اتجاهي.

لم أرد أن أتمادى في موضوع الدين الذي لن أتحمل سماع تشكيك فيه. لأعود إلى موضوع الأحاديين:

- ما هي قصة المارقين والناريين في أرضكم؟.

وضعت الجدة ماريا كوب العصير جانبًا واستعدت للسرد حتى بدت تمامًا كجدتي عندما كانت تحكي لي قصص ما قبل النوم في طفولتي. توسعت حدقتا عينيها تحت أضواء الشموع أثناء حديثها قائلة:

- قبل سنوات طويلة كانت أرض الأحاديين موحدة تحت حكْم ماركوس، أيام كنا فيها في قمة مجدنا وسلامنا. أنجب ماركوس ابنته الكبرى إيفا وشقيقها الأصغر إيغور. لطالما كانت إيفا متعطشة للسلطة. فما لبثت أن كبرت حتى كونت مجموعة من المؤيدين لها خصوصًا أن مبادئها كانت تدعو للتحرر المطلق والقتل. كان ماركوس آنذاك قد بدأ يشيخ لكنه لا يزال بكامل قوته للحكم. ابنه إيغور هو اليد اليمنى له ومساعده الوفي. حاول جاهدًا إقناع إيفا المتمردة بالعدول عن مخططاتها الثورية والتي ستجلب الكوارث لأرضنا. لكنها أصرت على أن تُسقط والدها من الحكم بحجة أنه عجوز عاجز. أشعلت نيران الثورة بين الناس حتى قامت حرب طاحنة بين مناصريها ومعارضيها. تمت إراقة الدماء وموت المئات منا. إلى أن أعلنت إيفا

انتصارها خصوصًا أن والدها توفي في خضم المعارك. حينها وصلتْ هي وشقيقها إلى طريق مسدود بعد أن رفض الانصياع لها. من حسن حظ إيغور أن سمعته الطيبة جعلت له مناصرين كثر. بعد شهور من المناقشات والاجتماعات قرروا تقسيم الأرض إلى نصفين احترامًا لمعاهدة السلام المبرمة بينهم. وسُميت مجموعة إيفا بالمارقين وهو وصف يطلق على الناس الذين لا يعيشون تحت نظام أو قانون معين. بينما نحن نسمى بالناريين احترامًا لشعار الأحاديين القديم في عصر ماركوس الذي كان شكله عبارة عن لهيب نار وسط راية سوداء. وهنا اكتملت قصتنا.

تأملتُ أصدقائي لأجد الجميع ينصت إليها كمجموعة أطفال ينتبهون لقصة جدتهم بإمعان. قاطعني صوت الصوص الصغير الذي استيقظ أخيرًا مُطالبًا بنصيبه من الطعام. أخرجته من الحقيبة ووضعته على الطاولة لتقوم آنجلا من كرسيها مندهشة وتجلس بالقرب مني قائلة:

- يا للروعة! إنه طائر جميل. ما نوعه؟.

- لا أدري، وجدناه في طريقنا إلى هنا وقررنا إنقاذه.

ابتسمت آنجلا قائلة:

- يجب أن نطعمه على الأقل.

انشغلت أنا وآنجلا في إطعام الطائر بينما أكملتْ مايا النقاش مع الجدة:

- كيف توفي ماركوس؟.

تنفستْ الجدة الصعداء واعتلى الحزن ملامح وجهها وهي تجيب:

- عندما أعلِنت وفاته قيل إنه مات بسكتة قلبية. لكن الجميع يعلم أن إيفا هي من قتلت والدها لتنال السلطة.

غطت مايا فمها بيدها معلنة صدمتها لما سمعته. فلم يبق أمامها شيء لتقوله كي تعبر عن مدى اسوداد هذا العالم. الجزيرة بالنسبة لهذا المكان جنة مثل اسمها. طوال حياتنا لم نسمع مطلقًا بشخص قتل الآخر، فما بالك بابنة تقتل والدها فقط من أجل الوصول إلى السلطة.

- في ديننا يقول القدير إن من قتل شخصًا في الأرض سُحقت عظامه في قبره وكان أول من تطأ قدمه الجحيم. لا أصدق كيف لإنسانة بقلب وروح أن تقوم بهذا الفعل الدنيء.

- لقد ماتت الروح فيها منذ وقت طويل يا ابنتي. لذلك نحن لا نقربها لا هي ولا أتباعها..

بعد أن امتلأت معدة الصوص الصغيرة، رفعتُ رأسي لأشكر آنجلا التي ساعدتني كثيرًا. لقد بدت أجمل بكثير وهي على مقربة مني. فلمعت عيناها الخضراوان واحمرت وجنتاها قائلة:

- لقد أحببت كثيرًا هذا الطائر، هل تمانع إن ساعدتك في الاعتناء به؟.

- مطلقًا، سيكون ذلك رائعًا.

- عندما تنشغل بشيء أو تريد التجول مع أصدقائك، اتركه معي.

- فكرة جيدة.

شعرنا أخيرًا أن الحياة قد عادت مجددًا إلى أجسادنا المنهكة بعد الانتهاء من وجبة العشاء اللذيذة،. فلاحظت الجدة ماريا ذلك بوضوح. قامت من كرسيها قائلة:

- هيا لقد تأخر الوقت. رافقوني لغرفة النوم كي ترتاحوا.

بدون نقاش قمتُ حاملًا الصوص بين يديّ ولحقت بالآخرين بعد توديع آنجلا. أدخلتنا الجدة ماريا إلى غرفة صغيرة بها أسِرة متوسطة الحجم يقابل كل واحد منها الآخر.

- آسفة المكان ليس من مقامكم. زيارتكم كانت مفاجأة لنا.

ابتسمت مايا قائلة:

- لا عليك فالمكان مناسب جدًا.

توجه كل منا إلى سريره. فإذا بنا نسمع الجدة ماريا تقول:

- هل يحمل منكم نسخة عن كتابكم المقدس؟.

باستغراب كبير ردت مايا:

- نعم أملك واحدًا. هل أستطيع مساعدتك في شيء؟.

ظهر الخجل والتوتر الكبير على الجدة التي أجابت:

- كنت أود أن أقرأ منه القليل وأتعرف على دينكم أكثر إن لم تمانعوا طبعًا.

بدون تردد فتحت مايا حقيبتها وأعطت للجدة ماريا نسخة صغيرة منه لتشكرها الأخيرة وتتمنى لنا ليلة سعيدة بعد إغلاقها الباب خلفها مغادرة.

استلقيتُ على السرير المقابل للنافذة بينما نامت مايا على السرير القريب مني. في حين ارتمى كل من إيمو وسيزار على وسادتيهما متعبين فناما على الفور. خلعت حذائي الجلدي الذي صار لونه رماديًا من الغبار ووضعت الصوص الذي كانت حرارته مرتفعة جدًا على حافة النافذة كي يشعره الهواء الليلي البارد بالانتعاش قبل النوم. وقفتُ متأملًا المنظر القاتم لهذا المكان. كنت أشعر بالانتعاش في كل مرة أفتح فيها نافذة غرفتي وأرى الخضرة والبحر البعيد أمامي. لكن في هذا المكان كل شيء كئيب. لا وجود للطبيعة، والأرض الفولاذية تضفي جوًا شبيهًا بالسجن، البنايات مطلية بألوان غامقة كأنها قد خرجت للتو من عالم الكوابيس المخيفة. كان السبب الوحيد لوقوفي هنا هو محاولة استنشاق هواء منعش والحصول على لحظة هدوء اشتقت

إليها في الساعات الماضية، لحظة أغتسل فيها من الخوف والموت. شعرتُ بمايا وهي تقف بالقرب مني قائلة:

- يبدو أنك وآنجلا متفاهمين جدًا.

أجبت مبتسمًا:

- الفتاة لطيفة وعرضت عليّ المساعدة في الاعتناء بهذا الصوص.

- لطيفة وتبدو معجبة بك كثيرًا.

- كيف علمتِ ذلك؟.

بدت على وجهها علامات الانزعاج رغم تصنعها الضحك قائلة:

- الفتاة تدرك جيدًا عندما تكون أخرى معجبة بأحد، يبدو ذلك واضحًا على وجهها.

- لا تقلقي فحتى لو كان ذلك صحيحًا، آخر ما أحتاج إليه حاليًا هو الحب. نحن في وضع أسود.

اعتلى الصمت الأجواء الهادئة. فكان عليّ أن أسأل مايا الشاردة:

- كيف تشعرين؟.

ابتسمت وهي تنظر إليّ:

- دائمًا ما تطمئن على حالي في كل لحظة سكون، وكأن السكون في حد ذاته هو أنت. بخصوص سؤالك، أنا الآن بخير. رغم أنني أشعر بالضياع وعدم الارتياح في هذا المكان الغريب.

- معك حق. لم أكن أظن أن أرض الأحاديين بهذه الفوضى من قبل. كل شيء غريب هنا.

- ماذا سنفعل الآن يا آدم؟ لقد جئنا هنا بحجة طلب المساعدة منهم. انظر إلى حالهم، فهم غير قادرين على التفاهم مع بعضهم البعض في خضم كل هذه الفوضى. ناهيك عن عدم قدرتنا على إخبارهم بشيء ريثما يعطينا العم ألبيرت أو جيبرو -أيًا كان اسمه- الموافقة. وكأننا سلكنا كل هذه الطريق بلا هدف.

تنفستُ الصعداء بصدر متعب وأجبتها:

- أنت محقة في كل شيء. كيف لنا أن نعلم أن الأحاديين يملكون كل هذه المشاكل؟ لكن لا يزال أمامنا فرصة أخيرة. غدًا سنتحدث مع العم ألبيرت لنجد حلًا، طالما أنه يمتلك كل هذه الأسرار لا بد أن واحدة من بينها قد تفيدنا.

تثاءبت مايا وهي تومئ برأسها موافقة:

- اذهبي للنوم فأنت متعبة.

- حسنًا وأنت أيضًا. تصبح على خير.

رمتْ مايا نفسها على السرير نائمة بنفس الطريقة التي تنام بها دائمًا. واضعة يدها اليسرى تحت الوسادة وشعرها الأسود الذي تمردَ على ضفيرتها فخرجَت بعض خصلاته وانسدل على وجهها كمياه الشلالات. صعدتُ على سريري حاملًا الصوص بين يدي وربتُ على رقبته المرتجفة في محاولة للشعور بالنوم رغم تعبي. سرعان ما حل سلطان النوم على رموشي ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أستسلم له فوق الوسادة والصوص لا يزال بين ذراعيّ، هادئًا لا يصدر أي صوت وكأنه يحترم النيام من حوله.

صراخ، مئات من البشر يركضون هربًا من جحيم الموت، سيل من الدماء يغزو الأرض وجثث الناس مرمية عليها وكأنها دمى لم تعرف الروح في أجسادها مكانًا من قبل. كل شيء كئيب من حولي وأنا أركض غير مدرك

ما الذي يجري. كل ما أشعر به هو أنني مجبر على الركض كي لا ألقى حتفي من الشيء المجهول الذي يلاحقني. تارة يبدو المكان شبيهًا بجزيرتي، وتارة شبيهًا بأرض الأحاديين. أبحث عن وجه أعرفه كي أستنجد به لكنني أعجز على ذلك. نبضات قلبي متسارعة ويداي ترتجفان. وفجأة وقعتُ على الأرض بقوة، والتفت حول يديّ حبال قوية فبدأت تجرني نحو المجهول. أريد الصراخ لكنني عاجز، فأنا لا أستطيع سماع صوت غير صرخات الناس من حولي. وفجأة وجدت يديّ ملطختين بدماء ذات رائحة قذرة. واختفت الحبال...

استيقظتُ مفزوعًا من النوم لأجد نفسي أتصبب عرقًا ودقات قلبي متسارعة لدرجة لا تصدق. لقد كان كابوسًا مخيفًا. كابوس آخر من سلسلة كوابيس كانت تأتي بين الحين والآخر وسط عالم الأحلام منذ أن كنتُ طفلًا. لكن هذا كان الأكثر واقعية من بينها. لأنني وجدت علامات الحبال على يديّ، متورمتان بلون زهري غامق وألم فيهما وكأنني حقًا تعرضت لذلك. التفَت من حولي فوجدت الجميع لا يزالون نائمين، حتى الصوص الصغير استسلم للنوم هو الآخر بين ذراعيّ. وضعتُه على السرير وقمتُ أتفقدُ النافذة لأجد السماء تعلن آخر ساعات ليلها. هنا علمت أنني نمت لوقت قصير فقط، وليتني لم أنم.

اختفَت لدي الرغبة في النوم، وشعرت بالضيق في صدري وكأن هذه الغرفة تضغط عليه وتسلب مني القدرة على التنفس. خرجْتُ منها بهدوء كي لا أوقظ أحدًا. كانت الأروقة هادئة. لا يزال الجميع نيام. فقررتُ التجول في هذا المكان واستغلال فرصة الهدوء كي لا يزعجني أحد بنظراته.

نزلتُ من السلالم آملًا أن ألتقي بالعم ألبيرت على الأقل كي أسأله عن كل ما يخطر في بالي. لكنها في الواقع فقط حجة كي أتناسى الكابوس الذي رأيته. ماذا لو كان ذلك رسالة لي من السماء تخبرني أن القدير غاضب مني لما اقترفته من أخطاء؟ وتلك الدماء التي كانت تكتسح يديّ تعني أنني

قاتل؟ والحبال تعني العقاب من القدير؟ وصراخ الناس وموتهم يعني عذابنا في الجحيم؟ رغم محاولتي التعايش مع خطاياي في الماضي، وعدم التفكير بمصيري بعد يوم الانعتاق، فإن اليوم صار الأمر مختلفًا كثيرًا. أنا قاتل روح بشرية بغير حق وهذه أعظم خطيئة يمكن لشخص ارتكابها على الأرض. كنت في الماضي أملك أملًا صغيرًا أنني قد أنال مغفرة القدير لعدم كوني شخصًا يحترم دينه. لكن الآن لا أرى أملًا. لم أعد أملك الجرأة للدعاء، والجحيم سيكون مصيري بالتأكيد.

وصلتُ إلى الردهة التي دخلنا منها في البداية، فسمعتُ أصوات سيوف وقتال بعيدة عني وسط الهدوء. لم أستطع منع نفسي من تتبعها فإذا بي أنزل في السلالم الموجودة بجانب مكتب إيغور نحو القبو. وصلت أخيرًا لساحة بها إضاءة قوية كأننا في وضح النهار. وجدت إيغور مرتديًا لباس مقاتل يحمل سيفًا ويحارب بكل بسالة فتاة طويلة القامة مثله ذات شعر أحمر يصل إلى نهاية ظهرها مرتدية هي الأخرى لباس قتال معظمه من الحديد. جلستُ على كرسي بمدخل الباب في زاوية لا يصلها الضوء القوي. راقبتُ بانبهار قوة هذا الرجل التي لم أر لها مثيلًا. كان يقفز كالنسر حاملًا سيفه عاليًا مهاجمًا الفتاة المدرعة القوية البنية. عقدتُ ساعديّ واندمجتُ في الفرجة لهذه المقابلة القتالية الملحمية التي أعادتني إلى الوراء وذكرتني بكتب العم ألبيرت التي تحكي عن عصور الحروب والأبطال الذين حرروا أراضيهم وقاتلوا بشجاعة. رغم أن خيالي آنذاك رسم لي الصورة المثالية، فإن الواقع له حلاوة لا توصف. فهمتُ بعد لحظات أنها حصة تدريبية للفتاة. حيث كان إيغور يعطيها التعليمات في كل مرة تخفق فيها. بعد الانتهاء لم أشعر بنفسي إلا وأنا أقوم من الكرسي وأدخل حلقة الضوء قائلًا:

– رائع، كان ذلك أروع ما رأيته في حياتي.

تفاجأ إيغور وهو يمسح العرق من جبينه ويحدق بي بنظرة قوية قائلًا:

- ماذا تفعل هنا في هذا الوقت المتأخر يا فتى؟.

أعادني صوته إلى أرض الواقع فاحمرت وجنتاي وأنا أقول بخجل:

- آسف يا سيدي على التطفل، لكنني عجزت عن النوم وقررت التجول في المكان. فلم أستطع منع نفسي من رؤية هذا القتال الملحمي..

ابتسمَت الفتاة صاحبة الملامح القوية قائلة:

- يبدو أننا لسنا الوحيدين الذين لا نستطيع النوم هنا.

تفحصني إيغور بدقة قائلًا:

- أنت آدم أليس كذلك؟.

لم أدر لمَ شعرتُ بسعادة وأنا أسمع اسمي ينطَقُ من قبله. فأجبت بابتسامة:

- نعم.

- ألم تر قتالًا من قبل كهذا؟.

- مطلقًا. في الجزيرة لا وجود لهذه الأمور. العنف والقتل محرمان علينا.

وضع سيفه وسط غشاء طويل معلق بجانب خصره حتى ظهرت عضلاته المفتولة والمغطاة بالأوشام لامعة بسبب العرق تحت الضوء. ثم قال وهو يشير إلى الفتاة:

- هذه سيلينا. أعرفكِ بآدم، أحد الوافدين من جزيرة النور مع جيبرو.

تبادلنا ابتسامة تعارف ودية قصيرة. وسرعان ما انتصر فضولي عليّ وقلت:

- هل تستطيع تدريبي؟.

بدا الذهول على وجه إيغور. فعلمتُ حينها أنني ارتكبتُ خطأ جسيمًا. أنا مجرد لاجئ في هذا المكان منذ ساعات وما لبثت حتى تصرفت بوقاحة. كيف لي أن أطلب من القائد شخصيًا أن يدربني؟ تمنيت لو انشقت الأرض في تلك اللحظة تحت قدميّ وابتلعتني. ضحكت سيلينا قائلة:

- هل تمزح؟ كيف تجرؤ على الطلب منه تدريبك؟.

بصوته ذي النبرة القوية قال وهو يتفحصني:

- لم يخطئ عندما قال جيبرو أنك الأجرأ من بين الجميع.

شعرت بخجل كبير وأمنية في الاختفاء فورًا من أمامهما. قلتُ وأنا أعود بخطوات إلى الخلف:

- أعتذر منك سيدي، لقد كان ذلك فظًا. أردتُ فقط التعلم من خبراتك بسبب إعجابي الكبير بقتالك لكنني أسحب كلامي. أمسية سعيدة.

أسرعت في خطاي مغادرًا المكان. فإذا بي أسمع إيغور يناديني:

- يا فتى، عد إلى هنا فورًا.

تبًا، أنا حقًا في ورطة الآن. أدرت وجهي وعدتُ بخطوات بطيئة غير قادر على النظر إليه:

- تعجبني جرأتك، أوافق على تدريبك.

شعرتُ كأنني في حلم، غير مصدق لما يحصل معي. تأملتُ وجهه كي أتأكد جيدًا من أنه لا يمزح. فلم أجد سوى علامات الجدية عليه. ابتسمتُ بتحمس كبير قائلًا:

- أشكرك جزيل الشكر. متى نستطيع البدأ؟.

- الآن إن أردت.

بدون تفكير قلت:

- نعم فكرة رائعة.

أشار لسيلينا كي ترحل فإذا بها تضرب كتفي بخفة مازحة:

- حظًا موفقًا أيها الجميل.

اختلطت لدي مشاعر التوتر مع الحماس في لحظة كنا فيها أنا وقائد الناريين إيغور وجهًا لوجه بمفردنا. لا أعرف إلى الآن ما الذي يجذبني إلى هذا الرجل الذي لا أعرف عنه شيئًا. شعور غريب يحثني على التعرف عليه، والغوص في شخصيته الغامضة. هل هذا بسبب تعودي على الناس النمطيين في الجزيرة فبدا لي إيغور شيئًا جديدًا أريد استكشافه؟ لا أدري

- قبل أن نبدأ، هل سبق لك وقاتلت من قبل؟.

- لم أتعلم يومًا القتال في حياتي يا سيدي. أنا شخص مسالم.

- ولمَ تبدو متحمسًا لتعلم القتال؟.

بتوتر كبير أجبته:

- لست أدري، إنه شعور داخلي يحثني على ذلك.

رسم ابتسامة طفيفة على شفتيه مجيبًا:

- مثير للاهتمام.

توقف أمامي كالنخلة الشامخة حتى بدوت في منتصف طوله. ثم قال:

- الآن سأختبر سرعة بديهتك في الدفاع عن نفسك، سأهاجمك دون أذيتك.

بدأ يوجه نحوي لكمات لا تصل إلى وجهي بينما أقوم في كل مرة بتجنب يده. لكن سرعته واحترافيته العالية كانت لي بالمرصاد. فاستغفلني وقام بإسقاطي أرضًا. ساعدني على الوقوف قائلًا:

- استجابتك للضربات جيدة بالنسبة لمبتدئ. فأنت تركز على اتجاه اللكمات الموجهة ضدك، لكنك تركز في اتجاه واحد. عدوك قد يستغل هذه الميزة ويلهيك باللكمات كي يباغتك بركلة سفلية تسقطك. يجب أن تكون يقظًا وتقسم تركيزك إلى كل الاتجاهات في جسد عدوك. كي تكون مستعدًا لأي حركة منه في أي عضو.

شعرتُ بيأس كبير بعد أن كنت عازمًا على إبهاره من أول محاولة. نفضتُ الغبار من ملابسي البيضاء المتسخة ثم قمت منتظرًا تعليماته التالية:

- الآن أرني كيف تهجم.

حملقت في وجهه بتعجب كبير:

- تريدني أن أهاجمك؟.

- نعم.

- لكنني لا...

قاطعني:

- أعلم أنك قادم من مكان مسالم. لكن لكل منا ذكريات سوداء، أحداث ما إن تخطر على باله حتى تشتعل بداخله نيران الغضب. هذا ما أريده منك بالضبط. فجِر كل ما تحمله بداخلك في هذه الهجمة.

بدون أن أتكلف عناء التفكير المطول. خطر على بالي الكابوس المخيف الذي رأيته سابقًا. فشعرت بفوار الحرارة يتصاعد من قدميّ بشكل متسارع.

أغمضتُ عينيّ وأطلقتُ العنان لنفسي، فلم أشعر بأي شيء سوى بعد أن فتحتهما ووجدت أنني قد طرحت إيغور أرضًا وأمسكتُ بذراعه بين يديّ.

لم أصدق ما اقترفَته يداي للتو. عدت إلى الوراء وقمت من مكاني أرتجف من شدة الرعب. تداخلت سيول المخاوف في عقلي وأنا أراقبه يقوم من الأرض وينفض الغبار وهو ينظر إليّ بعين مشككة. ما خطبي؟ لمَ أفقد السيطرة على نفسي وأصبح متوحشًا لهذه الدرجة؟

أنا في موقف لا أحسد عليه. إيغور يقف صامتًا ينظر إليّ منتظرًا ردة فعل مني، وأنا في مكاني أنتظر أن تنزل صاعقة تطرحني أرضًا وتحملني من الفضيحة إلى القبر كي أهرب من العيون التي لا ترحم.

- كيف استطعتَ فعل ذلك؟.

أخفضت عينيّ باحثًا عن إجابة لسؤاله. فما كان أمامي سوى أن أتغابى كعادتي:

- فعل ماذا؟.

- أنت بوزن لا يتعدى الستين كيلوغرامًا استطعتَ أن تطرح رجلًا مثلي بوزن يفوقك بالضعف رغم انعدام خبرتك في القتال. لا مكان للصدفة في هذه المواقف.

بمَ سأجيب؟ ماذا سأقول؟ كيف سأشرح؟ هل سيصدقني إن قلت له أنني لا أعرف ما الذي يحصل معي مؤخرًا؟ بدا لي الوضع يائسًا. ما أسوأ ما قد يحصل معي إن أخبرته بالحقيقة؟ أنا في مكان غريب لا أعرف عنه سوى القليل، وإيغور ليس شخصًا من جزيرتي كي أخاف من أن يفضح أمري.

- هل أستطيع الوثوق بك وإخبارك سري؟.

تغيرت ملامح وجهه القاسية، فأخفض عينيه ثم تنفس الصعداء بعد أن لمح أن عينيّ امتلأتا بالدموع.

- تعال لنجلس ونتحدث.

وضع ذراعه حول كتفي فأشعرني بأمان لم أشعر به من قبل. وكأنني أعرفه منذ وقت طويل وتجمعنا صداقة كبيرة. في لحظة انهار ذلك الجدار العازل الذي أحاط به نفسه منذ وصولي إلى هذا المكان فصار شخصًا يعاكس ذلك الرجل الصلب البنية والمحيى. جلسنا في ركن على الأرض ثم أخرج قارورة ماء شرب منها القليل وأعطاني لأتقاسمها معه. أثناء شربي قال:

- هكذا نكون قد بنينا طريق الثقة.

كاد الماء أن ينحصر في حلقي بعد سماعي لمعلومة لا يعرفها سوى من يعيش في الجزيرة ويؤمن بدين الهلييث. ففي عادتنا عندما يود المرء أن يخبر أحدهم سرًا وهو لا تجمعه علاقة وثيقة بالآخر، يقومان بشرب الماء من نفس الوعاء كوعد وثقة. نسميها ببناء طريق الثقة.

- كيف علمتَ بذلك؟.

ابتسم وهو يعيد شعره الأسود الشبيه بطول شعري خلف أذنه قائلًا:

- أعلم الكثير عن دينكم وجزيرتكم.

- إذن لا بد أنك تملك فكرة عن الأيادي البيضاء ومعاملتهم للمشوهين خِلقيًا؟.

- نعم، كما أعلم أنكم هنا هربًا منهم.

شعرتُ بارتياح نسبي لمعرفتي أن العم ألبيرت أخبره بسرنا. وهذا يعني أنه شخص جدير بالثقة. لكنني إلى الآن لا أعرف بمَ أخبَرَه بالضبط، لذا كان عليّ التماطل وتجنب إفشاء أسرار قد تضر الجميع.

- أعلم أنك تتساءل الآن هل أستحق معرفة سرك، وهل يجدر بك الثقة بشخص لا تعرفه. لا ألومك.

- آسف يا سيدي. لكن ظروفي وما مررت به جعلتني ضائعًا لا أعرف بمن أثق.

صمتَ لثوانٍ ثم قال:

- أعلم الشعور بالضياع، هو نفسه ذلك الشعور الذي اجتاحني عندما توفي والدي...

قاطعته:

- تقصد عندما قتَلته أختك.

لم يبدُ متفاجئًا من معرفتي بالسر، بل أكمل حديثه وكأن شيئًا لم يكن:

- لم أصدق أنني فجأة صرت أحمل على عاتقي مسؤولية شعب بأكمله. تمنيت لو استطعت الهرب كما فعلتَ أنت وأصدقاؤك. لكنني كنت مجبرًا على البقاء وتنفيذ وصية والدي الذي جعلني أعده بحماية هذه الأرض وشعبها حتى تفارق الروح جسدي. حاربت كي أجعل أرض الناريين تعيش السلام الذي تستحقه، بعيدًا عن جبروت إيفا وطمعها في السلطة. لستَ وحدك الذي يشعر بالضياع وعدم معرفة ما قد يحصل في اليوم التالي..

تفاجأت من مدى ثقته الكبيرة بي ومشاركته لماضيه ومخاوفه التي لا يبدو أن هذا الرجل يمتلكها في النظرة الأولى. كانت جلسة حميمة انكسرت فيها الحواجز بيننا، فشعرت أنني صرت قادرًا على التحاور معه وعدم الخوف منه كما في السابق. نظر إليّ قائلًا:

- والآن هل لي بمعرفة سرك.

تنفست الصعداء وأجبت:

– في الفترة الأخيرة صارت تحصل معي أمور غريبة، من بينها ما رأيته قبل قليل. ما إن أصبح عصبيًا أو يتطلب مني الوضع القتال، حتى أفقد السيطرة على جسدي وأقوم بأشياء لا أستطيع تفسيرها. أستيقظُ من الأمر لأجد نفسي قد قمت بفعل شنيع. أنا أشعر بالخوف من نفسي أكثر من أي وقت مضى.

– ألم تلجأ لأي علاج في جزيرتكم؟.

– لم أجد الوقت لذلك، فأول ظهور لهذه الحالة حصل عشية هروبي منها.

تمَسك الصمت بزمام الأمور هذه المرة. فقررت كسره ومعرفة تفاصيل أكثر عن العم ألبيرت:

– بم أخبرك العم ألبيرت.. أقصد جيبرو عنا؟.

– هربتم من الجزيرة بعد تستُركم على التشوه الخلقي لصديقكم، وأن جماعة الأيادي البيضاء ليست كما تدعي. هذا كل شيء.

بدا لي أن العم ألبيرت كان حذرًا في الحديث مع إيغور، الذي كان ينتظر مني أن أشرح تفاصيل أكثر لسبب هروبنا من جزيرة النور. لكن ما يدور في بالي الآن هو معرفة أي شيء عن العم ألبيرت:

– هل يملك جيبرو أسرة هنا؟.

– نعم. لديه شقيقة وحيدة في القطاع الزراعي..

– عشتُ حياتي كاملة وأنا أعرف شخصًا لا وجود له. لا أدري كيف استطاع إخفاء هويته طوال الوقت.

صمت لوهلة في شرود ثم قال:

- ليس جيبرو الوحيد الذي يخفي من يكون، جميعنا نملك أسرارًا نخاف مشاركتها مع الآخرين.

- أنا الآن لا ألومه، لو كنت مكانه لفعلت نفس الشيء..

تأملت إيغور الذي بدا لي متعبًا جدًا، لا جسديًا بل روحيًا ونفسيًا. فلم أشعر بنفسي إلا وأنا أضع يدي على كتفه قائلًا:

- هل أنت بخير يا سيدي؟ تبدو متعبًا.

أدار وجهه نحوي وتأملني ثم أجاب:

- أتدري أنك أول شخص يطرح عليّ هذا السؤال منذ وفاة والدي؟.

- ماذا عن سيلينا، أليست مهتمة بحال أبيها؟.

- سيلينا ليست ابنتي، انها ابنة رفيقي الذي توفي منذ سنوات وقررتُ تعليمها فنون القتال والاعتماد عليها.

- لطالما تمنيتُ لو كان والدي على قيد الحياة، لكان وقف بجانبي وساندني، حماني من كل الأخطار وأشعرني بحب من نوع آخر. أنا لا أعرف شيئًا اسمه شعور الأبوة يا سيدي.

ربت إيغور على كتفي مواسيًا. ثم قال:

- الآن تبدو متعبًا أكثر مني..

ضحكت ساخرًا:

- يبدو أن الشقاء يختار أصحابه بعناية. أنا هنا في هذا المكان الغريب أبحث عن مساعدة من أشخاص هم بحاجة إلى مساعدة، أتحمل مسؤولية نفسي ومن معي.. حتى الصوص الذي أحضرته يعتمد عليّ.

تبادلنا ضحكة متمرغة في وحل آهات الحزن. ليقطعها إيغور قائلًا:

– أنتم مرحبٌ بكم هنا متى أردتم، لن يطردكم أحد بوجودي.

شكرتُه بابتسامة خفيفة مجيبًا:

– أشكرك يا سيدي. لكن هدفي من القدوم هنا هو مساعدة شعبي وتخليصه من الأيادي البيضاء. إنهم يقتلون الأبرياء بحجة تشوههم الخلقي، ما ذنبنا إن ولدنا مشوهين؟.

وضع إيغور يده على كتفي قائلًا:

– سنجد حلًا لمساعدتكم، فقط أمهلني بضعة أيام لمعالجة مشاكل مع إيفا وشعبها، بعدها سنجلس ونتفق على طريقة لإنقاذكم.

– لمَ تريد إنقاذ أشخاص لا يريدون حتى الاختلاط معكم ولا تجمعهم بكم أي روابط؟.

رفع حاجبه الأيمن قائلًا:

– من يدري، قد يكون هنالك رابط بين شعوبنا.

فجأة دخل رجل أسود البشرة بعينين خضراوين فاتحتين جدًا وخدش يبدأ من أعلى حاجبه مرورًا بعينه اليمنى وصولًا إلى خده. كان صوته خشنًا للغاية وهو يقول لإيغور:

– أيها القائد، هنالك فوضى في الحدود بين رجال الكونتيسا إيفا ورجالنا.

قام إيغور من مكانه بعد أن قطب جبينه هامسًا لنفسه:

– ما الذي تريده هذه المرأة مجددًا؟.

أجابه الرجل:

- يبدو أنها تبحث عن المشاكل معنا يا سيدي.

ابتسم إيغور بكل ثقة:

- لن تجرؤ على فعل ذلك، هيا اسبقني وسألحق بك.

رحل الرجل مسرعًا بينما أدار إيغور وجهه نحوي قائلًا:

- كان وقتًا مميزًا معك يا فتى. فلم أتحدث بهذه الحميمية مع أحد من قبل.

ابتسمت بخجل مجيبًا:

- أشكرك يا سيدي، وأنا أيضًا لم أثق في شخص بهذه السرعة كما وثقت بك.

- لا داعي لسيدي، تستطيع مناداتي بإيغور فقط.

أثناء مغادرته قال بصوت مرتفع:

- سنكمل غدًا حصة التدريب في نفس الوقت والمكان..

شعرت بارتياح كبير لكسب ثقة هذا الرجل الذي لم أكن أظن أنه بهذه الطيبة والشهامة من قبل. عجبًا لأشكال الناس الخداعة، فهي عادة ما تظهر لنا ما يعاكس جوهرهم. لكن لكل قاعدة استثناء. وهنا خطرت على بالي إيفا. كانت جريئة ولا مبالية لدرجة لم تبذل فيها جهدًا كي تخفي جوهرها الأسود، بل أصرت على أن تترجم عيناها شرها وكأنها أفعى كوبرا تستعرض نفسها قبل التهام فريستها.

أثناء خروجي من قاعة التدريب، التقيت بسيلينا وهي تلتهم تفاحة بطريقة لا علاقة لها بالأنوثة. كانت تعاكس تمامًا أشكال الفتيات التقليديات في جزيرتي. من طريقة وقوفها الرجولية مرورًا بجسدها المغطى بالأوشام

وصولًا إلى أصوات المضغ العالية التي تصدرها بلا مبالاة. ما إن لمحتني حتى توجهت نحوي:

- كيف كان التدريب أيها الجميل؟.

ابتسمت لها قائلًا:

- جيد. ولمَ تنادينني بالجميل؟ لا أظن أنني وسيم لهذه الدرجة.

ضحكت بصوت عالٍ وهي ترفع شعرها الأحمر بيدها مجيبة:

- لأنها المرة الأولى التي أرى فيها شابًا ببشرة صافية وملامح بريئة. لا يوجد شبيه لك في هذا المكان..

- أظن أنني أوافقك الرأي في ذلك.

صعدنا السلالم ونحن نتحدث بعفوية. فقالت بعد أن أنهت حديثها عن أنواع الأسلحة والقتال:

- هل تعلم أنك الشخص الوحيد الذي قبل إيغور تدريبه من بعدي؟.

- نعم، لقد بدا لي ذلك واضحًا.

- لا بد أنه رأى فيك شيئًا مختلفًا أظن أنك تذكره بنفسه خلال شبابه.

- ليتني أصبح مثله وأشبهه أكثر.

ما إن وصلنا إلى رواق الغرفة التي أنام فيها حتى تذكرت أن أسألها عن شيء مهم:

- هل تعلمين أين أستطيع إيجاد جيبرو؟.

- طبعًا، لا بد أنه في منزل شقيقته «ساشينكا» غريبة الأطوار خلف القطاع الصناعي.

- هل تستطيعين أخذي إلى هناك بعد ساعات؟.

- طبعًا، فلا عمل لدي اليوم، وستكون فرصة لأعرفك بالمكان.

- رائع. شكرًا لك يا سيلينا. أراك لاحقًا.

ودعت سيلينا وتوجهت مباشرة نحو الغرفة بعد أن دخل ضوء الشمس التي أشرقت عبر النافذة الرئيسية للرواق. فإذا بي ألمح سيزار يخرج منها وهو يتثاءب. تجاهلت وجوده مرورًا به ليمسك فجأة بذراعي قائلًا:

- آدم نحتاج للحديث.

- سيزار لا طاقة لي للجدال معك وسماع نفس القصة عن من السبب في وصولنا لهذه الحالة.

نظر إليّ بعينيه المنتفختين بالنوم قائلًا:

- أريد أن أنهي هذا الخلاف، لا داعي لأن ننقلب ضد بعضنا البعض..

تفاجأت من مدى هدوء وعقلانية سيزار الذي عُرف بتسرعه وضيق تفكيره:

- أنا أيضًا أريد فعل ذلك.

- إذن أخبرني هل توصلت بطريقة ما لمساعدة شعبنا؟.

- لقد تحدثت مع إيغور ووعدني أنه سيتولى مهمة مساعدتنا. أشعر بالتفاؤل.

- جيد. سأنزل الآن لأتجول قبل الفطور، أراك لاحقًا.

غادر سيزار تاركًا كل جزء مني يحاول تحليل هذا الشخص الجديد الذي ظهر أمامي فجأة. لا بد أنه قد رأى كابوسًا مثل ما حصل معي وجعله يعيد النظر بشخصيته وموقفه مني. لم أرد التدقيق في الأمور وأنا أشعر بتعب

كبير، فتحتُ الغرفة لأجد كلًا من مايا وإيمو لا يزالان غارقين في نومهما العميق. استلقيتُ بجانب الصوص الذي كان يرتجف بالبرد جراء الهواء الداخل من النافذة. وضعته بين ذراعي ثم استسلمت للنوم، لكن هذه المرة لم تجد الكوابيس لي طريقًا.

لم يكن الشعور بالراحة والاسترخاء أجمل من هذه اللحظة. نزل الماء الساخن على جسدي أثناء الاستحمام بعد نوم قصير ريثما يجهز الفطور، فاستمتعت بهذه اللحظات القصيرة من السكينة التي كانت بمثابة فرصة لإعادة شحن جسدي بالطاقة لاستكمال مغامرة المجهول. لكن لم تغب عن عقلي كل من والدتي وجدتي. كيف حالهما الآن؟ هل ستقوم الأيادي البيضاء بإيذائهما انتقامًا مني؟

بعد خروجي من الحمام الدافئ الذي يشعرك كأنك في عالم منفصل بجدرانه البنية وبخاره العالي، وجدت على سريري لباسًا أسود شبيهًا بلباس الأحاديين. تذكرتُ حينها أنني لم أحضر لباسًا إضافيًا في حقيبتي، ويبدو أن الجدة ماريا قد أخذت ملابسي المتسخة لتنظفها. ارتديتها بدون تردد وأنا أشعر بفضول كبير للاندماج وسط اللون الأسود. فكان السروال ضيقًا بالنسبة لمقاسي لكن سواده ناسب بشرتي جدًا. أما القميص القصير من جهة الأكمام، جعل جسدي يبدو أجمل وأقوى من أي وقت مضى. فبدا اللون الأزرق الداكن فيه من أفضل الألوان التي رأيتها في حياتي. شعرت باختلاف كبير في شكلي وأنا أراقب نفسي وأتأملها في انعكاس الضوء على زجاج النافذة. من كان يظن أن يومًا كهذا قد يحين، يوم أرتدي فيه اللون المحرم على ديننا -والذي لطالما رغبتُ في ارتدائه- وأرمي خلف ظهري ذلك اللباس الأبيض الفضفاض. أشعر بالسعادة والانتعاش، وبالذنب أيضًا، حلاوة مع مذاق مر.

انتبهتُ أن الصوص ليس موجودًا على السرير، فخرجتُ مسرعًا باحثًا عنه. لأرى آنجلا تلوح لي من بعيد والسعادة تغمرها قائلة:

- آدم، الصوص فتح عينيه.

ركضتُ نحوها ودخلنا معًا إلى غرفة الطعام التي وجدتُ من حولها الجميع باستثناء سيزار. كان أول ما لفت انتباهي أكثر من الصوص هو كلًا من مايا وإيمو. إنهما يرتديان نفس ملابسي. مايا سرحت شعرها بطريقة غير تقليدية فتركته منسدلًا على كتفيها وهو نصف مبلل لتبدو كأنها شخص آخر مختلف كليًا. أما إيمو فقد بدا للمرة الأولى في سنه الحقيقي، خالعًا بذلك هندام البراءة الذي عهدته به.

أمسكتني آنجلا من يدي ووجهتني نحو الصوص الموضوع على حافة الطاولة قائلة:

- انظر إليه كم هو جميل، عيناه رائعتان.

دَنوتُ منه لأتفحص نظرته الأولى التي انتظرتها مدة طويلة، كانت عيناه بحجم كبير ولا تحمل بؤبؤًا. بل كانت عبارة عن نقطة زرقاء فاتحة تتخللها نقط حمراء وصفراء. ربتُ على رأسه بلطف فإذا به يدير وجهه نحوي ويتأملني بنظرة غريبة، نظرة تشبه كثيرًا رسالة شكر وامتنان على إنقاذه. لا أنكر أنني شعرتُ بفخر كبير بإنقاذي إياه، وزاد تعلقي به وكأنه ابني من صلبي.

قاطعني صوت آنجلا قائلة:

- بالمناسبة، يبدو شعركَ جميلًا وهو مبلل.

- شكرًا.

رفعتُ عينيّ نحو مايا التي كانت في البداية منشغلة بالحديث مع إيمو. لكن سرعان ما علمتُ أنها استرقتِ السمع وانزعجتِ من كلام آنجلا فرفعَت حاجبها الأيمن كعادتها.

عدت إلى الكرسي بالقرب منها بعد أن ألقيت التحية على الجدة ماريا. وقلت لمايا وإيمو:

- تبدوان جميلين بهذا اللباس.

ضحك إيمو قائلًا:

- اعتقدتُ في البداية أنني سمين لكن الجدة ماريا أخبرتني أن الجميع يرتدي ملابس ضيقة هنا.

- تبدو وسيمًا يا ولد.

كسرتُ هدوء مايا المنشغلة في أكل صحن البيض المقلي قائلًا:

- وأنتِ أيضًا تبدين جميلة اليوم.

أجابتني بلهجة مختلفة:

- لا أصدق أنني أرتدي هذا اللباس. القدير الآن يلعننا على عدم احترام تعاليم ديننا.

تدخلت الجدة ماريا مازحة:

- تطلب مني الأمر جهدًا كبيرًا كي أقنعها بارتدائه. قالت أنها ستنتظر ريثما تجف ملابسها الأصلية.

تبادلنا ضحكة قصيرة فإذا بي أسأل:

- أين سيزار؟.

أجابني إيمو:

- لقد خرج باكرًا ولم يعد. قد يكون الآن يقوم بجولة في الجوار.

- أتعلمون شيئًا، التقيت به في الفجر وبدا مختلفًا. كان هادئًا ومتفهمًا وبادر بالصلح معي. وكأنني أتحدث مع شخص آخر كليًا.

ابتسم إيمو قائلًا:

- يبدو أنه فكر مع نفسه وعلم أن صراخه كالنساء لا يفيد في شيء.

تدخلت مايا أخيرًا:

- وما الذي جعلك تقوم في الفجر؟.

- كانت ليلة غريبة. لم أستطع النوم وقررتُ القيام بجولة فإذا بالقدر يوصلني إلى إيغور. وتخيلوا ماذا فعلنا.. لقد دربني على القتال وتحدثنا بشكل حميمي وكأننا أصدقاء.

تأملت الوجوه من حولي والتي كانت تعلوها علامة الصدمة وعدم التصديق لأي حرف أتفوه به.

- آدم هل أنت متأكد أنك لم تكن تحلم؟.

أخذتُ رشفة من كأس الشاي وأجبت إيمو:

- حتمًا لا يا صاح، كلامي صحيح.

ابتسمتْ الجدة ماريا وهي توجه نحوي صحن الخبز قائلة:

- أنا أصدقه. فقد أوصاني القائد إيغور بالعناية بكم لأقصى الحدود، وهذا شيء غير معهود منه، فهو منعزل طوال حياته ولا يحب الضيوف كثيرًا.

سألتها مايا مستطردة:

- لمَ هو منعزل؟ وهل لديه أسرة؟.

قطبت الجدة ماريا جبينها مجيبة:

- مع الأسف هو ليس متزوجًا ولا يملك أطفالًا. لقد عاش قصة حب مع فتاة في الماضي لكنها هجرته بلا سبب. ومنذ ذلك الحين صار منغلقًا على نفسه لا يقرب النساء. وكأن تلك المرأة أخذت معها كل شيء جميل في الحياة بالنسبة له وغادرت..

- من تكون هذه المرأة؟.

- لا أعرف يا ابنتي. كل ما أعرفه هو أنها كانت قادمة من خارج الجزيرة في مهمة ما مع إحدى فرق المارقين ربما. والده ماركوس كان يعارض العلاقة بشدة، فذهبت فجأة دون سابق إنذار.

بصوت حزين قالت مايا:

- مسكين إيغور. لا بد أن تلك المرأة دمرته من الداخل. لا يوجد أسوأ من أن تحب شخصًا ويجرحك.

انشغلنا جميعًا بالأكل بينما تكلفت آنجلا بمهمة إطعام الصوص الذي بدا جميلًا بعينيه التي تراقبنا بدقة وصوته الطالب للأكل بين كل ثانية وأخرى. تدخل إيمو قائلًا:

- ماذا سنفعل اليوم يا آدم؟.

أجبته بعد شعوري بالشبع:

- اتفقتُ مع فتاة يدربها إيغور أن نقوم بجولة في المكان وتأخذني لزيارة العم ألبيرت في منزل شقيقته ساشينكا..

ضحك إيمو قائلًا:

- ما زلنا ندعوه بالعم ألبيرت، هل يمكنني مرافقتك؟ أشعر بالملل هنا.

أومأت برأسي له موافقًا بينما قاطعتنا مايا بسؤالها الموجه للجدة ماريا:

- هل تعرفين شقيقته؟.

أجابت الجدة ماريا بحماسة غريبة:

- نعم جميعنا نعرفها. إنها تسكن في أرض المارقين. امرأة عمياء يعتبرها الجميع مجنونة، فهي تقول أشياء غريبة وتتنبأ بالمستقبل. لكن...

توقفت الجدة ماريا عن الحديث لثوانٍ ثم أخرجت الكتاب المقدس الذي أعطته إليها مايا وفتحته قائلة:

- أردت إخباركم بأمر مريب. ساشينكا اشتهرت بحديثها عن يوم الانعتاق المذكور في كتابكم، ونبوءات كثيرة وأشياء أخرى تشبه كثيرًا ما قرأته للتو في هذا الكتاب. لا أظن أن الأمر مجرد صدفة.

تبادلنا جميعًا نظرة استغراب. كيف لهذه المرأة أن تعرف أمورًا عن ديننا وهي لا تسكن في جزيرتنا أو تؤمن بكتابنا؟ هل يا ترى أخبرها العم ألبيرت عنا فصارت مهووسة بنا؟ لن أسمح لهذا الموضوع بأن يمر مرور الكرام. ثم فجأة خطرت في بالي الورقة... الورقة ذاتها التي وجدتها في مكتبة العم ألبيرت وهددته بها لمرافقتنا. لا بد أن لذلك علاقة بأخته. أسئلة كثيرة جالت في خاطري فقررت حينها أن أجعل هذه الزيارة هي الإجابة الوحيدة لكل سؤال رفض أن يجيب عنه العم ألبيرت. هذه المرة لن أتساهل معه، ولن أسمح له بأن يسكتني بكلامه المعسول.

دخل فجأة أحد حراس المكان إلى الغرفة موجهًا كلامه لي:

- سيلينا تنتظرك في الأسفل.

- حسنًا أنا قادم.

قمت من الكرسي مشيرًا لإيمو بأن يلحق بي، فوجدت مايا هي الأخرى تقوم بالرغم من عدم طلبها مني القدوم. انشغلتُ بتوصية آنجلا حول العناية

بالصوص وتوديع الجدة ماريا ثم خرجتُ من الغرفة مسرعًا فإذا بمايا تمسك ذراعي وتعيدني إلى الخلف قائلة:

- إلى متى سنظل هنا يا آدم؟.

خرج من صدري زفير يمثِل مدى تعبي من السؤال نفسه ثم أجبتها:

- لا أدري يا مايا. ما زالت هناك أسئلة كثيرة نحتاج إلى الإجابة عليها، آخرها شقيقة العم ألبيرت.

بدت علامات الانزعاج عليها وهي تتأمل لباسها قائلة:

- انظر كيف أصبحنا، بعد يوم واحد بدأنا نصير مثلهم. أشعر كأنني عارية تمامًا في هذا اللباس الفاضح.

ضحكت بصوت عالٍ قائلًا:

- فاضح؟ أنت ترتدين سروالًا وقميصًا ولا يبدو شيء من مفاتنك ظاهرًا.

- لا بد أنك تمزح؟ هل نسيت مبادئ ديننا؟ هل نسيت أن القدير الآن يلعن كل خطوة لنا ونحن نرتدي لباسًا لا علاقة له بتعاليمنا؟ ماذا يحصل لك يا آدم؟ لقد أثروا عليك كثيرًا في هذا الوقت الوجيز.

أجبتها بلهجة صارمة:

- لم أتغير يا مايا، الظروف هي التي تغيرت. إياك أن تنخدعي بتماسكي من الخارج، فأنا أموت ألف مرة في اليوم من الداخل. قد تعتقدين أنك تعرفينني جيدًا لكنك لا تعرفين عني الكثير.

- ما الذي تقصده؟.

تقدمتُ في الرواق وأنا أنزل السلالم، ثم توقفت وأدرت وجهي باتجاهها مجيبًا:

- لا تلومي أحدًا وأنت لا تعرفين ظروفه، من يده في الماء ليس كالماسك للجمر بيديه.

لم أنتظر إجابة منها أو تعقيبًا. أكملتُ طريقي بعد أن تعبت كثيرًا من تكرار نفس الإجابة وسماع نفس السؤال والخوف في كل مرة من أن تفضحني الكلمات وتفجر ما يحمله قلبي من أسرار ومتاعب. أشعر أنني قد أنفجر في أي لحظة وأصرخ قائلًا أنني مشوه خِلقيًا وقاتل. ما الذي سيحصل لي؟ أنا هنا وسط أناس لا قانون ولا دين يحكمهم. لكن سرعان ما أتذكر القدير، فهو في كل مكان يراقبني. وأتذكر كلامه في الكتاب المقدس «إن أخطأتم يا عبادي فأخفوا خطاياكم عن عيون الناس كما يخفي المطر عطش الأرض، عسى أن يغفر لكم ذنبكم في الدنيا قبل يوم الانعتاق.

كانت سيلينا قد تعرفَت مسبقًا على إيمو قبل وصولي إليهما. لحقتْ بي مايا في صمت لننضم إليهما بعد أن عرفت كليهما على بعضهما البعض. خرجنا معًا من البناء الرئاسي لإيغور ثم توجهنا بخطوات سريعة نحو النقالة التي تؤدي إلى أرض المارقين. ما زال ركوبها محمسًا مثل أول مرة، يجعلك ذلك تشعر بحرية كبيرة وأنت على ارتفاع كبير من الأرض ليبدو كل شيء تحتك صغيرًا من مسافة كبيرة. بعد وصولنا إلى المكان قالت مايا بتوتر:

- هل تظنين أن تجولنا وسطهم آمن؟.

ابتسمَت سيلينا وهي تتناول علكة بشراسة:

- لا تقلقوا، ارتداؤكم للباسنا سيقلل احتمال التعرف عليكم. إضافة أنكم في أمان معي، فأنا قضيت وقتًا طويلًا بينهم ولدي أصدقاء هنا أيضًا..

تدخل إيمو قائلًا:

- هل لديك أسرة في هذا المكان؟.

- والداي توفيا قبل سنوات طويلة في الحرب، فقام بتربيتي كل من إيغور والجدة ماريا.

لم تبدُ سيلينا كئيبة وهي تذكر موضوع وفاة والديها وعيشها يتيمة. كانت اللامبالاة لديها مثيرة للاهتمام. فتاة لا تكترث لأي شيء غير الأكل والنوم والقتال. تبدو كنسخة مؤنثة لشاب مراهق كسول بجرعة جرأة أعلى وانعدام تام للباقة الأكل والمشية الرزينة. إنها تعاكس كليًا أشكال الفتيات التي عهدت رؤيتهن في جزيرتنا طوال حياتي. لكن لسبب ما، لا أمانع ذلك. اكتشفتُ بعد وصولي لهذا المكان أنني لا أعاني حساسية كبيرة من الاختلاف والعفوية طالما أن ذلك لا يمسني بشيء سلبي.

اتخذنا طريقنا وسط جموع الناس الذين لم تقع عيونهم علينا بنفس الطريقة التي استقبلونا بها، رغم أن البعض منهم عرفوا أننا غرباء لخلو أجسادنا من الأوشام بشكل كامل. الاندماج مع هؤلاء القوم شبه مستحيل. تشعر بالخوف الشديد مهما فعلتَ وأنت بينهم. تصرفاتهم الطائشة وروائح الخمر والسجائر المتطايرة في الهواء الحار تجعلك تتمنى لو نزلَت عليهم جميعًا لعنة القدير وأحرقتهم كي يرتاح كوكب الخراب من أشخاص كل ما يفعلونه في الحياة هو التفاخر بعيشهم في مستنقع الخطايا. الحياة مع الناريين أفضل بكثير من المارقين. فهم على الأقل يقضون وقتًا أطول في العلوم والاكتشافات بدل الاحتفالات اللانهائية.

في طريقنا ضغط إيمو على يدي وقال وعلامات الصدمة بادية على وجهه مشيرًا بإصبعه:

- يا شباب انظروا..

أدرنا وجوهنا نحو الاتجاه المشار إليه. فإذا بنا نرى فتاتين جالستين في الجوار تتبادلان القبل. بينما يجلس بالقرب منهما شابان قريبان جدًا من بعضهما البعض بشكل حميمي. كدت أن أفقد توازني وأنا أرى منظرًا لم يخطر على بالي يومًا أن يكون بهذه الجرأة أمام أعين الناس. قالت سيلينا بتعجب:

- ما الغريب في الأمر؟ ألم تروا في حياتكم شخصين يقبلان بعضهما البعض؟.

أجابتها مايا وعلامات الاشمئزاز والغثيان بادية على وجهها بوضوح:

- إنهما من نفس الجنس، هذا محرم جدًا في ديننا. يعاقب عليه صاحبه بالحرق حيًا حتى الموت.

أطلقت سيلينا ضحكتها العالية ونحن نكمل طريقنا ثم قالت:

- هنا نَحرق فقط الأشخاص بعد موتهم، عادة نقوم بها لحماية أجسادهم. أما بخصوص ما رأيتموه، هؤلاء نسميهم المعاكسين. أشخاص ينجذبون لبني جنسهم ويرتبطون بهم مثل أي شخص طبيعي..

- ليس ذلك طبيعيًا، الرجل خلق للمرأة. كيف سينجبون أطفالًا ويعيشون حياة طبيعية؟ هذا اختيار خاطئ.

راقبتْ سيلينا وجه مايا بتأنٍ تنتظرها حتى تنتهي من كلامها ثم توقفت وأجابت بلهجة صارمة:

- لا أحد يختار أن يولد معاكسًا، ولا يحق لمخلوق أن يلومه أو يطالبه بتغيير هويته الحقيقية. الحب ليس جريمة. مثل ما أنك لا تختارين والديك، فالقلب لا يختار من يحب. ما الضرر إن أحببتِ فتاة مثلك؟

هل ذلك سيؤذي أحدًا؟ مطلقًا. في هذا المكان لا أحد يتزوج. الزواج بالنسبة لنا مجرد معاهدة سخيفة ومؤسسة فاشلة. إن أحب اثنان بعضهما البعض وقررا الإنجاب لا بأس بذلك. تنظيم حياة الناس وحرمانهم من ممارسة حقوقهم في الحب هو الجريمة الحقيقية. لذلك قد نبدو بالنسبة إليكم متوحشين، لكنكم تبدون بالنسبة لنا أشخاصًا يحمِلون مساحة جوفاء من الداخل، محرومين من الحب بكل أشكاله. لا نأكل لأن القدير قال، لا ننام لأن القدير قال، نقوم بهذا لأن القدير قال، نَحرم أنفسنا من ذاك لأن القدير قال. ماذا عن قلوبكم؟ هل تسمعون إلى ماذا تقول؟ هذه هي مشكلة الأديان. وُجدَت لتمنع الإنسان من أن يكون إنسانًا دون قلب ومشاعر، فيضيع حياته كاملة وهو يلاحق وهمًا اسمه الكمال والألوهية، ويموت تاركًا أجيالًا خلفه تلاحق نفس الوهم. نحن بشر ولسنا آلهة. إن لم تكن لديك رقابة ذاتية على تصرفاتك، مئة قدير لن يستطيعوا ضبطك مهما نزلت على رأسك الكتب السماوية والتعاليم الدينية.

كانت لهجة سيلينا صارمة بشكل لا يصدق، وبدا على وجهها الانزعاج. لم تترك لنا مجالًا للرد. شعرتُ بذنب كبير في تعكر مزاجها وأنا ما زلتُ في حاجة لمساعدتها كي أصل إلى منزل العم ألبيرت. فلم يكن أمامي سوى الاعتذار بالنيابة عن مايا:

- آسف يا سيلينا، مايا لم تكن تقصد إهانتكم. هي فقط تعبر عن استغرابها لنمط حياتكم.

نظرت إليّ بابتسامة عريضة وكأن شيئًا لم يكن وهي تحك فروة رأسها قائلة:

- لا عليك أيها الجميل، اعتبروها مقدمة مني لفهم هذا المكان. هيا لنكمل طريقنا.

أكملنا الطريق ﮐ صمت تام. تقدمتنا سيلينا وهي تجيب عن أسئلة إيمو الفضولي الذي أراد معرفة كيف تم بناء كل شيء غريب من حوله عبرها. فكانت أمامي فرصة لأحدث مايا:

- أرجوك يا مايا حاولي ضبط لسانك، تقبلي أن هذا المكان ليس جزيرة النور.

تنفست الصعداء وهي تمرر يدها عبر شعرها قائلة:

- آسفة. لقد انجرفتُ مع عواطفي. أرجوك يا آدم، بعد مقابلة العم ألبيرت يجب أن نجد حلًا ونترك هذا المكان. لا أستطيع البقاء فيه مدة أطول، أشعر بالاختناق من كل شيء..

- لا تقلقي، كل شيء سيكون على ما يرام.

لم نشعر بالوقت حتى وصلنا لمنطقة بها بناية عالية شبيهة بالبرج الرئاسي الخاص بجزيرتنا، أحاطت بها بنايات متوسطة الحجم بينما كان الناس يحملون قطعًا من الحديد وأسلاكًا ومواد غريبة لم نر مثلها من قبل. توقفت سيلينا قائلة:

- أرحب بكم ﮐ القطاع الصناعي لأرض الأحاديين. هنا تحدث المعجزات.

لحقنا بها ونحن منبهرون بكل ما تقع عليه أعيننا من أشياء لا نعرف أسماء لها. سألتُها:

- هل هذا القطاع خاص بالمارقين؟.

- ﮐ الواقع إنه خاص بالناريين. لكن لصغر أرضنا تم بناؤه على أرض المارقين بالاتفاق معهم. أي اختراعات تقام هنا لنا الأسبقية ﮐ تجريبها بينما يظل للمارقين الخيار ﮐ ذلك بعد مدة.

دخلنا المبنى الرئيسي لنجده مليئًا بالشباب الذين يشتغلون بلا توقف كخلية نحل. كانوا يعملون على أجهزة متطورة تطلق أشعة بألوان خضراء وحمراء عاليًا، بينما يضع بعضهم أشياء على عيونهم تحميهم من ضررها حسب قول سيلينا التي ما إن لمحت رجلًا قصير القامة بعينين ضيقتين وشعر أسود ناعم حتى عرفتنا عليه قائلة:

- هذا شاكي، عبقري معروف في هذا المكان وغريب أطوار من النوع الممتاز. إنه لا يتوقف عن الاختراع والعمل طوال اليوم. ارحم نفسك أيها العم.

ابتسم الرجل بخجل قائلًا:

- لا تركزوا مع هذه المجنونة. دعونا نقوم بجولة لنعرفكم بهذا المكان.

لحقنا به وتتبعنا تعليماته عندما وصل لقلب القاعة الرئيسية قائلًا:

- هنا المنطقة الخاصة بالدراسات العلمية. نحاول معرفة حلول لمشاكل الطقس واستغلالات الطاقة الشمسية في الإضاءة، إضافة إلى علاج الأمراض.

صعدنا للطابق الأول حيث وجدنا العمال يقومون بالاشتغال على الحديد وإعادة تشكيله بينما البعض الآخر يحمل أسلحة أراها لأول مرة ويقومون بتجربتها على حائط حديدي.

- هذا الطابق خاص بصنع الأسلحة، مما يذكرني بشيء مهم.

أشار شاكي لسيلينا كي تلحق به. فما كان أمامنا سوى اللحاق بهما لمعرفة ما الذي سيحصل. أخرج من صندوق خشبي سوارين حديديين يصل طولهما إلى منتصف الذراع وسلمهما لها قائلًا:

- هذا سلاحك. لقد انتهيت منه منذ أسبوعين، وكالعادة تأتين دائمًا متأخرة.

ضحكت سيلينا وهي تقوم بارتداء السوارين اللذين لا يغطيان أصابع يدها. فاستطرد شاكي قائلًا:

- ما إن تضغطي على القطعة الحديدية في منتصف كفيك حتى ترين ما تحبينه.

بلا تردد ضغطت سيلينا أمام عيوننا المنتظرة بشوق وحماس للنتيجة. وفجأة خرج سكين طويل من أسفل أحد السوارين حتى قفزنا فزعًا من أماكننا. قال شاكي بفخر:

- تنظرون الآن لنسخة مصغرة عن سيفين في حدة كبيرة قادرين على تمزيق جسد إنسان في جزء من الثانية. هو مناسب لمقاتلة مثل سيلينا تقفز عاليًا للهجوم على خصمها وتعتمد على قوة ساعديها.

خلعت سيلينا السوارين ووضعتهما في الصندوق قائلة:

- لم تخيب ظني كالعادة يا شاكي. سأعود لاحقًا لأخذهما.

تدخل إيمو قائلًا:

- هذا رائع..

ابتسم شاكي قائلًا:

- المصنع مليئ بشتى أنواع الأسلحة. عودوا في أي وقت تريدون واختاروا ما تشاؤون منها.

كاد إيمو أن يقفز من مكانه فرحًا بعد سماع عرض شاكي المفاجئ. لتتدخل سيلينا مستطردة:

- حسنًا يا رفاق علينا التوجه لمنزل جيبرو. وفي طريق العودة نمُر على شاكي، موافقون؟.

أومأنا جميعنا برأسنا موافقين على عرضها. ودعنا شاكي وخرجنا من القطاع الصناعي تحت أشعة الشمس الحارقة حتى تصببت أجسادنا عرقًا وشعرنا وكأننا تحت النار مباشرة. في طريقنا نحو المنزل سألت سيلينا:

- أخبرَنا العم ألبيرت بأنه كان قائدًا لجماعات المارقين في الاستكشافات، ماذا يعني ذلك؟.

- منذ وقت طويل تخرج بين الحين والآخر بعض المجموعات التي تم تدريبها خصيصًا من أجل المهام الصعبة من أرض الأحاديين لاستكشاف المناطق المجاورة والبعيدة أيضًا بحثًا عن أثر للحياة عليها. البعض منهم يغيب لأيام وشهور مبتعدين عن أرضنا بمسافات كبيرة.

- وهل وُفقوا في ذلك؟.

- أحيانًا يجدون شخصًا أو بعض الأشخاص في الخارج فيحضرونهم إلى هنا ويدمجونهم معنا. مع الأسف الحياة في الخارج شبه منعدمة..

- لمَ يقومون بالاستكشاف وإحضار الناس إلى أرضهم؟.

- لأننا نؤمن أن قوة الأحاديين في أعدادهم. العديد منا يموتون جراء أمراض بسبب المناخ المتقلب والجاف كثيرًا. نحتاج بين الحين والآخر لإضافة مجموعات كي تتوسع رقعتنا في الأرض. إضافة أن الخرجات الاستكشافية قد توصلنا إلى أماكن بها أشياء مفيدة غير البشر نستغلها في مصلحتنا، رغم أنها مهمة محفوفة جدًا بالمخاطر. لأن الكثير منهم يموت في طريق العودة جراء هجمات الوحوش.

لم نشعر بالوقت حتى وصلنا إلى منطقة تبدو أقل تحضرًا بكثير من أرض المارقين والناريين، المنازل فيها منعزلة تحيط بها أشجار وحقول يتم استغلال محاصيلها لتعم المنفعة على الأحاديين بشكل كامل. كدت أنسى شكل الطبيعة والخضرة لانعدامها في هذه الأرض. لكن هذه المنطقة مليئة بها وتشعرك أنك في مكان آخر. أشارت سيلينا بيدها نحوها قائلة:

- هذا هو القطاع الزراعي. يتم زرع الخضر والفواكه وتربية المواشي والدواجن التي توفر حاجات الأحاديين بدون استثناء. يتم تقسيم الخيرات بالتساوي على المارقين والناريين. وهنا أيضًا يسكن الفلاحون والأشخاص البسيطون من بينهم شقيقة جيبرو الوحيدة ساشينكا.

شعرت بألفة كبيرة بين البيوت البسيطة والأعشاش المنتشرة في كل مكان فذكرني ذلك بجزيرتنا كثيرًا. في هذا المكان لا يركز الناس كثيرًا على الزائرين مثل أرض المارقين. صحيح أن أجسادهم لا تخلو من الأوشام، لكن لباسهم بسيط ووجوههم بشوشة أكثر. كل واحد منهم منشغل بعمله. فهذا يحمل صناديق الخضر وتلك تقوم بتنقية الحبوب والآخر يستعمل جهازًا متطورًا للسقي. في هذا المكان لا يعتمد المزارعون على مياه البحر المصفاة مثلنا لسقي محاصيلهم، بل يقومون باستعمال أجهزة ضخمة عبارة عن خراطيم ترش سائلًا يشبه الماء للوهلة الأولى لكن سيلينا أخبرتني لاحقًا أن هذا السائل يحتوي على الماء والمواد القاتلة للحشرات ومحلول يحمي الخضر والفواكه من الاحتراق تحت أشعة الشمس القوية.

مشينا وسط الناس المنشغلين في أعمالهم بحرية أكبر. فخطر على بالي سؤال سيلينا:

- ماذا تعرفين عن شقيقة جيبرو؟.

- تلك المرأة غريبة الأطوار كثيرًا. ولدت عمياء. إنها معروفة في هذا المكان كونها عرافة. لكن جل تنبؤاتها غريبة جدًا ولا تقوم بشرحها. إنها ترى في أحلامها أشياء مبهمة وترويها كما هي دون تفسير.

- وهل صدقَتْ تنبؤاتها؟.

- ما فهمناه منها تحقق. آخرها كان قبل سنوات طويلة عندما انهار جزء كبير من القطب الصناعي. لكنها لسنوات توقفت عن التنبؤ وعن الخروج حتى إن البعض اعتقد أنها توفيت.

لم نشعر بأقدامنا إلا ونحن نصل أمام بيت متهالك لا يناسب البيوت المجاورة له رغم بساطتها. طرقت سيلينا الباب مرارًا وتكرارًا لكن لا مجيب لها. تدخلت مايا قائلة:

- أعتقد أنهما غير موجودين في البيت.

أجابت سيلينا مستطردة:

- لا يعقل ذلك، ساشينكا لا تغادر منزلها أبدًا. ودائمًا ما يكون معها أحد ليخدمها.

لم أستطع منع نفسي من مشاركة وساوسي حول الموضوع:

- هل تظنين أنها لا تريد فتح الباب لنا عمدًا؟.

- لا أظن ذلك. هنالك أمر مريب يحصل هنا.

خرج رجل عجوز من البيت المجاور لمنزل ساشينكا متوجهًا نحونا مباشرة:

- من تبحثون عنهم لا يوجدون هنا.

سألته سيلينا:

- أين ذهبوا؟.

تفحصنا الرجل بنظرة مشككة ثم سألنا:

- أنتم القادمون من جزيرة النور أليس كذلك؟.

أجبناه بالإيجاب جميعنا. فإذا به يقترب منا أكثر قائلًا بصوت منخفض جدًا:

- جيبرو قام بتهريب شقيقته في اللحظة الأخيرة بعد أن علم أن شخصًا ما يسعى لقتلها.

اعتلت وجوهنا الصدمة المشتركة. فما كان أمامي سوى أن أستفسر من العجوز:

- من يسعى لقتلها؟ وأين ذهب بها؟.

قام الرجل بنظرة خاطفة من حوله ثم عاد ليكمل كلامه وعلامات الخوف بادية عليه بوضوح:

- ستعلمون عندما تلتقون به. لقد ترك معي مكان اختبائهما وأوصاني أن أعطيه للقادمين من جزيرة النور على رأسهم آدم..

همس لسيلينا بتعليمات العنوان الذي لم نفهم منه شيئًا بحكم عدم معرفتنا بالمكان. دون تضيع للوقت شكرناه ثم انطلقنا لكنه أوقفنا مباشرة قائلًا:

- احذروا فأنتم مراقَبون. هنالك رجلان يلحقان بكم. حاولوا تضييعهما عن الطريق دون أن تظهروا لهما أنكم اكتشفتهم هويتهما، فحياة ساشينكا بين أياديكم.

لم أتوقع أن تصل الأمور إلى هذا الحد، فأنا في الساعات الماضية اعتقدْت أننا انتهينا من الهرب والموت. لكن يبدو أن طريق الحقيقة لن يخلو أبدًا من الأشواك. شكرنا الرجل على المساعدة ثم بدأنا بالسير مباشرة نحو العنوان

المطلوب. في خضم ذلك تعمد إيمو السقوط على الأرض كي نقوم بمساعدته على القيام وتكون فرصة مثالية لرؤية هوية من يلحق بنا. لمحت شابين يبدو عليهما بشكل واضح أنهما من المارقين. ما إن لمحا توقُفنا حتى قاما بالادعاء أنهما غير مهتمين بنا يقومان بالحديث مع بعضهما البعض. أكملنا طريقنا في صمت ودقات قلوبنا تزداد بعد كل خطوة. كسرت مايا الصمت قائلة:

- ماذا سنفعل الآن؟ إنهما يلاحقاننا منذ البداية.

أجابت سيلينا بعزم:

- لا تقلقوا فأنا لدي حل لتضييعهما. لو لم أكن في حاجة لمعرفة من يكونان لكنت الآن قد قضيتُ عليهما.

وصلنا بعد دقائق أمام بناية عبارة عن مصنع صغير للوازم الفلاحة والملابس. دخلنا معًا ثم أقفلنا الباب من خلفنا. نظرتُ من النافذة لأجد الشابين قد توقفا على مقربة من المكان ينتظران خروجنا. أشارت سيلينا لنا بملاحقتها وسط الآلات العاملة والعمال المنشغلين في صناعة سلعهم. بدت سيلينا كأنها تعلم بالتفصيل هذا المكان الذي رغم صغره فإنه أشبه بالمتاهة وسط كل تلك الآلات والناس من حولنا. فتحت بابًا في نهاية الرواق المنبثق من القاعة الرئيسية، فوجدنا أنفسنا أمام حقول الزراعة الشاسعة، ابتسمتْ لنا وهي تتقدم قائلة:

- هذا المصنع يمتلك بابًا خلفيًا يؤدي إلى الضفة الأخرى للقطب الزراعي، لا يعلم به سوى العاملين هنا. من حسن حظكم أن صديقة لي سبق لها العمل في المكان..

شعرنا بالراحة الكبيرة ونحن نبتعد عن المصنع وسط حقل القمح. فبدا أمامي بيت خشبي كبير على مقربة منا وسط الحقل الشاسع. وصلنا إليه بعد قليل فطرقت سيلينا الباب وهي تقول:

- هذا هو المكان.

بعد ثوانٍ فتحت لنا سيدة في الخمسينات من عمرها ترتدي فستانًا أسود طويلًا وشعرها الأشيب يصل إلى كتفيها. رمقتنا بنظرة خاطفة ثم قالت:

- من أنتم؟.

ابتسمتُ لها قائلًا:

- جئنا لمقابلة جيبرو، أخبريه أنني آدم.

بوجه عبوس أشارت لنا بالدخول قائلة:

- هل تأكدتم أن لا أحد يلحق بكم؟.

أجابتها سيلينا:

- لا تقلقي كل شيء على ما يرام.

تقدمتِ المرأة الغامضة بخطوات ثابتة قائلة:

- الحقوا بي.

دخلنا وسط البيت المظلم ذي الأثاث العادي الشبيه لحد كبير ببيوت جزيرتنا. فتحت المرأة بابًا سريًا وسط الأرض ثم أشارت لنا بالنزول. تبادلنا نظرات خوف وتردد كسرتها سيلينا التي كانت أول النازلين في القبو. لحقنا بها وأجسادنا ترتجف من المجهول الذي ينتظرنا وسط هذا المكان، فنحن إلى الآن لا نعرف من تكون صاحبة البيت أو هل يوجد هنا العم ألبيرت وشقيقته أم الأمر كله مجرد خدعة أخرى. لكن لا خيار أمامنا سوى المخاطرة.

لم يختلف القبو كثيرًا عن المنزل، إضاءة خافتة جدًا وأثاث قليل متناثر بين زاوية وأخرى. توقفنا في منتصف المكان مترقبين لما سيحصل. لن أنكر أن الخوف اجتاحني وجعلني عاجزًا عن التفكير. نَظرتْ إليّ مايا بعيون تصرخ قلقًا هامسة:

- أشعر بالخوف.

وضعت يدي على يدها وضغطت عليها قائلًا:

- لا تخافي، أنا معك.

تقدمت سيلينا ورأسها يحوم باحثة عن أثر لإنسان في هذا المكان، ثم نادت عاليًا:

- جيبرو؟ ساشينكا؟ هل هنالك أحد هنا يا شباب؟.

بعد قليل خرج العم ألبيرت أو جيبرو كما يناديه الجميع هنا، وهو يرتدي قميصًا بلا أكمام وقد حلق جزءًا كبيرًا من لحيته. بدا شخصًا مختلفًا كليًا، أصغر بكثير مما عهدته. وأكثر ما أثار دهشتي هي الأوشام التي تغطي ذراعيه بأكملهما، ومشيتُهُ المنتصبة والتي تخالف كليًا مشية العم ألبيرت المنحنية التي عهدته بها. باختصار بدا شخصًا آخر، أحاديًا بامتياز. تأمل سيلينا بتمعن قائلًا:

- من تكونين؟.

- أنا سيلينا ابنة إيريك كلاي.

ظهرت علامات الدهشة على محياه وهو يقول:

- عجيب، أنت تشبهينه تمامًا في كل شيء، لم أظن أنه تزوج وأنجب قبل وفاته.

عانقها مطولًا واطمأن على حالها، ثم وجه نظره نحونا قائلًا:

- تعالوا معي.

لحقنا به نحو غرفة منعزلة في الجانب الشمالي للقبو الكبير. دخلنا في صمت فإذا بي ألمح امرأة متقدمة في السن تجلس في ركن الغرفة وهي تحمل

كرة صوف تقلبها بيدها اليمنى بينما تضع يدها اليسرى على قطة سوداء تستلقي بجانبها. شعرتُ بقشعريرة أجهل مصدرها أو سببها في اللحظة ذاتها التي وقع فيها نظري على شقيقة العم ألبيرت. كانت تجلس بثبات وهي تضع الرداء الأسود الشفاف مفتوحًا على رأسها فيظهر من خلاله شعرها الأسود القاتم، ووجهها الذي اعتلته التجاعيد ولم تعطها أي علامة للوقار مثل وجه جدتي. بل كان النظر إليها مخيفًا. وأكثر ما يخيف فيها هو لون عينيها الزرقاوين الفاتحتين بشكل مبالغ فيه لدرجة بدت كعيون القطط تظهر جليًا أن هذه المرأة عمياء بشكل كلي.

بدت منشغلة جدًا وهي تتمتم بلا توقف بكلام غير مفهوم رغم شعورها بوصولنا. لم يكن تركيزي عليها قويًا في هذه اللحظة لأن كل ما يشغل بالي الآن هو مواجهة العم ألبيرت. بلا مقدمات قال:

- أعرف أن العديد من الأسئلة تدور في بالكم وتبحثون عن إجابة لها في هذه اللحظة.

انتظرتُ كثيرًا من أجل هذه اللحظة، وخطّطتُ مطولًا لهذه المواجهة. لن أسمح له بأن يبتلع أسئلتي بكلماته.

- قبل مقدماتك يجب أن أخبرك أنني كنت أنوي المجيء عندك لمحادثتك شخصيًا بعيدًا عما حصل لشقيقتك، لكن الظروف جعلت الحدَثَيْن متزامنين بشكل غير متوقع.

تدخل إيمو قائلًا:

- من يريد قتل شقيقتك ولمَ هربتَ معها؟.

جلس العم ألبيرت على حافة طاولة خشبية مجيبًا:

- إنها إيفا، لقد أعطت تعليمات سرية بإلقاء القبض على شقيقتي وقتلها. جواسيس يعملون لديها قاموا بإخباري بذلك فتصرفتُ قبل فوات الأوان.

قالت مايا بفضول:

- أخبرتنا الجدة ماريا أن شقيقتك تعرف ديننا ولديها تنبؤات حول أشياء تتعلق به. هل هذا صحيح؟.

- نعم، وهذا بالضبط سبب رغبة إيفا بقتلها.

هنا بدأت أشعر بالضياع مجددًا، والضياع خلال اعترافات العم ألبيرت يعني أنه قد يتلاعب بنا مرة أخرى. تدخلتُ بلا استئذان وأنا أخرِج من جيبي الورقة التي أبحثُ عن إجابات حولها قائلًا:

- اسمعني جيدًا، لن نخرج من هذا المكان قبل أن تشرح لنا كل شيء. والأهم فحوى هذه الورقة وعلاقتها بشقيقتك. لقد حان الوقت لنعرف الحقيقة كاملة.

تنفسَ العم ألبيرت الصعداء وهو يجلس على كرسي وسط الغرفة بينما وقفنا أمامه مباشرة ثم بدأ بالسرد:

- حسنًا لقد حان وقت الحقيقة. عندما كنتُ طفلًا، كانت شقيقتي الكبرى ساشينكا آنذاك تخبرني أنها ترى كوابيس غريبة في الليل وتسمع أصواتًا غير مفسرة. اعتقدنا في البداية أنا ووالداي أنها مصابة بمرض عصبي وحاولنا علاجها لكن لا شيء نفع معها. نعتها الجميع بالمجنونة وغريبة الأطوار فقررت البقاء في المنزل والدخول في ظلمة الانعزال المضافة إلى ظلمة عينيها التي حُرمت من النظر بها منذ ولادتها. في يوم من الأيام قامت ليلًا مفزوعة وجاءت إليّ وهي تخبرني أنها رأت شيئًا حول جزيرة النور ودين الهلبيث الذي كنتُ

بدأتُ أبحث عنهما آنذاك بسبب فضولي. لم يكن كلامها شيئًا يستهان به، خصوصًا أنها كتبت جزءًا مما رأته على ورقة وقدمتها لي. تلك الورقة هي التي يحملها آدم بين يديه. ستُخبركم لاحقًا بفحوى الرؤيا وتشرحها لكم. بعد ذلك صرت أعمل لدى قائد الأحاديين ماركوس، وشاركني برغبته بتوحيد أرضه مع جزيرة النورانيين في سلام لكنه لا يعرف عن سكانها سوى القليل. وجدّت أنها فرصة مثالية للتحقق من كلام ساشينكا ومساعدة ماركوس في آن واحد. كنتُ مجبرًا على ذلك. لم أرد أن أجعل شقيقتي الوحيدة تعاني بسبب سر قد ينقذ شعبًا بأكمله من الدمار وأظل في مكاني بلا حراك.

أدار وجهه نحو ساشينكا قائلًا:

- إنهم هنا جميعًا. لقد جاء اليوم الذي لطالما انتظرتِه يا أختي.

أرسَل العم ألبيرت نظرات غريبة نحو سيلينا فحواها أن تتركنا بمفردنا. فما كان لها سوى القول:

- حسنًا يا شباب سأنتظر في الأعلى مع العجوز العابسة.

بعصبية تدخلْتُ:

- عودي إلى هنا يا سيلينا، أنت لست غريبة ولا مشكلة إن سمعتِ ما سيقال.

عادت سيلينا مسرعة ووقفت إلى جانبي بينما أعلن العم ألبيرت استسلامه وقام منتظرًا الكلمة من شقيقته الكبرى التي وضعت كرة الصوف جانبًا قائلة:

- لقد انتظرتُ هذا اليوم منذ أن كنتُ في العاشرة من عمري، كنتُ أعلم أنه سيحين مهما طال الزمن.

ابتلعتُ خوفي منها واقتربت برفقة أصدقائي الصامتين قائلًا:

- هل يمكن لك أن تشرحي تلك الرؤية التي تحدث عنها شقيقك؟.

ابتسمت بثقل وهي تجيب:

- في يوم من الأيام وصلتني رؤية من السماء فحواها أنه سيحين وقت يخرج فيه من بين سكان جزيرة النور شخص مشوه خِلقيًا يحررهم من حكامهم الفاسدين ويرشدهم نحو الطريق الصحيح.

كاد إيمو أن يسقط على الأرض وهو يتمتم واضعًا يده على صدره:

- ماذا؟ لكن...

قاطعته ساشينكا قائلة:

- دعوني أشرح لكم بالتفصيل. سأجمع لكم خلاصة كل رؤية توصلتُ بها ونبوءة رأيتُها. تَم تعليمكم في دينكم أن النورانيين قد نزلوا إلى الأرض قبل ملايين السنين وحكموها بدين الهلييث لكن البشر غدروا بهم فتركوها وعادوا إلى السماء. ثم قبل مئة سنة عادوا مانحين فرصة ثانية لما تبقى من البشر على كوكب الأرض ليحكموهم حتى يحين يوم الانعتاق، اليوم الذي ستفنى فيه الأرض ويدخل كل من احترم الدين وتعاليمه إلى الجنة مباشرة. أليس ذلك صحيحًا؟.

أجبنا بالإيجاب باستثناء سيلينا التي لا تنتمي لهذا الموضوع، فعادت ساشينكا لإكمال سردها قائلة:

- لقد خُدِعتم يا أولادي، أنتم وكل سكان تلك الجزيرة الطاهرة. تم إخباركم بجزء صغير من الحقيقة بينما تلاعبوا بالباقي. النورانيون لم ينزلوا مجددًا إلى الأرض بعد غدر البشر بهم قبل ملايين السنين. لا أحد منهم نزل قبل مئة سنة وحكمكم.

تبادلنا نظرة استغراب تلتها ابتسامة استهزاء بهذا الجنون التي تتلوه على مسامعنا هذه العجوز. فكان واجب على أحدنا تصحيح معلوماتها الخاطئة. قالت مايا مستطردة:

- لا بد أنك مخطئة. منذ مئة سنة يحكمنا نورانيون نسميهم بجماعة الأيادي البيضاء.

ضحكت العجوز قائلة:

- هنا تكمن الخدعة يا ابنتي، تلك الجماعة التي تحكمكم ليسوا بنورانيين، إنهم فقط أوغاد درسوا مليًا فرصة انقضاضهم على أناس أبرياء بحثًا عن أشياء أخرى لا علاقة لها بالدين.

صمتَتْ لثوانٍ ثم عادت لتكمل:

- عندما صعد النورانيون الأصليون بخيبة أملهم في البشر قبل ملايين السنين إلى السماء، قرر الإله عدم إنزالهم مرة أخرى وحفظ هذا الدين المقدس في جزيرة النور. كان حينها الشيطان هو السبب في وسوسة عقول البشر كي ينقلبوا على النورانيين المباركين. لكنه علم أن خلاصه في القضاء على الكتاب المقدس كي تحرر قواه أكثر ويصبح قادرًا على حكم العالم. فقرر بعد ملايين السنين إرسال ثلاثة من خدمه الأوفياء الذين جندَهُم ودربهُم طوال تلك المدة من أجل مهمته السامية. فهو علِم أن الإله قد أنزل الكتاب المقدس في مكان معلوم لسبب معلوم. هؤلاء الخدم هم جماعة الأيادي البيضاء. اتخذوا أشكال النورانيين وخدعوكم بنسخة مزيفة عن دين الهلييث بعد إعادة صياغة الكتاب على طريقتهم. مهمتهم كانت تربيتكم على طاعتهم العمياء، وإدخال فكرة كُره المشوهين خلقيًا في عقولكم عمدًا، لأن الشيطان أرسلهم كي يجدوا المختار، هو ذلك المشوه خِلقيًا الذي

إن حصلوا على دمائه أو قلبه، يستطيعون فتح الكتاب المقدس الأصلي والقضاء عليه كي تحرر قوى الشيطان المسجون في الجحيم بأمر من الله. لذلك كانوا يدعُون طرد المشوهين خِلقيًا لكنهم في الواقع كانوا يحتفظون بهم ويجربون دماءهم وأعضاءهم بحثًا عن المختار. مع الأسف يا أبنائي، لقد تم خداعكم بنسخة عن دين مزيف وتعاليم مزيفة وحكام مزيفين. عِشتم كذبة كبيرة منذ مئة سنة أبطالها ثلاثة شياطين.

الصدمة، ولا شيء سوى الصدمة. هذا كل ما جال في خاطري بعد سماعي أن كل ما عشتُ عليه لسنوات طويلة كان كذبة. كان من المفترض أن أطير فرحًا. لم يعُد هنالك سبب لأمقُت نفسي بسبب تشوهي الخلقي، ولا أن أخاف من مشاركة شكوكي حول جماعة الأيادي البيضاء مع أحد. الدين ليس بتلك القساوة التي اعتقدتُ أنه عليها. لكنني لم أشعر بأي حس للسعادة في داخلي. لسخرية القدر، شعرت بالحزن، كطير تم حبسه في قفص طوال حياته، وما إن فُتح الباب أمامه للطيران حتى شعر بالذنب لمغادرته هذا السجن الذي تعودَ عليه. مهما كانت معتقداتك وآراؤك حول نمط الحياة الذي تعيشه، ومهما حمَلَته الضفة الأخرى من إشراق بعد الحقيقة، ستحزنُ حتمًا عندما تكتشف أن كل حياتك كانت مبنية على كذبة، ستثور وتكره كل من كان السبب في ذلك. تمامًا كما أشعر الآن.

تأملتُ الوجوه من حولي، وجدت مايا متسمرة في مكانها بعين ممتلئة بالدموع، وإيمو المسكين فَقَد القدرة على الوقوف فجلس على الأرض معلنًا استسلامه وهو يضع يده على جبينه، بينما توسعَت عين سيلينا محاولة استيعاب الكم الهائل من معلومات لم تفهَم منها شيئًا يذكر. لكن العم ألبيرت، لم تتحرك عيناه من اتجاهي. كان ينظر إليّ بشكل غريب طوال الوقت، على الأرجح ينتظر مني ردة فعل لما سمعته.

- ماذا عن المختار؟.

أجابت ساشينكا على سؤال مايا بلا تردد:

- إنه المشوه الخلقي الذي بينكم. الرؤية لم تخبرني بهويته، لكنها أخبرتني أنه سيحط رحاله في هذا المكان.

توجهَتِ الأعين نحو إيمو، المسكين الذي كان جسده يرتجف بالكامل وهو يقول:

- لا أصدق، أنا مجرد إنسان عادي، كيف لي أن أحرر شعبًا وأقضي على الأيادي البيضاء بمفردي؟ أنا بالكاد أعرف الهرب. لا أستطيع حتى حمل سلاح والقتال.

- القدير اختارك لسبب معين. أنت تملك قدرات خاصة لا يعلم بها سواك. لا بد أنك شعرتَ باختلافك عن الآخرين. أنت من ستنقذ شعبك اليوم من بحر الدماء الذي شاهدته في كابوسي البارحة.

تدَخلتُ:

- ماذا رأيت في كابوسك؟.

- صراخ وأناس يموتون، حرب ستنشب بين طرفين بشكل غير متوقع على جزيرتكم.

- إنه نفس الحلم الذي رأيته البارحة أيضًا.

عادت الأنظار من حولي مجددًا، فقالت ساشينكا وعلامات الاستغراب بادية عليها:

- لا يمكن، هذا الحلم من المفترض أن يراه صديقكم المختار، كباقي الأحلام الأخرى. فالمختار يملك قدرة شبيهة بقدرتي هي التي تربطنا ببعضنا البعض..

أنكر إيمو أي علاقة له بعالم الأحلام والرؤى. بدأ عقلي يدور في حلقات مفرغة. أنا أرى كوابيس لا أعرف تفسيرًا لها منذ صغري بشكل دوري. أنا مشوه خِلقيًا، هل يعقل أن أكون... لا يمكن.. لا يمكن.. فالمختار لا يمكن أن يكون قاتلًا بارد الدم. كيف لقاتل أن يكون السبب في خلاص شعبه من الطغاة؟

مدَت ساشينكا يدها قائلة:

- أعطني يدك.

متردد، قلق، لا أعرف ما الذي تخفيه لمسة هذه المرأة. إنسانة استطاعت معرفة المستقبل والخبايا، قد تكشف سري أمام الجميع، ستخبرهم بالوجه الآخر الذي يحمله هذا الشاب ذو الملامح الدافئة. لكنني مجبر على الانصياع لها، فمصير شعبي يعتمد على ما ستنطق به شفاه ساشينكا مهما كان سيئًا. وَضعت يديَ على يدها فضغطتْ عليها بقوة وأغمضت عينيها حتى شعرتُ باهتزاز كبير في جسدي وارتفاع حرارة مفرطة يجتاحني شيئًا فشيئًا. تركتْ يدي والدموع تنزل من عينيها وهي تقول بصوت عالٍ:

- إنه هو.. المختار.. لقد رأيت كل شيء. أنت المختار يا آدم.

تقدمت مايا قائلة:

- أنت مخطئة يا سيدة، قبل قليل قلتِ أن المختار مشوه خِلقيًا. آدم ليس مشوهًا..

سمعتُ صوت العم ألبيرت في الخلف يقول:

- لنسمع ما يقوله المعني بالأمر أولًا.

صمتَ الجميع. شعرتُ وأنا أوجه نظراتي نحو الأرض بعيونهم تلتهمني، ترمي بسهامها نحو ظهري فتخترقه بلا رحمة منتظرة ردًا مني. وأنا، الذي غرقتُ وسط بحار دموعي، اختبأتُ تحت خصلات شعري التي أخفتْ وجهي

بالكامل. لم أتخيل يومًا أن لحظة مثل هذه ستحين بنفس هذه القسوة. إنها لحظة المواجهة مع نفسي ومع الآخرين، عراء مفاجئ لحقيقة طويتها وسط ثوب الكتمان الأسود.

- نعم أنا مشوه خِلقيًا.

لم أعلم إن استطاعوا سماع صوتي بوضوح رغم موجات البكاء التي عبثتْ بحباله. لم أسمع سوى شهقة هلع من مايا. رفعتُ وجهي أخيرًا ومسحتُ دموعي. لا داعي للبكاء والخوف بعد الآن. كل شيء بات واضحًا. لم يعد لدي أي شيء آخر لأخسره. هزت مايا رأسها نافية لما سمعَته. ثم قالت:

- مستحيل. لا يوجد أي عيب فيك يا آدم.

- بلى يوجد. أنا أحمل قلبًا في جهة اليمين منذ أن كنتُ صغيرًا. لا أحد يعلم بسري سوى جدتي.

بينما فقد إيمو القدرة على الحديث، امتلأتْ عيون مايا بالدموع قائلة:

- كيف لك أن لا تثق بي؟ أنت تعلم أنني من المستحيل أن أخونك. لم أفعل ذلك مع إيمو فكيف لي أن أطعن أقرب شخص لي في هذا الحياة؟.

- الموضوع ليس ثقة. إنه خوف. كنت خائفًا من خسارة جمال نظرتكِ التي تراني كاملًا رغم نواقصي.

نطق أخيرًا إيمو قائلًا:

- إذن آدم هو المختار الذي سينقذ شعبنا؟.

ابتسمت ساشينكا قائلة:

- نعم. هو من سيقضي على الأيادي البيضاء ويُخرج الكتاب المقدس الحقيقي من مخبئه. سيكون السبب في ظهور طائر العنقاء وقدومه لحمايته..

أدرتُ وجهي نحوها قائلًا:

– ما علاقة العنقاء بي؟.

– العنقاء هو حارس المختار الذي أرسله القدير إليه. لكن كي يأتي إليك يجب أن تُكمل الشرط الوحيد لذلك، تضحية مقابل تضحية. العنقاء لن يأتي إليك سوى بعد أن تضحي بحياتك من أجل شخص آخر..

– أين هو الآن؟.

– لا أملك إجابة على سؤالك. القدير وحده يعلم ذلك..

عدنا إلى الصمت مجددًا. لكن هذه المرة كان عقلي يصرخ بفكرة واحدة، كيف لي أن أكون المختار الطاهر الذي سيأتي العنقاء بنفسه ليكون حارسه وأنا قتلتُ شخصًا بريئًا؟ السر الثاني الذي أخفيته عن الجميع لا بد أن يُكشف. لعلني لست المختار الحقيقي. هنالك فرصة أن يكون إيمو هو المختار. لا حل أمامي سوى البوح بسري. علمت حينها أنني إن كنت قد جعلت مايا منزعجة مني لإخفاء تشوهي الخلقي عنها، فهي الآن ستكرهني حتمًا، ستنظر إليّ بنظرة قاتمة، نحو قاتل منعدم الإحساس.

– هنالك سر آخر يجب أن تعلموا به. قد يكون الشيء الذي يعفيني من هذه المهمة.

تقدمتُ في منتصف الغرفة قائلًا:

– السبب الرئيسي لهروبي من الجزيرة لم يكن حول تشوه صديقي الخلقي. خلال مهمة إنقاذ إيمو قمتُ بقتل حارس البرج الذي كاد أن يمسك بنا.

تدخل إيمو:

- لا، صدقوني هو لم يقم بذلك عن قصد، أنا السبب في كل شيء. هو قام بذلك لإنقاذي، لولاي لما وصلنا لهذا الوضع. كان باستطاعته العيش بسلام لأن تشوهه الخلقي مخفي. أنا من دمرتُ حياته.

- ذلك لا يخفي حقيقة أنني قاتل. أنا شخص سيئ. يستحيل أن أكون المختار. القدير لا يمكنه أن يختار شخصًا مثلي لأجل هذه المهمة النورانية الجليلة..

بشكل غير متوقع تكلم العم ألبيرت بلهجة واثقة قائلًا:

- لستَ أنت من قام بقتل الحارس رغم انعدام خبرته في القتال. أخبريه يا ساشينكا.

أجابت ساشينكا:

- عندما كانت والدتك حاملًا بك، قام النورانيون بمباركتك وأنت وسط أحشائها كي تظل سالمًا. لكن الشيطان كان ينوي اجتياحك بشتى الطرق، لذلك حاول فِعل ذلك خلال ولادتك، وهي لحظة تتخلص منها من مباركة النورانيين لمدة ثانية واحدة، قام بضربك بلعنة هدفها أن يتخذ من جسدك مسكنًا له. لكن قدرة القدير قامت بحمايتك فلم تنجح سوى نصف اللعنة. لذلك صار نصفك بشريًا نوارنيًا طاهرًا والنصف الآخر شيطانيًا. ذلك النصف الشرير هو الذي يستيقظ فيك في كل مرة تغضب فيها وتفقدُ السيطرة على نفسك. الشيطان بداخلك يتحكم بك حينها ولا تشعر بأي شيء من أفعالك. أنت بريء مما اقترفَته يداك.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أجثو على ركبتيّ واضعًا يدي على صدري أبكي بحرقة لكن هذه المرة بدموع فرح أكثر من الحزن. إنها لحظة ارتياح، لحظة قلبت كل الموازين وغيرت نظرتي لنفسي. تخلصتُ من تأنيب الضمير ورؤية نفسي على أنني مجرم. شكرتُ القدير على نعمته، نعمة الحقيقة، التي رغم

كل ما حصل معي من قبل، كُتب لها أن تظهر وتعيد شتات نفسي لمكانه. فهمتُ الآن لما قيل لي من قبل أنني أملك ظليّن. إنه الشيطان الذي يسكنني، يلاحقني أينما ذهبت باحثًا عن فرصة صغيرة كي يتحكم بجسدي ويحولني إلى نسخة عنه.

- إذن القدير ليس ساخطًا عليّ بسبب ما فعلتُه طوال حياتي من قتل وعدم احترام دين وتشوه خلقي؟.

أومأت ساشينكا برأسها وابتسامة كبيرة تطغى عليها:

- القدير لا يخلق شيئًا عبثًا. القدير كامل، لا يخلق مشوهين، بل أشخاصًا مميزين. وأنت مميز. أنت الأمل الأخير لدى البشرية. لا خيار أمامنا سوى الاعتماد عليك. لا بد أن القدير اختارك لسبب ما.

شعرتُ بتعب كبير، ثِقل على كتفيّ وألم في رأسي. جلستُ بالقرب من سيلينا قائلًا:

- ماذا سأفعل الآن؟ لا أستطيع إنقاذ شعبي بمفردي. ولا أعرف حتى كيف أتصرف.

أجابتني:

- لا أحد يعلم الإجابة سواك. ابحث في أعماقك وستجد الحل. ثق في حدسك والحق به.

قامت من مكانها أخيرًا فبَدت أطول بكثير مما اعتقدّت:

- آدم، لقد قمتُ الآن بمهمتي. أخبرتُ المختار برسالة القدير له، والباقي يظل بين يديك. أنا متأكدة أنك ستجد الإجابة لكل الأسئلة، القوة لحل كل المصاعب، والحب لقتل كل الكره. في اللحظة التي ستقتُل فيها جماعة الأيادي البيضاء، ستكون لحظة ولادتك من جديد. ما زال الطريق أمامك طويلًا.

- ألم تأتِك رؤية عما سيحصل لي مستقبلًا؟.

- ليس بعد. الرؤى تعتمد على تصرفاتك. مع الوقت سأرى أشياء جديدة وسأقوم بواجبي كاملًا لإرشادك بما يخبرني به القدير. إلى ذلك الحين، فلتحل عليك مباركة القدير.

تقدم العم ألبيرت قائلًا:

- يجب أن نتركها الآن، إنها متعبة وتحتاج إلى النوم. هيا بنا.

لم تكن ساشينكا الوحيدة التي تشعر بالتعب. فأنا أيضًا قد تخدر جسدي من شدة المقاومة ومحاولة استيعاب ما سمعتُه في دقائق معدودة. ودعناها ثم خرجنا من القبو في صمت وصولًا إلى البهو حيث كانت تجلس السيدة العبوس تشرب قهوتها متجاهلة وجودنا. فتحَت سيلينا الباب وتقدمَت نحو الحقل برفقة مايا وإيمو بينما أشار لي العم ألبيرت كي أظل معه ليحدثني على انفراد. نظرّتُ إليه بعينين متعبتين قائلًا:

- هل كنتَ تعلم أنني المختار؟.

- كانت لدي شكوك حولك. تصرفاتك ونظرتك لجماعة الأيادي البيضاء جعلتني أشك في أمرك. لكنني كنتُ بحاجة لإثبات. لم أرد أن أغامر وأخبرك بكل تلك المعلومات الخطيرة وأنا لا أضمن تصرفك.

- كان بإمكانك على الأقل أن تجعلني لا أرى نفسي بذلك السوء طوال سنوات. أنت لا تعرف كم عانيتُ في صمت، كم كرهتُ كل تفصيل في شخصيتي معتقدًا أنني أسوأ شخص على تلك الجزيرة.

وضع يده على كتفي قائلًا:

- أشعر بك يا بني. لكن صمتي كان في مصلحتك. لا يمكن المخاطرة بالمختار. لقد قمتُ بذلك لحمايتك.

صمتَ قليلًا ثم عاد ليكمل:

- أنت لست الوحيد الذي عانى في الحياة. أنا أيضًا لم أعش حياة طبيعية. ضحيتُ بالكثير من أجل حماية شقيقتي وشعبكم. غادرتُ أرضي وانفصلت عن ناسي كي أحقق أمنية شقيقتي في إيجاد المختار وإرشاده. عشتُ سنوات بهوية مفبركة منعزلًا عن الجميع في حياة باردة. لقد كانت لحظة انفراجي عندما جئتَ عندي حاملًا تلك الورقة تهددني بها. حينها تيقنتُ أنك المختار، وسمحتُ لك بأن تعرف ذلك بنفسك لأنني لو أخبرتك بالحقيقة آنذاك ما كنتَ ستصدقني.

لقد كان محقًا. لأول مرة بعد أيام من نظرتي القاتمة عنه وعن حياته السرية وغياهبه الغامضة، تفهمتُه أخيرًا. تقبلتُ حقيقته كما هي. أي شخص مكانه كان ليفعل نفس الشيء ويختفي في بحر الأسرار الخاص به. هل من المفترض عليه أن يصرخ وسط الجزيرة عاليًا ويقول حقيقته وسبب وجوده فيها كي لا يبدو كاذبًا بنظري؟ لو فعل ذلك لكان قد دمر نفسه ودمرني. ما كانت الأيادي البيضاء لتتهاون في القضاء عليّ بلا رحمة. اعتذرتُ منه بخجل كبير وأنا أحدق في حذائي المتسخ فرد ضاحكًا:

- لا تعتذر يا فتى فأنت لم تقم بأي شيء خاطئ في حقي. أنت كنتَ أفضل مما توقعته.

- تخيل كم ستفرح جدتي لو علمت بالحقيقة، وكم ستتغير نظرة أمي السلبية عني كذلك.

- لا أحد الآن عليه أن يعلم بذلك..

- أنت محق. لكنني لا أعرف حتى كيف سأتصرف. شقيقتك ليست من النوع الذي يشرح بالتفصيل.

عاد العم ألبيرت ليضحك ثم قال ساخرًا:

- إنها أمور تجري في دماء عائلة جيبرو. لا تلُمها فهي أخبرتْك بما رأته فقط.

- بمفردي لا أستطيع الإطاحة بالأيادي البيضاء. خصوصًا أن الشيطان لا يزال يسكن جسدي.

بنظرة حادة موجهة نحوي قال:

- لا تركز في الجزء الشيطاني منك. حاول محاربته. فأنت طوال ثماني عشرة سنة لم ترضخ له. رغم كل شيء قلبك لا يزال طاهرًا. وهذا سبب وجيه ليحقد عليك الشيطان ويبذل جهدًا كبيرًا ليجتاحك أكثر فأكثر. تمَسك بالجزء الطيب منك، الجزء الذي ضحى لإنقاذ صديقه وذلك الصوص المسكين..

- أتمنى أن ذلك الجزء الطيب مني قد ينجح في مهمة القدير.

حركَ رأسه معلنًا إجابته بنعم. ثم قال:

- سأخبرك بمعلومة قد تحتاج إليها في مهمتك، النورانيون الأصليون يملكون بالطبيعة شعرًا أبيض طويلًا وبشرة صافية بشكل كبير وعيون زرقاء بلون السماء. الأيادي البيضاء في الأصل شياطين، لذلك أشكالهم مصطنعة فقط. لا البياض حقيقي ولا ألوان شعرهم كذلك. الشياطين تملك لون شعر أسود قاتمًا وعيونًا حمراء. وكي تفضح صورتهم الحقيقية عليك رشهم بمياه البحر المحيط بالجزيرة لأنها مقدسة. هم لا يستحِمون خوفًا من نزول اللون الأبيض المصطنع وسقوط زجاج عيونهم الزرقاء المفبركة.

شعرتُ بدقات قلبي تزداد وأنا أفكر في المواجهة بيني وبينهم، وخطر على بالي سبب رغبة إيفا باختطاف شقيقته، فسألتُه مباشرة عن ذلك قبل أن أنسى وسط زحمة الأفكار. أجابني:

- بعد تَركي أرض الأحاديين مباشرة قامت ساشينكا بنشر رؤيتها بقدوم المختار إليهم تحسبًا لموتها قبل حدوث ذلك كي يستقبله السكان ويساعدوه. لم يهتم لكلامها أحد معتقدين أنها مجنونة، من بينهم ماركوس. لكن إيفا رغم صغر سنها آنذاك ظلت تتذكر بالتفصيل كل كلمة قالتها. واليوم بعد قدومكم إلى أرض الأحاديين علمت هذه الأخيرة أن رؤية شقيقتي قد تحققت. خوفًا من أن يثير ذلك بلبلة في المكان قَررتْ قتل شقيقتي قبل أن يتذكرَ أحد نبوءتها. الشكر للقدير أنني أملك جاسوسًا يعمل معها أخبرني بمخططها قبل ساعات قليلة فقط من إرسالها للقاتل المأجور.

- هذه المرأة كارثة على أرضكم.

- والجزيرة أيضًا.

رمقته بنظرة استغراب. ليجيب:

- إنها تنوي اجتياح جزيرتكم منذ وقت طويل، وذلك للاستفادة من خيراتها. لكنها ليست كوالدها، فهي ستتعمد القضاء على سكانها عمدًا. إيفا تنتظر فقط الفرصة أو الحجة المناسبة لذلك.

- وماذا عن إيغور؟.

ابتسم قائلًا:

- إيغور آخر شخص يمكنه أذية الجزيرة. لا تقلق سيكون في صفكم دائمًا.

- أجد من الغريب أن يكون متسامحًا معنا ومتضامنًا مع جزيرتنا ضد مصلحة أرضه. هل تخفي عني سرًا آخر حول ذلك؟.

رفع حاجبيه والابتسامة ذاتها ما زالت مرسومة على محياه مجيبًا:

- هذه المرة لستُ أنا الذي يخفي السر..

باستسلام تام قلت وأنا أغادر لاحقًا بأصدقائي:

- لا يهم، فلا شيء سيفاجئني بعد الآن. أراك لاحقًا.

- لا أظن أننا سنرى بعضنا بعضًا قريبًا.

- لم؟.

- علينا الاختباء من إيفا، ودوري معك قد انتهى عند هذا الحد. لقد قمتُ بواجبي وأنا الآن مرتاح الضمير. لكنني سأكمل في حماية شقيقتي من أجلك أكثر مني. فأنت تحتاج إليها في طريقك لتنفيذ مهمتك. ما زالت الطريق طويلة وما زلت في حاجة لمعلومات منها كي ترشدك.

أجبته بتحية موافقة قبل أن أدير ظهري وأكمل طريقي، فجأة توقفتُ وقلت له بصوت عالٍ:

- بالمناسبة، ستظل دائمًا بالنسبة لي العم ألبيرت معلمي..

ابتسم وهو يغلق الباب خلفه في هدوء تام دون أن يجيبني. وضعتُ يديّ في جيبيّ ولحقت بأصدقائي الذين لا أعرف إن كانوا لا يزالون يعتبرونني صديقًا لهم بعد كل ما سمعوه مني قبل قليل. مشينا وسط الحقل في صمت تام. لا أحد منا ينظر إلى الآخر، لا أحد يحاول الاستفسار عما دار بيني وبين العم ألبيرت أو حتى يلومني أي منهم عما أخفيته لسنوات. حتى سيلينا التي لا تتوقف عن الثرثرة منذ أن التقيت بها، بدَت عاجزة عن تلطيف الأجواء كعادتها.

اضطررنا لقضاء اليوم بأكمله نتجول في كل مكان كي نثبت لمن يراقبنا أننا فقط نقوم بجولة للتعرف على الأرض برفقة سيلينا. كان ذلك بمثابة عذاب لا ينتهي. قضاء ساعات صامتًا أبحث فيها وسط عقلي عن إجابات

لأسئلة لا تنتهي، وتخيُّل ما قد يقع لي في حال فشلْتُ في المهمة، جعلاني أتوه أكثر فأكثر. صرتُ عاجزًا عن معرفة أيهما أفضل: العيش وأنا أجهل من أكون وأظل ذلك الشخص الملعون من القدير في نظري، أم معرفة أنني لست سوى ضحية لمهمة شبه مستحيلة والقدير راضٍ عني. لكن أكثر ما كسرني داخليًا، هي حقيقة أنني قد خسرت مايا إلى الأبد. تلك الفتاة التي كانت تلمع عيناها في كل مرة تنظر فيها إليّ في يوم من الأيام، هي الآن تتهرب من النظر إليّ لجزء من الثانية. ما كنتُ أعتقد أن خسارتها ستكون بمثابة شرخ بهذا العمق بالنسبة لي. ما كنت أظن أن تلك الفتاة الخجولة والحكيمة، التي كانت تلازمني كظلي، هي حقًا تملك جزءًا كبيرًا من قلبي. نحن لا نقدر الأشياء التي نملكها سوى بعد خسارتنا لها.



الفصل الثالث
«الانعتاق»

بعد يوم شاق عدنا أخيرًا إلى مبنى إيغور الخاص. صَعد الجميع باستثناء سيلينا التي لم تدر كيف تبدأ الحديث معي فصارت تدور في حلقات مفرغة حتى استسلمت وقالت لي:

- اسمع، أنا لست جيدة فيما يخص الرياضيات والعلوم وما شابه. وفاشلة في المواساة أو إيجاد كلمات منمقة للتعبير. أعترف أنني بالكاد فهمتُ ما قيل لك من طرف العمياء اليوم. لكنني حقًا آسفة لما اضطررتَ أن تعيشه وما ستتحمله من أعباء. حقًا لو كنت مكانك لانتحرت على الفور وتركتُ الجميع يحل المشكل.

أجبتها بابتسامة تحمل طعم البكاء:

- أتدرين، أنت الوحيدة التي تشعر بالأسف عليّ اليوم. ليتني مثلك، لا أريد أن أكون ذكيًا.

ربتت على كتفي قائلة:

- لا تحزن، مايا وإيمو لا يمكن أن ينزعجا منك فأنت لست مذنبًا في شيء. إنهما فقط مصعوقان لما سمعاه للتو. مختار ونبوءة وعنقاء.. بالمناسبة ما هو طائر العنقاء؟ لم أسمع عنه من قبل؟.

دخلنا معًا إلى المبنى وأنا أشرح لها قائلًا:

- إنه طائر أسطوري بريش أحمر وبرتقالي اللون وحجم هائل الكبر يشتعل بالنار محلقًا عاليًا في السماء.

بدت علامات التعجب عليها قائلة:

- هذا رائع. سيأتي هذا المخلوق ويكون حارسك؟ أنت محظوظ.

- لكنني لم أفهم كلام ساشينكا عندما قالت أنه سيأتي بعد تضحية ليعيد لي نفس التضحية. كيف؟.

توقفتُ فجأة عن الحديث، وشعرتُ بتصاعد الدم بشكل مباشر من أسفل قدميّ وصولًا إلى رأسي. بدون كلام ركضتُ بأقصى سرعة نحو الغرفة حتى كدْت أن أسقط مرارًا على الأدراج لولا مساعدة سيلينا لي في الثبات وهي تركض خلفي وتسألني بلا توقف عما يحصل لي. كانت أذناي عاجزتين عن سماع أي شيء سوى صوت أنفاسي ودقات قلبي المتسارعة. فتحتُ باب الغرفة بقوة فإذا بي أجد جزءًا من سريري قد احترق، والنافذة المجاورة له دُمرت تمامًا وصار في مكانها ثقب كبير بمحيط أسود ناتج عن احتراق قوي. صرخْت بأعلى صوتي مناديًا على آنجلا التي ركضَت مرعوبة نحوي برفقة جدتها ومايا وإيمو:

- أين الصوص؟.

اختفى الدم من وجه الفتاة التي أجابتني بشفاه مرتجفة وهي تنظر إلى الغرفة قائلة:

- أطعمته قبل ساعات ووضعته نائمًا على سريرك في سلام..

نَظَرَت إليّ سيلينا قائلة:

- ما الذي يحصل يا آدم؟.

جلستُ على حافة السرير وقلتُ بصوت مبحوح:

- إنه هو. الصوص هو العنقاء الذي حدثتنا عنه ساشينكا. لقد كانت محقة في كل شيء. عندما قالت أن العنقاء لن يأتي إليّ قبل أن أضحي من أجله ليرد لي نفس التضحية. أنا ضحيت من أجل إنقاذه في تلك الغابة وغامرت بحياتي. لقد كان الأمر برمته عبارة عن اختبار منه ما إذا كنت أستحقه. الصوص كان مجرد صورة اتخذها كي يخفي نفسه. والآن بعد أن عرفتُ الحقيقة، غادر.

اعتلت الصدمة وجوه الجميع. فقال إيمو:

- لمَ رحل بما أنك علمتَ بكل شيء الآن؟.

- هذا ما لا أعرفه. لا بد أنه ينتظر فرصة ليعيد لي نفس التضحية في يوم من الأيام، أو أنني ما زلت لا أستحقه بعد.

بخيبة أمل كبيرة غادر الجميع الغرفة غير مدركين ما عليهم قوله لمواساتي. تعمد إيمو التأخر وبدأ كعادته يبحث عن كلام مناسب للوضع وهو يحدق في الأرض تارة والسقف تارة أخرى.

- بخصوص ما حصل اليوم، أريد أن أعتذر منك عن كل المتاعب التي حصلت لك بسببي. رغم عدم معرفتك أنك المختار فإنك ضحيت من أجلي، وهذا يجعلك إنسانًا استثنائيًا. شكرًا لك.

ابتسمت بعد سماع كلام كنت في حاجة ماسة إلى سماعه في يوم متعب وأجبته:

- أنا من عليّ شكرك، بسببك تشجعتُ وقمتُ بالخطوة التي يعتمد عليها مصير شعبي بأكمله.

أثناء مغادرته قال بلهجة لم أعهدها منه من قبل:

- تذكر أن لك شقيقًا أصغر منك اسمه إيمو، سيقف دائمًا إلى جانبك ويساعدك في مهمتك. ليلة سعيدة.

شعرتُ بارتياح كبير بعد معرفتي لدعم إيمو لي في هذه المهمة المستحيلة. استلقيتُ خائر القوى على سريري شبه المحترق أحدق في السقف لوقت طويل. إنها المرة الأولى التي لم يخطر على بالي شيء مطلقًا. المرة الأولى خلال ثماني عشرة سنة يتوقف عقلي عن العمل ويركز في شيء واحد فقط، السقف الرمادي. الهدوء الذي عم الغرفة كان بمثابة الجائزة التي أخذتها اليوم عن جدارة واستحقاق كبيرين.

لم يدم الهدوء طويلًا. دخلتْ مايا قائلة بنبرة صوت خافتة:

- هل أستطيع الحديث معك؟.

رفعت رأسي من الوسادة ثم اتخذت جلسة معاكسة نحو النافذة المكسورة قائلًا:

- إن كنتِ قادمة لتوبيخي تفضلي. هذا أفضل من صمتك، فأنا على الأقل سأعرف كم أصبحتُ بشعًا في عيونك بعد كل ما علمتِ به عني.

لم تجبني، بل تقدمَتْ وجلسَتْ بالقرب مني، كلانا لا ينظر للآخر، عيوننا تركز على المنظر خارج النافذة في السماء الحالكة بالظلمة. ثم قالت:

- أتدري شيئًا، طوال الساعات الماضية بدوتُ صامتة وهادئة، لكن في داخلي كان هنالك بركان مشتعل، لم أتخيل أن الشخص الذي أثق به أكثر من أبي، واعتقدت طوال حياتي أنه يثق بي أيضًا، قد أخفى عني أسرارًا كان بإمكاننا مشاركتها وتخفيف حدتها. أخافتني أنانيتك. وأرعبتني فكرة أنني أحببتُ نسخة مزيفة عنك لسنوات طويلة. لا أنكر أنني شعرت بالهلع عندما علمتُ أنك قتلتَ حارسًا بضعفي حجمك بمفردك، قد يبدو كلامي لك قاسيًا، لكنني كما عهدتني، صريحة لا أعرف الكذب.

بصوت متعب أجبتها:

- لا ألومك على شيء يا مايا. أعترف أنني كنتُ مخطئًا عندما أخفيتُ عنك هذه الأسرار. لكنك لن تعرفي يومًا حجم المعاناة التي مررت بها طوال حياتي وتفاقمها في الآونة الأخيرة. كل مرة أرى فيها نفسي في المرآة المخبأة في غرفتي أرى شيطانًا كريهًا، يقشعر بدني عندما تلومني أمي على تقصيري في الدين، ألوم نفسي يوميًا على ما أنا عليه. لكنني اليوم رغم صدمتي بعد معرفتي أنني عشت خائفًا من دين مزيف، شعرت بارتياح كبير، المهمة التي أوكلني إياها القدير صعبة لكن على الأقل ذلك أفضل بكثير من أن أعيش حياتي وأنا أشعر بالخوف من نفسي ومن نظرة القدير لي كمشوه خِلقيًا. اليوم عشتُ يوم الانعتاق الخاص بي. تمنيتُ لو كنت أستطيع مشاركة هذا الشعور مع أهم إنسانة في حياتي. لكن...

أوقفتني عن الحديث واضعة إصبعها على شفتيّ قائلة:

- تكون مخطئًا إن ظننتَ أنني لا أشعر بك. أنا أشعر بك أكثر من أي شخص آخر في هذا العالم. وتكون مجنونًا إن اعتقدت أنني سأتخلى عنك وأخسرك. لقد كانت ردة فعلي ناتجة عن صدمة طبيعية. أنا أعرف أنك لم تختر أن تكون المختار، لم تطلب أن يسكنك شيطان يتحكم في جسدك دون وعيك. سأسامحك إن وعدتني بشيء واحد فقط.

- ما هو؟.

- أن لا تخفي عني أي شيء، لأن ذلك يذبحني داخليًا أكثر بكثير من أن تكون قاتلًا.

- أعدك.

عانقتني بحرارة وكأنها لم ترني منذ أعوام. إنها تعانق اليوم إنسانًا جديدًا. هذا ليس آدم الذي كانت ترتمي بين أحضانه في الجزيرة لثوانٍ قبل أن يراها الناس وتقوم الفضيحة، نفسه ذلك الشاب الذي كان عاجزًا عن إعطائها عناقًا يشعرها بأمان كامل لأنه كان يفتقره. لكن اليوم كل شيء اختلف. آدم القديم قد ولى مع زمن الدين المزيف والأيادي البيضاء.

أعادت رأسها إلى الخلف وقالت:

- ووعد آخر، توقف عن الحديث مع آنجلا بشكل مطول، إنها تغيظني بك.

أطلقنا معًا ضحكة عالية حتى دمعَت عيوننا كالأطفال. حدقنا معًا بالنافذة المكسورة وهي تضع رأسها على كتفي ثم قالت:

- سأشتاق إلى الصوص الصغير، هل تظن أنه سيعود قريبًا؟.

لمستُ شعرها الناعم مجيبًا:

- سيعود عندما يريد ذلك..

قامت من مكانها وهي تهم بالمغادرة قائلة:

- حسنًا سأتركُك الآن كي ترتاح. نم في سريري الليلة، أنا سأنام في غرفة الجدة ماريا. سأحضر لك العشاء لاحقًا لأنني أعلم أنك تحتاج لوقت بمفردك.

- شكرًا لك. بالمناسبة أين هو سيزار؟.

- لا بد أنه يتجول في أزقة المكان. سأتكلف بإخباره بما حصل اليوم لأننا نعرف كم سيفقد صوابه بعد سماع كل تلك الأهوال. ليلة سعيدة.

مر الوقت بسرعة بطيئة في هدوء ليل يجبرك على التفكير في أي شيء تحت حضرة الصمت. لم أسمع سوى صوت شخير إيمو النائم بالقرب مني متعبًا كطفل صغير. المسكين ظن اليوم أنه هو المختار. لو كان ذلك صحيحًا لكان قد توفي بسكتة قلبية من شدة الخوف. فجأة سمعت أصوات فوضى بالجوار. خرجْتُ من الغرفة مسرعًا ونزلت بأقصى سرعة من السلالم لأجد إيغور وسيلينا وسط مجموعة من الرجال يتحاورون بصوت مرتفع بوجوه بدت عليها علامات القلق والتحدي. ما إن لمحوني حتى صمتوا جميعًا. زادني الأمر قلقًا فتقدمتُ بينهم قائلًا:

- ما الذي يحصل هنا؟.

تبادلوا جميعًا نظرات غريبة فإذا بايغور يجيبني:

- إنها إيفا مجددًا.

- ماذا فعلتْ؟.

- أعلنَت حالة الطوارئ في أرض المارقين، لقد توصلوا لأجسام متفجرة قادمة من خارج الحدود انفجرت جميعها ومات الكثيرون.

- من بعثها؟.

نظر إلى سيلينا التي تكفلت بمهمة إلقاء الخبر على مسامعي:

- إنها تقول أنها من طرف جماعة الأيادي البيضاء عبر جزيرتكم. أرسلوها معلنين الحرب بسبب إيوائنا لكم بيننا.

اهتز قلبي وأنا أسمع هذا الخبر غير المناسب في الوقت الأسوأ على الإطلاق. فسألتها:

- هل تصدقونها؟.

عادت النظرات ذاتها بين الجميع. فكان المغزى واضحًا من خلال صمتهم.

- لا يمكن أن تكون جزيرتنا هي المرسل. نحن لا نملك إطلاقًا تلك المتفجرات المتطورة. أكبر وسيلة دفاع لدينا هي حراس وسهام خشبية حادة لا غير. يستحيل صناعة مثل هذه الأسلحة في جزيرتنا.

تدخل أحد رجال إيغور قائلًا:

- لا نملك أي أعداء خارج هذه الأرض ولم يحصل لنا شيء من هذا القبيل سوى بعد مجيئكم.

شعرتُ بخيبة أمل وأنا عاجز عن مجابهة هذه الاتهامات اللاعقلانية من رجال إيغور الذين بدت على وجوههم نظرة عزم وغل كبيرين نحوي. لكن تركيزي منصب حول كل من سيلينا وإيغور:

- إيغور، سيلينا، هل تصدقون ادعاءها؟.

أجابتني سيلينا:

- آسفة يا آدم لكن قبل ساعات اكتشفتَ عدة أسرار حول جزيرتك ودينك والأيادي البيضاء، إن كانوا شياطين عاشوا مئة سنة في هيئة ملائكة، من البديهي أنهم يخفون أسلحة وأشياء أخرى.

تدخل هذه المرة أحد من رجال إيغور يبدو عليه أنه يملك سلطة كبيرة قائلًا:

- لا يمكننا الوقوف في وجه إيفا وجيشها. ستحرضُ الجميع على القيام بحرب ضد الجزيرة، في حال لم ندعمها قد تقضي علينا. أعداد مناصريها أكبر بكثير منا. وأنا متأكد أن بعضًا من أرض الناريين سيلحقون بالمارقين في قرار الحرب لأن ما حصل يمس الأحاديين جميعًا. لا يوجد أي سبب يجبرنا على رفض التعاون معها. المجلس ستكون له كلمة الفصل.

أشار إيغور بيده للرجال نحو مكتبه للدخول والانتظار كي يقوموا باجتماع طارئ. اقتربْتُ منه قائلًا:

- أنا لست منزعجًا منك ولا ألومك على شيء. بالعكس أنا ممتن، فأنت ساعدتنا واستقبلتنا بينكم رغم اختلافنا. والآن تأتيكم المتاعب بسببنا. أعتذر كثيرًا منكم.

أجابني إيغور:

- لا تعتذر. أنتم ضيوف هنا وحمايتكم واجب علينا. في أرض الناريين لا أحد يستطيع الاقتراب منكم.

- أشكرك كثيرًا. لم أرد قط أن تصل الأمور عند هذا الحد.

- ليس ذلك ذنبكم، إنها مسألة بين الأيادي البيضاء وإيفا.

بتعب كبير قلت:

- وللأسف سيموت الأبرياء بسبب ذلك.

ربت على كتفي قائلًا:

- لا تقلق يا فتى، سنجد حلًا، بعد انتهاء الاجتماع مع أعضاء المجلس سنقرر ما علينا القيام به.

دخل إيغور مسرعًا نحو مكتبه بينما ظلت سيلينا واقفة بالقرب مني وقالت وهي تتفحص وجهي:

- الوضع سيئ جدًا، هجوم الأيادي البيضاء على هذه الأرض قلَبَ كل الأمور.

أجبتها بلهجة غاضبة:

- كم مرة عليّ تكرار أن لا علاقة لهم بهذا؟ الأمر برمته مجرد خدعة من طرف إيفا. أنا متأكد من ذلك.

- حسنًا اهدأ. أنا فقط صريحة معك بناءً على ما سمعتُه صباح اليوم من العمياء. تلك الجماعة خدعتكم لمئة سنة بدين مزيف، ألا تظن أن إخفاء قنابل متفجرة ممكن بالنسبة إلى مخادعين مثلهم؟.

مسحتُ العرق من جبيني وقلت:

- لا أريد الظن أو التفكير في شيء الآن. سيلينا هل أستطيع طلب شيء منك؟.

- طبعًا.

اقتربتُ منها وقلتُ بصوت منخفض:

- عديني أن تحمي أصدقائي ولا تسمحي بحدوث أي مكروه لهم..

- لا تقلق. إيغور أمر حراسه بالوقوف على غرفة نومهم وحراستهم. لكن لمَ استثنيت نفسك منهم؟.

لم أرد إجابتها والتزمت الصمت. فشعرتُ أنها علِمت بما يخطر في بالي. قالت وهي مفزوعة:

- إياك والخروج من هذا المكان أو ارتكاب حماقة. خارج هذا الحصن حياتك معرضة للخطر.

- لا تقلقي، لن أفعل شيئًا. أشكرك على تعاونك.

صعدتُ على السلالم كأنني عائد إلى الغرفة للنوم. وقفتُ بجانب الحائط أراقب الأجواء بتمعن. لمحت حراسًا يقفون بجانب أبواب الطابق العلوي، بينما تفرقَت مجموعة أخرى حول المدخل الخاص بالمبنى. شعرتُ أنني محاصر. لكن صوتًا بداخلي همس لي قائلًا:

- لن يمنعك أحد من إنقاذ شعبك.

دخلتُ غرفتي في هدوء تام تحت أعين الحراس. وقفتُ بجانب سرير إيمو النائم في سلام وأنا أفكر في طريقة مناسبة للهرب من هذا المكان. ما إن لمَحَت عيني النافذة المكسورة حتى لمَعَت في خيالي فكرة جنونية لا يمكن لغيرها أن ينجح الآن. سحبتُ غطاء سريري وربطتُ جزءه العلوي بقطعة حديد متبقية من النافذة المكسورة ثم ربطتُ الجزء السفلي حول خصري كما فعلتُ بالحبل عندما أردتُ إنقاذ الصوص الصغير في الغابة. أثناء مراقبتي للأجواء من خلال النافذة سمعتُ صوت إيمو خلفي قائلًا:

- آدم ما الذي تفعلُه في هذا الوقت المتأخر؟.

أدرتُ وجهي لأجده يفرك عينيه المنتفختين بالنوم.

- سأهرب من هذا المكان.

- لماذا؟.

اقتربتُ منه قائلًا بصوت منخفض:

- لا أملك الوقت لأشرح لك. شعبنا في خطر ومصيره يعتمد عليّ. سأذهب لأنقذه.

قام إيمو مفزوعًا من سريره قائلًا:

- سأذهب معك إذن، نحن في هذا الأمر معًا.

ضغطتُ على ذراعه قائلًا:

- أنت ستظل هنا لحماية مايا وسيزار، أنا أثق بك يا إيمو. لا تسمح بحصول مكروه لهما.

- لكن كيف ستخرج من أرض الأحاديين بمفردك؟ ستموت في طريق العودة.

- طالما أن القدير معي لن يحصل لي مكروه. إن كنتَ حقًا تريد مساعدتي أرجوك ابق هنا معهما.

هز رأسه موافقًا ثم عانقني بحرارة. تراجعتُ إلى الخلف وحملت ثوبًا أسود يعود لمايا ووضعتُه حول رأسي مخفيًا ملامحي ثم حملتُ حقيبتي الجلدية واستعددت للقفز من النافذة. بوداع قاسٍ قلت لإيمو:

- إن مُت أو حصل لي مكروه، أخبر مايا أنني أحبها.

ألقيتُ بنظرة خاطفة حول المبنى فإذا بي أجد المكان المقابل للنافذة خاليًا من الحراس. قفزْتُ بمساعدة الغطاء المربوط حول بطني مشكلًا حماية كبرى لي من السقوط. شعرتُ براحة نسبية عندما لمَسَتْ قدماي الأرض أخيرًا وتحركتُ في هدوء تام أحسب كل خطوة قبل القيام بها. تسللت بين الأشجار القصيرة حول المبنى وركضْتُ بأقصى سرعة مبتعدًا عن المكان بشكل نهائي. كان عقلي شبه متوقف عن التفكير في رحلة الهرب فلم أشعر بنفسي وأنا أركب النقالة وأصل إلى أرض المارقين.

كان الاحتقان واضحًا في المكان. تجمعَ العشرات من الناس حول رجلين من رجال إيفا وهما يتكلمان بلهجة ساخطة صارخين يعبران عن غضبهما مما حصل. رأيتُ آثار دمار حول المكان، وأمهات يصرخن بسبب موت أبنائهم. كان الرجلان بمثابة الزيت الذي سُكِب على النار، يشجعان الجميع على رد اعتبارهم ويمّقُتان سكان جزيرتنا متهمين الجميع فيها بالمشاركة في هذا العمل الإرهابي الخطير.

أحكمتُ قبضة الثوب الأسود على وجهي كي لا يتعرف عليّ أحد ثم توجهتُ نحو مبنى إيفا. ما إن وصلْتُ إلى هناك حتى أوقفني الحراس يستفسرون عن سبب قدومي. أجبتهم بكل ثقة:

- أريد مقابلة الكونتيسا إيفا. أخبروها أن الأمر يتعلق بهجمات جزيرة النور.

أدخلني حارسان بينما صعد الثالث إلى الأعلى لأخذ الإذن من الكونتيسا كما تحب أن تلقب نفسها (رغم أنني ما زلتُ لا أعرف معنى الكلمة). بعد ثوانٍ عاد الرجل وأشار إليّ كي ألحق به. بدون تردد لبّيْتُ النداء وسرنا معًا في الرواق المظلم نحو مكتبها وأنا لا أسمع سوى دقات قلبي القوية في أذني وعقلي الذي يعيد نفس الجملة بلا توقف: ماذا ستفعل يا آدم؟

دخلتُ المكتب القاتم كقلب هذه المرأة. أيقظني صوت إقفال الباب من غفوتي لأجدها جالسة على حافة مكتبها وهي تحمل سيجارتها البنية السميكة بين أصابعها المليئة بالخواتم. حدقتْ بي قائلة:

- قبل أن تتحدث، اخلع النقاب عن وجهك.

خلعتُ الثوب الأسود من وجهي وعيناي موجهتان نحوها مباشرة. بدَتْ متفاجئة جدًا لكنها أتقنت لعب دور المرأة الصلبة كعادتها، لأن هذا النوع من النساء يتغذى على خوفك حتى تمنع أن يشتم الشخص الآخر خوفها. ضحِكَتْ بثقل واضعة سيجارتها بالقرب منها قائلة:

- حسنًا حسنًا، لن أنكر أنني منبهرة بجرأتك الكبيرة التي ستؤدي لهلاكك حتمًا.

اقتربتُ منها قائلًا:

- كانت خطة جيدة منك أن تفجري قنابل في أرضك وتتهمين جزيرتنا بالجرم. لم أكن أظن أنك بلا رحمة لهذه الدرجة، تقتلين أفراد شعبك كي تحصلي على مرادك.

- التضحيات جائزة في سبيل السلطة.

استجمعت قواي مجيبًا:

- أنت تريدين السيطرة على الجزيرة وضمها لأرضك. وطبعًا لن تأبهي بموت المئات في سبيل تحقيق حلمك. مخططك سيبوء بالفشل.

بنظرة احتقار تفحصتني قائلة:

- وكيف ستبوء بالفشل أيها النوراني الذكي؟.

- سأفضح سرك وأظهِر حقيقتك لشعبك، حينها سأتفرج عليهم وهم يمزقون جسدك بلا رحمة.

- أنت تضيع وقتي ووقتك أيها الأبله. لن يصدق أحد شخصًا غريبًا قادمًا من مكان لا يجمعنا به أي شيء. أنتم مجرد ورقة رابحة قدمت بنفسها إلى أرضي دون أن أتكبد عناء شيء. أتظن أنني كنت عاجزة عن قتلكم عندما وصلتم إلى هنا؟ تركتم أحياء لأنني كنتُ متأكدة أنني سأحتاج وجودكم في هذا المكان. من خلال غبائكم سأصل إلى حلمي وأسيطر على أرضكم وأقضي على عرقكم.

ارتفعت الحرارة في جسدي وتقدمتُ نحوها حتى صار وجهها قريبًا مني:

- لن أسمح لكِ بذلك، حتى لو تطلب مني الأمر قتلك الآن.

أطلقت ضحكة سخرية عالية ثم قالت:

- حقًا؟ كنتُ أعتقد أنك ستدعو إلهك كي يتكلف بالأمر. أهو ضعيف لهذه الدرجة كي تنوب عنه؟.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أدفعها نحو الأرض لتسقط بقوة ثم امتطيتها وأنا أضغط على عنقها فإذا بها تباغتني بضربة قوية بكعب حذائها وتبعدني عنها. نادت على الحراس الذين اقتحموا الباب وانقضوا عليّ فورًا. قامت وهي تتفحص عنقها ثم رمقتني بنظرة حقد وهي تقول للحراس:

– خذوه إلى القبو الآن. أريدكم أن تحضروا أصدقاءه وتقتلوهم أمام عينيه...

توقفتْ عن الحديث فجأة ثم قالت:

– كدت أن أنسى شيئًا مهمًا، نادوا على الحارس الجديد. أريد أن يقود هذا الحشرة بنفسه نحو الموت.

أخرجني الحراس وهم ممسكون بذراعيّ خلف ظهري من المكتب منتظرين هذا الحارس الغامض. اعتقدتُ أن إيفا نادت على أضخم رجالها وأقواهم كي يعذبني حتى الموت. لم تكن الفكرة مخيفة كثيرًا. لكن بعد أن انكشفت هوية الحارس، تمنيت لو كان الخيار الأول متاحًا. لأنني لم أكن مستعدًا قط، أو أتخيل يومًا أن يقودني نحو الموت، صديقي سيزار.

حاولتُ تكذيب عيني وأنا أتأمل سيزار قادمًا نحوي مرتديًا لباس الحراس الأسود وهو يحمل سلاحًا ضخمًا بين يديه. كل شيء تغير فيه، حلق شعره جيدًا وباتت مشيته رزينة عكس ما كانت عليه في الماضي. في يوم واحد بدا كأنه كبر عشر سنوات لكن.. نحو الأسوأ.

أشار برأسه للحراس الذين تركوني ودفعوني نحوه. سار خلفي وهو يوجه سلاحه إلى ظهري ثم قال:

– من فضلك تقدم دون مشاكل، لا تجبرني على أذيتك.

لم تسمح لي الصدمة من أن أقاوم أو أعارض شيئًا. كنتُ كتلك القطعة الخشبية التي تتلاعب بها أمواج البحر دون أدنى حركة منها. لم أظن أن طعم الخيانة بهذه المرارة من قبل، إنها كخنجر يمزق مشاعرك من الداخل ويغرز نفسه جيدًا كي يذكرك بحجم سذاجتك وثقتك العمياء بمن لا يستحقها، انكسار ينثر كرامتك وكبرياءك في السماء ويسلبك ثقتك في كل شيء، أولهم نفسك.

وجدت نفسي أدخل غرفة في القبو برفقة سيزار الذي كسر الصمت أخيرًا قائلًا:

- أعلم أنك الآن تسأل نفسك ما الذي أفعله هنا.

- لا أريد أن أعرف شيئًا. لا أريد أن أعرفك.

ابتسم ثم رد:

- آسف يا صديقي لكنني لا أريد الانتحار معك. لقد اخترتُ الجهة الرابحة. أنتم قدمتُم هنا بلا خطة ولا مصير معلوم. والنتيجة، ستموتون وكل سكان الجزيرة بعد يومين. لا أريد تدمير حياتي ووضع مصيري بين يديك يا آدم. أعلم أنك تكرهني الآن، لكنني فعلت الصواب ونجوت بنفسي.

متفاديًا النظر إلى وجهه قلت:

- لو انتظرتَ لساعات فقط، لكنتَ علِمتَ بالحقيقة حول كل ما حصل وما سيحصل..

ظهر الفضول على وجهه عندما سألني:

- أي حقيقة؟.

ابتسمت ببرود وأنا أجيب:

- فات الأوان على معرفة الخبر. أنت الآن في الضفة الأخرى مع الأعداء. حظًا موفقًا في تحمل ذنب مئات الأرواح التي ستموت في أرضك الأم..

اقترب مني قائلًا:

- حسنًا لا أريد أن أعرف. لكن خذ مني نصيحة قد تفيدك في الساعات المتبقية من حياتك يا صديقي، البطولة لا توجد سوى في كتب العجوز الغريب الأطوار التي أقحمَها في عقلك من خلال أبطالها الخارقين. في العالم الواقعي البطل الحقيقي هو من يعرف أين تكمن مصلحته. ليلة سعيدة.

أقفَلَ الباب خلفه ثم أعطى تعليمات لحارسين كي يظلا على مقربة من الغرفة التي أقطن فيها. جلستُ على الأرض الباردة خائر القوى مخدر الأعصاب. لا بد أن القدير الآن يشعر بخيبة أمل اتجاهي. أي مختار هذا الذي يعجز حتى عن الحفاظ على حياته؟ تطايرت الأفكار الإيجابية وروح الحماسة التي اجتاحتني في الساعات الماضية في الهواء وعادت نظرتي القاتمة عني وعن الحياة ومدى فشلي فيها لتسكُنَ كل شبر من جسدي.

تخيلْتُ الكابوس الذي رأيته عن الدماء والناس الذين يصرخون في الجزيرة يتحول إلى الواقع. كل شيء سيحصل بسببي، بسبب فشلي في هذه المهمة التي اختارني القدير من بين جميع الناس كي أنفذها. أنا لا أستحق أن أكون المختار. لقد جلبتُ العار لنفسي ولِدِيني مجددًا.

اتخذتُ من حقيبتي وسادة ومن دموعي غطاءً في هذه الغرفة المظلمة التي لا يدخل النور فيها سوى من تلك النافذة الصغيرة وسط الباب. غفوت من شدة تعبي لما يقارب الساعة فإذا بصوت غريب خارج الغرفة يوقظني من جديد. قمتُ مفزوعًا واقتربتُ من الباب لأسمع صوت ضرب وارتطام مع الحائط بقوة. وقفتُ على أصابع قدمي كي أصل إلى النافذة لأتحقق مما يحصل فإذا بي أرى سيلينا وهي تنقَضُّ على الحارسين بشراسة وخفة وكأنها وحش ثائر يقوم بسحب الروح من جسديهما بلا رحمة.

لم أجد كلامًا يصف سعادتي وأنا أرى سيلينا واقفة أمامي بعد فتحها الباب وهي تحمل سلاحيها الفتاكين بين يديها. قبل أن تبدأ بتوبيخي حاولتُ استباق كلامها وقلت:

- أعرف أنك غاضبة مني وستقولين أنني أحمق لكنني...

قاطعتني قائلة:

- أنت فعلًا أحمق. لكن كلامك كان صحيحًا. أخبرَني شاكي من القطاع الصناعي أنه تم إخراج أربع قنابل بشكل سري البارحة عبر الباب الخلفي. إيفا فبرَكت كل شيء.

- كيف علمتِ أنني هنا؟.

- اشكر صديقك إيمو. فور هروبك نزَل عندي وأخبرني بذلك. تزامن الأمر مع وصول خبر القنابل لي فقمت بإعلام إيغور به دون أن أخبره بهروبك لأنه فعلًا ليس بحاجة إلى مزيد من المتاعب.

- هل إيمو ومايا بخير؟.

قامت بنظرة خاطفة خارج الغرفة ثم عادت قائلة:

- لا تقلق لقد تم أخذهما إلى مكان أكثر أمانًا لا يستطيع مخلوق الوصول إليه.

حدقتُ في جثة الحارس الملقاة على الأرض ثم سحَبَتُه إلى الداخل قائلة:

- ارتدي لباسه. سنهرب من الباب الخلفي وأوصلك إلى المخبأ مع أصدقائك. إيغور الآن يبحث عن دليل لإثبات ما فعلته إيفا وإخبار شعبها بذلك كي يتم إلغاء الحرب ويعود كل شيء على ما يرام.

خلعْتُ لباس الرجل الميت وأنا أشعر بالاشمئزاز ثم ارتديته رغم اتساعه على مقاسي وقلت:

- ماذا لو فشل في إثبات ذلك ولم يستطع منع الحرب؟.

- لا تقلق سنجد حلًا آخر، المهم أن وجودك هنا لن يغير شيئًا..

شرِدتُ لثوانٍ ثم قلت:

- معك حق، وجودي هنا لن يغير شيئًا. عليّ الخروج من هذه الأرض والذهاب إلى جزيرتي.

رمقتني بنظرة استهجان وهي تقول:

- هل فقدتَ صوابك؟ أنت ستخاطر بحياتك بلا هدف. ما الفائدة من الذهاب إلى الجزيرة لإنقاذ شعبك من حرب نحن ما زلنا قادرين على إيجاد حل لمنعها. التجهيز للحرب يحتاج إلى أسابيع.

تذكرتُ فجأة عندما قال لي سيزار أن شعبي سيموت بعد يومين. لا بد أنها المدة التي ستحتاج إليها إيفا للهجوم على الجزيرة، فنحن لا نتطلب مجهودًا كبيرًا منها كي تجتاح أرضنا.

- لقد علمتُ أنها تنوي القيام بذلك خلال يومين. لا يوجد ضمان أنكم ستجدون حلًا في هذه المدة الزمنية القصيرة. وحتى إن نجحتم في ذلك، على الأقل أكون قد قمت بجزء من واجبي وهو تحرير شعبي من الأيادي البيضاء وإخبارهم بالحقيقة. أنا مجبر على المغادرة.

ربطت سيلينا ذراعيها معلنة استسلامها ثم قالت:

- أنا أعلم أنك عنيد ومهما قلتُ لن تسمع كلامي وستقوم بما تفكر به..

اقتربت منها قائلًا:

- سيلينا أرجوك ساعديني للمرة الأخيرة. أحتاج لوسيلة سريعة توصلني إلى الجزيرة في أقرب وقت ممكن. أنا متأكد أن هذا المكان المتطور يملك وسائل نقل تستطيع القيام بذلك..

صمتَتْ وهي تعلن انزعاجها الكبير مني وتطلق زفيرًا طويلًا أثناء مراقبتها للأرض في حيرة ثم ردت:

- تبًا لكم أيها النورانيون، سيقتلني إيغور إن علم بذلك.

ابتسمتُ وأنا أصافحها قائلًا:

- هل أعتبر هذه الإجابة بمثابة نعم؟.

تصارعتْ مع نفسها وهي تجيبني:

- حسنًا لك ذلك. أنا أعرف أين يضعون مركباتهم الخاصة باستكشافات فرق المارقين، سنسرق إحداها.

خرجنا من القبو بعد إقفال الغرفة ووضْعِ جثث المقتولين بداخلها. لم نشعر بالقلق بسبب ارتدائنا للباس الحراس الذي جعل تمويهنا ينجح. لكنني لا أنكر أنني كنت مستعدًا في كل ثانية أخطو فيها أمام أي حارس ويحدق بي لأن يُفتضَح أمري. لم يكن السلاح الذي أحمله بين يديّ نافعًا لأنني لا أعرف حتى كيفية استخدامه. بخطوات ثابتة خرجنا من المبنى وأنا أشكر القدير بعد كل خطوة على حماية أرواحنا من الموت المحتوم. وصلنا أخيرًا إلى منطقة تحيط بها جدران فولاذية على بعد دقائق من مبنى إيفا الرئاسي. اختبأنا خلف أكوام من القطع الحديدية لنلتقط أنفاسنا ثم استطردت سيلينا:

- أمام الباب الخلفي يوجد حارسان مسلحان. سأسبقك لقتلهما وأعطيك إشارة كي تلحق بي.

- مفهوم.

راقبتُها وهي تركض بسرعة كبيرة نحو الحارسين اللذين لم يشكا في أمرها في البداية لأنها ترتدي نفس زيهما. ما إن وصلت أمامهما حتى أردت الواحد تلو الآخر قتيلًا بدون جهد يذكر. لقد كان قتالها مبهرًا، يشعرك بالغيرة منها

ومن احترافيتها الكبيرة. بمجرد النظر إليها تدرك تمامًا أن إيغور خلف هذا الإبداع. تمنيتُ لو كان الوقت في صفي لأتعلم من ذلك الرجل خبرة القتال الجيدة، بدل تهوري في الهجوم والذي يعرض حياتي دائمًا للخطر.

انطلقتُ كالسهم مسرعًا بعد إشارتها لي. ما إن أشعلت الأضواء حتى تسمرّت في مكاني منبهرًا بأشكال تلك المركبات التي أراها للمرة الأولى في حياتي. أسطول يتكون من عشر مركبات طائرة متوسطة الحجم كل منها موضوعة بجانب الأخرى. بدأت أتحسسها بيديّ وأشتم رائحة المعدن القوية الصادرة منها حتى سمعتُ صوت سيلينا خلفي تقول:

- هيا لندخل إحداها ونشغلها قبل أن يأتي أحد هنا.

توقفتُ وأنا أفكر لثوانٍ حتى كررَتْ نفس جملتها، لكن عقلي كان في مكان آخر. لقد خطرت في بالي فكرة:

- سيلينا، إن قامت الحرب، بالتأكيد سيحتاج الأحاديّون إلى هذه المركبات للوصول إلى الجزيرة.

وضعَت سيلينا يدها على وركها مستغربة:

- نعم. وما المقصود؟.

- أظن أنها فرصة ذهبية لتخريب المركبات كي لا تعمل وتصل إلى الجزيرة مبكرًا.

رفعت حاجبيها قائلة:

- من أين تخطر على بالك هذه الأفكار؟ أنت تفكر كأنك أحادي لا نوراني.

ابتسمتُ مجيبًا:

- يبدو أن الوجود بينكم يؤثر عليّ. ما رأيكِ في فكرتي؟.

- إنها فكرة عبقرية لكننا لا نملك الوقت لتخريب تسع مركبات قبل اكتشاف هربك من القبو.

- لا يهم عدد المركبات التي سنخربها، كلما نقصت الصالحة منها كلما كان ذلك في صالحي.

مسايرةً لجنوني أخرجَت سلاحيها وركّبَتهُما في يديها قائلة:

- إذن هيا لنباشر العمل يا شريك.

فتحنا كل مركبة وتكلفّتُ بمهمة الحراسة بينما غطسَتْ سيلينا في العمق تمزق أسلاكًا لم أفهم مهمتها. فإذا بها تخبرني أنها تدعى بالمكابح المكلفة بإيقاف المركبات والتحكم في سرعتها. ما إن يتم تمزيقها حتى يفقد السائق القدرة على التحكم فيها وتسقط به. بدت لي الفكرة قاسية في البداية. لكن موتهم خير من موت أفراد شعبي خصوصًا أن أعدادهم تضاعف أعداد شعب جزيرة النور البسطاء والمسالمين.

بعد وصولنا لخامس مركبة ومباشرتنا في العمل عليها سمعنا فجأة أصوات أبواق عالية تجتاح المكان بقوة. خرجَتْ سيلينا من المركبة قائلة:

- تبًا إنه إنذار، لقد علموا بهربك.

- يجب أن نتحرك الآن قبل أن يصلوا إلينا.

بسرعة فتحنا مركبة صالحة للعمل ودخلنا وسطها لتباشر سيلينا العمل على تشغيلها وهي تجرب الضغط على أي زر يظهر أمامها بينما عكفّتُ على مراقبة البوابة خوفًا من دخول أحدهم علينا:

- تبًا إنها لا تريد العمل.

- ألا تعرفين طريقة تشغيلها؟.

مَسحتْ العرق المتصبب من جبينها وهي تجيب بقلق:

- بلى لقد شاهدتها في مرحلة الصنع لكن هذه المركبة بها عطل ما حتمًا.

لم تنهِ جملتها بعد حتى سمعنا صوتًا مألوفًا خلفنا يقول:

- أنتما، اخرجا من المركبة فورًا.

اهتز جسدي وأنا أدير وجهي فإذا بي أجد سيزار حاملًا سلاحه الموجه نحونا واقفًا بثبات. خرجنا من المركبة في هدوء تام رافعين أيادينا عاليًا. بحرقة قلت:

- سيزار أرجوك دعني أخرج من هذا المكان. شعبي يحتاجني أكثر من أي وقت مضى. تذكر كم كنا أصدقاء في الماضي، وتلك اللحظات الجميلة التي عشناها معًا. هل تستحق أن يمحوها سلاحك ويرديني قتيلًا بلا ذنب؟ ماذا ستخسر لو جعلتني أهرب؟ أنا لن أقوم بإيذاء أحد، أريد فقط العودة إلى جزيرتي. بحق الأُخُوة التي جمعتنا يومًا ما اتركني أذهب بسلام.

لم يتغير شيء في وجهه وهو يحدق بي بصلابة وسلاحه موجه نحوي. سمعنا خطوات الرجال حول المكان تحوم بلا توقف. فجأة، أنزل سلاحه وعاد خطوات إلى الخلف ثم قال وهو يغادر المكان:

- ارحل قبل أن تؤذي نفسك والآخرين بغبائك.

أقفل الباب خلفه فسمعنا صوته وهو يجيب الحراس الآخرين قائلًا أن لا أثر للهارب في مخزن المركبات. ظللت واقفًا في مكاني متسمرًا من ردة فعله

اللامتوقعة على الإطلاق. هل حن قلبه عليّ أم وجد أن قتلي ليس بالمهم ولا يستحق العناء؟ أيقظني صوت المركبة المرتفع مع نداء سيلينا قائلة:

- هيا اصعد لقد اشتغلت المركبة.

قفزْتُ بالقرب منها وأقفلنا الباب العلوي الزجاجي ثم في لحظة واحدة شعرتُ بالمركبة ترتفع عاليًا وتنطلق كاسرة السقف نحو السماء بينما وُجِهت نحونا رصاصات الحراس التي لم تغير شيئًا من حقيقة أننا الآن بين الغيوم بعيدين عن كل احتمال للموت على أرض الأحاديين.

بعد أن عاد الدم إلى عروقي وشعرت براحة كبيرة وأنا بعيد عن أرض الأحاديين، تأملتُ سيلينا التي كانت تقود المركبة بسرعة بطيئة تحسبًا لأي طارئ. كسرتُ الصمت قائلًا:

- حقًا أنت أكثر فتاة مجنونة قابلتها في حياتي. كيف قبلتِ مساعدتي رغم أنك لن تستفيدي من هذه الفوضى سوى المشاكل؟.

ضحكتْ بصوت عالٍ مجيبة:

- حقًا لا أدري. أسباب كثيرة تدور في خلدي، لا أنكِر أنني عندما رأيتُك للمرة الأولى قلتُ مع نفسي: غريب أطوار جديد في عالمنا. لكن بعد التعرف عليك أكثر أنت وأصدقائك، حركتُم بداخلي أشياء لم أظن أنني سأشعر بها..

- مثل ماذا؟.

ضغطَتْ على زر التحليق الذاتي للمركبة ثم قابلتْني بشكل مباشر وهي تحك فروة رأسها قائلة:

- لم أر في حياتي شخصًا مثلك، إنسان عانى الكثير في صمت ورغم ذلك ظل متمسكًا بجزيرته وشعبه حتى إن لم تضمن إن كانوا سيقفون

معك. في أرضنا لا أحد يتعلق بالمكان ولا الأشخاص، إن مات فرد يولد عشرة. لا نقيمُ جنازات ولا نهتم لأحد سوى أنفسنا كأفراد. أنت ورفاقك تعيشون من أجل قضية، مغامرة، وهذا شيء رائع، خصوصًا لفتاة مجنونة مثلي. لذلك قررتُ مساعدتك، لم أشعر بحماس الوقوع في المشاكل مثل هذه اللحظة. أنا فتاة تعشق الحياة الشيقة، وأنت حقًا تملك مغامرة رائعة.

ابتسمْتُ ساخرًا:

- ليتني أرى الأشياء بعينيك الحماسيتين. المغامرة التي سأخوضها سوداء ومجهولة..

ضربَتْ كتفي بيدها قائلة:

- شئتَ أم أبيتَ، أنت بداخلك تحمل شخصًا مجنونًا أكثر مني. أحيانًا لا أصدق أنك نوراني، تُفكِر وتتصرف وكأنك أُحادي عاش بين المارقين. ما إن ترغَبَ في شيء حتى تقوم به دون التفكير في المخاطر.

- معكِ حق. أملكُ ضربًا من الجنون بداخلي حتمًا. من الجيد أنني أملك دعمكِ في صفي.

- لستُ الوحيدة، إيغور أيضًا. وبشكل غريب.

- ماذا تقصدين؟.

قالت بعد تفكير قصير:

- إيغور إنسان غريب جدًا. منذ أن عرفتُهُ وهو يملك موقفًا واحدًا من جميع الأشياء. لكن فور وصولكَ لأرضنا شعرتُ بتغيير كبير في شخصيته. طوال حياتي لم أسمعه يتحدثُ عن جزيرتكم، لكن اليوم في اجتماع المجلس قام ثائرًا يدافع عن أرضكم ويقف في وجه الجميع

من أجل حمايتكُم. إلى الآن لا أحد يعرف ما السبب. لكنني أشعر أنك أنت السبب. شجاعتك وحبك الكبيران لشعبك أيقظ إيغور من عزلته.

- أتدرين.. أشعر بالذنب عندما أتذكره. كان يعيش في سلام حتى قدمْتُ فجعلتُه يتعاطف معي وها هو الآن يقف ضد أبناء شعبه بسببي. إنه إنسان طيب جدًا امتلَكَ مكانة كبيرة في قلبي بين ليلة وضحاها.

قالت بلهجة صارمة للمرة الأولى:

- أنت فقط سرّعْتَ أحداثًا كانت ستحصل عاجلًا أم آجلًا. الحرب موجودة منذ وقت طويل بين إيغور وإيفا.

لمحْتُ حقل الورود السوداء على مقربة منا فإذا بي أطلب من سيلينا إنزال المركبة في نفس المنطقة. كانت رائحة الدم قوية منبعثة منه مثل آخر مرة. لكنني بالتأكيد الوحيد القادر على شمها. تأملتْ سيلينا الحقل بتعجب ثم قالت:

- ورود سوداء؟ هذه المرة الأولى التي أرى فيها مثل هذه الأشكال.

قطفتُ وردة ووضعتها في جيبي ثم استدرت ناحية سيلينا قائلًا:

- من هنا سأكمل طريقي نحو الجزيرة عبر المعبر السري منفردًا.

رفَعَتْ شفتها العليا مستطردة:

- هل فقدتَ صوابك؟ لن تذهب بمفردك طبعًا، سنذهب معًا.

تقدمتُ خطوات نحوها قائلًا:

- سيلينا أنت الوحيدة التي أثق فيها الآن. من فضلك عودي ولازمي مايا وإيمو فأنا لن أرتاح في مهمتي دون معرفة أنك معهما. هكذا ستكونين قد قدمت لي أكبر مساعدة.

- لكن كيف ستذهب بمفردك؟ قد تمسك بك الأيادي البيضاء وتقتلك.

- لا تقلقي عليّ. سأموت بعد أن أكون قد حذرت شعبي من الحرب ومن حكامهم. وإن لم أمت، سأضع وردة سوداء على جُثتِ الأيادي البيضاء بعد قتلهم.

بعد صمت دام لثوانٍ أجابت:

- لا أظن أنها فكرة سديدة. أنت ستنتحِرُ بدخولك تلك الجزيرة وحيدًا.

وضعتُ يدي على كتفها قائلًا:

- عديني أنك ستحرصين على بقاء مايا وإيمو على قيد الحياة مهما حصل. قد تكون هذه آخر أمنياتي.

- حسنًا أعدك أيها العنيد.

عانقّتُها مودعًا ثم قلت:

- شكرًا لك على كل شيء. من الجميل امتلاك صديقة مثلك.

احمرت وجنتاها فحاولت إخفاء خجلها بحركاتها الرجولية قائلة:

- تبًا، أنت تحرجني. فأنا لا أملك أصدقاء.

- الآن صرت تملكين واحدًا. وداعًا سيلينا.

ودعّتُها للمرة الأخيرة ملوحًا بيدي ثم ركضْتُ مبتعدًا عنها وحيدًا. دخلْتُ النفق السري الذي مررنا منه برفقة العم ألبيرت عند هروبنا فصارت الذكريات تنهمر كسيل من الأمطار الغزيرة في مخيلتي وبدا لي هروبنا من هذا المكان كحدث حصل معي قبل دقائق فقط. يوم واحد كان كفيلًا بقلبِ كل الأحداث في حياتي، نفقٌ واحد كان المرور منه كافيًا لنقلي نحو عالم آخر وتحويلي لشخص آخر بين ليلة وضحاها. توقفْتُ في الطريق كي أغَير ملابسي

الخاصة بحراس الأحاديين وأرتدي ملابس النورانيين التي جئت بها من هذا المكان وسط حقيبتي الجلدية. بعد دقائق وصلت أخيرًا إلى الباب المؤدي نحو الغابة داخل الجزيرة. أخفيتُ وجهي بملابسي ثم انطلقّتُ مسرعًا نحو البيت كي لا يلاحظني أحد.

ما إن وصلتُ إلى البيت حتى وجدتُ شكل الباب الخشبي مختلفًا عما كان. فُتِحَ بسهولة بين يديّ فدخلّتُ بهدوء إلى المنزل الذي بدا كما هو. اشتقتُ كثيرًا لكل ركن فيه، لرائحة الخشب والأواني الطينية في رفوف المطبخ الصغير، ولاستقبال جدتي لي في كل مرة أدخل فيها من الخارج متعبًا بابتسامتها المعهودة وهي تجلس على كرسيها الهزاز تخيط قمصانًا لي. لمحتُ ضوء الفجر من خلال النافذة، فعلمتُ أن وقت استيقاظ أمي وجدتي قد حان. شعرتُ بخفقان في قلبي وأنا أقف بجانب المطبخ أفكر في الكلام الذي سألقيه على مسامعهما، خصوصًا أمي التي لم تعرف شيئًا عن هربي بعكس جدتي التي دعمتني بالسر. في خضم ذلك لبّيّتُ نداء الطبيعة فقمتُ بإخراج الخبز والحليب والجبن من المطبخ وجلستُ على طاولة الطعام آكل في صمت أنتظر فيه بترقب جدتي التي تقوم من النوم عادة قبل أمي. بعد انتهائي من تناول الطعام وضعتُ الصحون مكانها فإذا بأحدها يسقط على الأرض محدثًا صوتًا قويًا لتتطاير شظاياه في كل مكان. أثناء انشغالي في جمع القطع سمعتُ صوت وقعِ أقدام خلفي، رفعّتُ وجهي فإذا بي أجد أمي حاملة عصاها مستعدة لضربي.

قمتُ من مكاني أحدق بها بغرابة لأنها المرة الأولى التي أرى فيها أمي تتعامل بعنف مع شخص ما في هذا المكان القائم على السلام والذي تنعدم فيه السرقة. لقد بدَت نحيلة أكثر من أي وقت مضى، متعبة بعيون متورمة. سقطتْ من يدها العصا وظلتْ متسمرة في مكانها تتأملني. بادرّتُ بعناقها بينما ظلتْ جامدة لا تبدي أي ردة فعل. عدتُ إلى الخلف أتأملها قائلًا:

– أعرف أنك غاضبة مني أكثر من أي وقت مضى. آسف على كل ما حصل.

بدت متعبة وهي تتراجع وتجلس على الكرسي خائرة القوى ثم قالت:

– أين كنت؟.

توقعْتُ منها أن تصفعني، توبخني، تُسمِعني كلامها القاسي الذي اعتمَدَتْهُ طوال حياتها. لكنها بدت هادئة، مستسلمة، غير مبالية. فما كان أمامي سوى الجلوس بالقرب منها قائلًا:

– لقد هربتُ أنا وأصدقائي إلى أرض الأحاديين. آه لو تعلمين ماذا حصل هناك وماذا اكتشفت.

تغيرت ملامح وجهها فبدت مفزوعة وهي تسألني:

– الأحاديون؟ هل فقدت صوابك؟ كيف استطعتم المخاطرة بحياتكم وأنتم تجهلون صعاب الطريق؟.

– لا تقلقي لقد كان معنا العم ألبيرت. كنا في أمان بينهم وقائدهم قام بحمايتنا حتى آخر لحظة.

قمتُ من الكرسي وقلتُ بحماس كبير:

– دعينا من كل هذا. في الأيام الماضية اكتشفتُ عدة أشياء، أولها أن ديننا مزيف، وجماعة الأيادي البيضاء ليسوا مخلوقات نورانية، كل شيء مجرد هراء. لقد كان إحساسي في محله طوال تلك السنوات. هم شيطانين يبحثون عن المختار كي يأخذوا قلبه ودماءه للوصول إلى الكتاب المقدس الحقيقي للدين الذي قاموا بتزويره، لذلك جعلونا نمقُتُ المشوهين خِلقيًا كي يستفردوا بهم ويعبثوا بأجسادهم. تخيلي من يكون هذا المختار؟ إنه أنا. والعنقاء كان معي طوال الوقت خارج

الجزيرة، الآن عدّتُ كي أحرر شعبي منهم لكن أمامي أقل من يومين لإخلاء الجزيرة قبل حلول الحرب من طرف الأحاديين. أعلم أنك الآن ضائعة لا تفهمين ما أقوله. لكنني أقسم باسم القدير أن كل شيء حقيقي.

لم تبدُ متافجئة قط من كلامي. بل دمعت عيناها وهي تجلس عاقدة يديها بين فخذيها النحيلين.

- لمَ لا تبدين متفاجئة؟ أو على الأقل تكذبين كلامي؟.

أخفضَتْ رأسها نحو الأرض قائلة:

- لأنني أعلم مسبقًا بجل ما قلتَه. عندما كنت حاملًا بك جاءتني رؤيا أنني أحمل بين أحشائي شابًا استثنائيًا سيُحدِثُ تغييرًا كبيرًا في جزيرة النور ويلغي الظلم من أرضها. لكن في الوقت نفسه رأيتُ أن الشيطان لمسك وأصابك بلعنته. شعرتُ بالخوف، واعتقدتُ أن القدير يعاقبني. لذلك قررتُ أن أجعل هدف حياتي هو القضاء على ذلك الشيطان الذي يسكنك. أجبرتُك على تقبل الدين وحفظه لكن في كل مرة كنتَ تتمردُ فيها، أشعُر أنني فاشلة وأقسو عليك أكثر كي أجبرك على مقاومته. لا يوجد شيء في هذا العالم قادر على تدمير الشيطان سوى الإيمان القوي. لطالما سألتَني لمَ أجهز لك دائمًا كأس منقوع الريحان كي تشربه، تلك الأعشاب مباركة وتقاوم الأفكار الشيطانية. لولا جهودي لكان الشيطان قد اجتاحك وحولك إلى مخلوق سيئ للغاية. لكنني أعترف أنني لم أعلم أنك مشوه خِلقيًا.

شعرتُ كأنني تلقيتُ صفعة كبيرة هزت كل شبر من جسدي دون استئذان. جثوتُ على ركبتيّ وأنا أقول:

- هل كنتِ تعرفين أن دين الهلييث مزيف وأن جماعة الأيادي البيضاء شياطين؟.

مسحَتْ دموعها ورفعَت رأسها قائلة:

- أقسم باسم القدير أنني لم أعلم بحقيقتهم. كنتُ كباقي الناس هنا أظن أن الدين حقيقي وأنهم فعلًا نورانيون. لكنني علمتُ مؤخرًا أنهم ليسوا كما يدّعُون، حينها ربطت الأمور ببعضها البعض.

- كيف ومتى علمتِ؟.

لم تجبني. فسألتها مرة أخرى:

- هل أخبرتِ جدتي بذلك أم هي تعرفُ مسبقًا؟.

تمسكتْ بصمتها وعادت لتغرق في دموعها الغزيرة وكأنها قامت بجرم كبير. تأملتُ البيت الخالي وقلتُ:

- لقد تأخرتْ جدتي في النوم. سأوقظها لنناقش الأمر مجتمعين.

ما إن قمْتُ من مكاني حتى أمسكتْ أمي يدي قائلة:

- لا داعي لذلك، لن تجدها.

- أين ذهبتْ؟.

قامت من الكرسي وقالت بصوت مختنق من شدة البكاء:

- لقد... توفيت.

كان جسدي ليتحمل كل الصدمات، إلا هذا الخبر بالذات. شعور غريب عندما تسمع أن أغلى ما تملك في الحياة قد ضاع منك، انكسار قوي بداخلك يدمرك في لحظتها. شعرتُ كأن شخصًا ما قد أدخل يده في صدري واقتلع قلبي بلا استئذان. أردت أن أصرخ، أن أبكي، لكن الصدمة كانت أقوى بكثير من

أن تصفها الدموع ويترجمها الصراخ. وضعتُ يدي على قلبي محاولًا التقاط أنفاسي المتقطعة وأنا أسقط على الأرض كشخص أثقلَه شرب الخمر حتى فقد توازنه. مرَتْ أمام عينيّ كل لحظة عشتها مع جدتي الحبيبة، رائحتها الزكية ولمسَتُها وهي تداعب خصلات شعري وأنا ذلك الطفل الذي يهرول كل ليلة إليها ويستلقي على فخذيها كي تمارس عليه سرها في الحنان. لم أصدق أن الإنسانة التي كنتُ تواقًا للعودة من أجلها وإخبارها أن كل كلمة قالتْها عني كانت صحيحة، أقبِل جَبينها وقدميها لأنها كانت الوحيدة التي لم تكسرني عندما كان ظهري يتلقى الضربات الموجعة من الزمن. لكن الأوان قد فات..

- كيف ماتت؟.

جلست أمي بالقرب مني وأجابتني:

- بعد هروبكم بساعات، قامت الفوضى في الجزيرة باحثين عن قاتل الحارس والهاربين. توفي والد مايا بسكتة قلبية جراء الصدمة. أما والد سيزار فقد أقفلَ البيتَ على نفسه من شدة الخجل. أرسلَتْ جماعة الأيادي البيضاء حراسًا إلى منزلنا لاستجوابنا. عندما أخبرناهم أننا لا نعرف مكانك لم يصدقونا. حاولوا تعذيبنا كي نعترف. وفي لحظة كان فيها الحارس يقوم بضربي ركضَتْ جدتُك ناحيته لتحميني فإذا به يلقي بها بقوة على الأرض حتى تناثرت الدماء من رأسها. هددوني بأنني إن أخبرت أحدًا أنهم السبب في وفاتها سيقتلونني أيضًا. المسكينة أمي، كان اسمك آخر شيء نطقتْ به قبل وفاتها. حينها علمتُ أن الأيادي البيضاء ليسوا كما يدعون، ودعوت القدير ألا تعود كي لا يقضوا عليك أيضًا.

رفعَتْ جزءًا من ثوبها فظهرت علامات ضرب زرقاء اللون على ساقيها وفخذيها أشعلت النار في صدري. تأملتها في انهيار تام ثم قلت:

- أنت السبب، لو أخبرتِني بحقيقة الرؤيا التي جاءتك لما حصل كل ذلك.

- أنا قمتُ بما كانت ستقوم به أي أم عاقلة تريد الحفاظ على حياة ابنها. لو أخبرتُك بالحقيقة وأنت ما زلتَ صغيرًا طائشًا لكنتَ قد فقدتَ صوابك وقمتَ بحماقة تقضي على حياتك. ضحيتُ بالكثير وقسوتُ عليك غصبًا عني كي لا أجعلك تضعف وتسمحُ للشيطان بأن يتغلب عليك. لا تدري كم كنتُ أبكي كل ليلة قبل النوم وأنا أفكرُ في كل لحظة حرمتك فيها من حناني وحرمتُ نفسي من حق الأمومة الطبيعية فقط لأحميك. لطالما دعوتُ القدير دائمًا بأن يكون بجانبك. كنتُ شابة يافعة عندما كنت حاملًا بك، أرعبتْني رؤية أنني أحمل في بطني ما يمكن أن يكون شيطانًا أو شخصًا سيتحمل مسؤولية أكبر بكثير من حجمه. لا تلمني أبدًا، فلولاي لما صرت رجلًا. وحياتك مهما كانت صعبة وسيئة لن تكون نقطة في بحر حياتي.

سحبتْني نحوها وعانقتْني للمرة الأولى بحنان كبير. من حسن حظها أن جدتي علمتني أن لا أحكم على الآخرين وأنا لستُ في وضعهم. لكل شخص ظروفه ولكل منا ردة فعل مختلفة اتجاه أي ظرف صعب. لم أحكم على أمي لأنها اختارت القيام بالصواب بدل عيش دورها كأم بشكل طبيعي. لقد كانت أكبر تضحية من الممكن أن يقدمها شخص من أجلي. تلك المرأة التي اعتقدتُ طوال حياتي أنها تَمقُتُني وتشعر بالعار مني، لم تكن هي الأخرى أفضل حالًا مني، كلانا كان يتعذب في صمت.

حضنتُها بقوة وكأنني أقابلها للمرة الأولى في حياتي. أنا اليوم أقابلُ النسخة الحقيقية من أم استثنائية. عادَتْ إلى الخلف ثم استجمعت قواها قائلة:

- هنالك جزء متبقٍ من الحقيقة يجب أن تعلم به. أريد أن ألغي كل أثر للكذب بيننا.

أمسكت يدي ووضعتها بين يديها ثم بدأتْ بالسرد:

- كل ما أخبرتُك به حول عيشي في قرية خارج الجزيرة ووفاة والدك في الحرب قبل وصولي إلى هنا كان كذبًا. أنا ابنة هذه الجزيرة أبًا عن جد. عندما قدمَ العم ألبيرت أو كما يدعى جيبرو، كنتُ حينها مراهقة متفانية في عملها. أخبرَني بسره وطلب مني مساعدته. جَهزَني لمهمة سرية وأرسلَني إلى أرض الأحاديين. ظللت هناك لعدة أشهر أقوم بواجبي في التجسس على تحركاتهم وتبادل معلومات جيبرو مع ماركوس. التقيتُ ذات يوم بابنه الذي يدعى إيغور. وقعنا فورًا في الغرام. وكان ثمرة هذا الحب الحمل بك. شعرتُ حينها بالعار. الحملُ دون زواج محرم في ديننا. لم أخبر إيغور بحملي بل لمحتُ له أنني أريد الزواج فقام هو بطلب إذن والده الذي رفض تمامًا زواج نورانية من أحادي خصوصًا أن بقائي في أرضهم هو لفترة مؤقتة فقط. لم أرد أن أدمر مستقبل إيغور وأجعله ينقلب ضد والده، لذلك تركتُه وعدتُ حاملة كل شعور للعار والخزي بداخلي. حين جاءت الرؤيا التي أخبرتُك عنها، اعتقدتُ أن القدير يعاقبني بك. كرهتُ جيبرو ولُمتُه على كل ما حصل وعلى إقناعه لي بمساعدته. فقررْتُ أن أقطع علاقتي معه وعدم دعم علاقتك به عندما كبرتَ لكنك كنتَ متمردًا مثل والدك. منذ ذلك اليوم وأنا أحاول جاهدة أن أعَوضَ عما فعلتُه طمعًا في مسامحة القدير لي. لكنني اليوم لن أتفاجأَ إن لم تسامِحْني، لك الحق في أن تكرَهني. مجددًا أخبرُك أنني قمتُ بإخفاء هوية والدك عنك لحمايتك. فأنا متأكدة أنك لو علمتَ بها سابقًا لذهبْتَ للبحث عنه وخاطرتَ بحياتك. يبدو أن القدر لا يسمح لأحد بأن يتحكمَ به مهما فعلنا..

لماذا لم يتفاجأ جزء كبير مني بالحقيقة؟ لا أدري، وكأنني كنتُ أتمنى بداخلي أن يكون إيغور هو والدي. طوال حياتي وأنا أحاول جاهدًا صُنْعَ صورة صغيرة لأبي في عقلي لكنني أفشل دائمًا، حتى فَقدتُ الأمل في ذلك وتقبلتُ أنني إنسان وُلِد بلا أب. رُغم الكذب والأسرار التي أخفتها أمي عني، يبدو أن القدير لم يسمح لها بالتعالي على قدرته، فجمعَني بوالدي وقربني منه دون أن يدري أحدنا بالآخر. نشبهُ بعضنا البعض في الشكل، وحب التضحية من أجل الآخر. لقد كنتُ نسخة مصغرة عنه في غفلة من أمري.

هل يجبُ أن أكره أمي الآن؟ مع الأسف لا أستطيع، فأنا لا أعرف شيئًا بداخلي اسمه كره. لم يتم تربيتي على حمل مشاعر الحقد اتجاه الآخرين فما بالك بأمي التي أنجبتني وضحت بالكثير من أجلي. لا، لن ألومها، لن أصرخ في وجهها كما تتوقع. كلانا مكسوران في هذه اللحظة، ولا يمكن للشرخ أن يكسر شرخًا مثله. شعرتُ بالشفقة عليها وأنا أراقبها أثناء بكائها وضعفها فصارت تبدو في عينيّ كطفلة صغيرة يتيمة فقدَتْ أمها للتو فكَسَرَ الزمن ظهرها الفتي قبل أن تكبر أناملها. لم أتخيل أن أمي، تلك المرأة القوية الصامدة، ستنهار بعد فقدان جدتي لهذه الدرجة. تيقنْتُ اليوم أن الإنسان مهما كبر في السن، ما إن يفقِدَ أمه فهو يفقد كل شيء جميل في الحياة، يغدو طفلًا صغيرًا ضائعًا يتيمًا. لا أريد أن أختبر هذا الشعور إن فقدتُ أمي. خسرتُ جدتي، لذا لن أسمح بخسارة آخر ما تبقى لي من أسرة بسبب أسرار لو كنتُ أنا في مكانها، لأخفيتها بنفس الطريقة. نحن متشابهان كثيرًا، فهي أخفتْ عني حقيقة أبي وحمّلها معتقدة أن القدير يَمقُتُها ويعاقبها على خطيئتها بي، وأنا أخفيتُ عنها تشوهي لنفس السبب، سخرية القدر!

- قل لي شيئًا يا آدم، لا تظل صامتًا.

أمسكتُ بيدها ووضعتُها على يدي قائلًا:

- لن ألومك، لن أكرهك، ولن أسمح للغضب أن يجعلني أخسرك. أنا أسامحك على كل شيء. لا أريد أن يشتت انتباهي عن مهمتي غضب لا داعي له.

ابتسمَتْ في خِضَم بكائها فبدت كأن الحياة قد عادت إليها بعد أن اعتقدَتْ أنها ستخسرني. وضعتْ رأسها على كتفي فقمْتُ بإحاطتها بذراعي وسردتُ لها قصة هروبي بالتفصيل ولقائي بإيغور والحرب التي ستصل إلى الجزيرة عما قريب. بعد وقت قصير قمْتُ وأنا أمسح الغبار من سروالي الأبيض قائلًا:

- عندما عُدْتُ هنا اعتقدت أن حسابي مع الأيادي البيضاء ليس شخصيًا بل فقط من أجل إنقاذ شعبي منهم. لكن اليوم بات كل شيء مختلفًا. إنه ثأر لن أتهاون في تطبيقه عليهم مهما كلفني الأمر. سأجعلهم يندمون على ما حصل لجدتي وعلى كل مشوه خِلقيًا عبثوا بحرمة جسده وتخريب ديننا وحبسنا في هذا المكان منقطعين عن العالم كي يستفردوا بنا.

قامت أمي من مكانها قائلة

- ماذا تنوي فعله؟.

- يجب أن أحذر شعبي من الحرب القادمة. إخلاء الجزيرة سيجعلني أستفرد بالأيادي البيضاء.

ركضَتْ أمي نحو الغرفة مختفية لثوانٍ ثم عادت وهي مرتدية معطفها الصوفي الطويل وحذاءها الجلدي البني مع حقيبة ظهر كبيرة قائلة:

- سنقوم بذلك معًا. علينا التصرف حالًا.

- لا أريد إقحامكِ في هذا الموضوع وتعريضك للخطر.

اقتربت مني ووضعَتْ يدها على كتفي قائلة:

- نحن في هذا معًا. إن متنا سنموت معًا وإن نجحنا سننجح معًا. هيا بنا.

بدون نقاش وضعتُ الرداء على وجهي وخرجتُ معها من البيت وأنا أتلو الصلوات في قلبي كي لا يشعر بي أحد. كان الجميع منشغلين في أعمالهم دون مبالاة بما يجري من حولهم. همسْتُ لأمي قائلًا:

- أين ستأخذينني؟.

- إلى دكان الأعشاب، سأريك شيئًا قد يفيدك.

لم أشعر بالراحة إلا ونحن بداخل الدكان بعد التيقن أن لا أحد يراقبنا. أقفلت أمي الباب خلفها فلم أعد أركز على شيء سوى رائحة الأعشاب القوية في هذا المكان الضيق. فتحت أمي صندوقًا خشبيًا متوسط الحجم وأخرجَتْ منه أعشابًا وأكياسًا مصنوعة من التبن ثم رَمتْها بعيدًا فإذا بي أراها تخرج سيفًا وأجسامًا دائرية صغيرة شبيهة بالقنابل التي توجد في أرض الأحاديين. اعتلت وجهي الصدمة فسألت:

- من أين لك بهذه الأسلحة.

أجابتني وهي تضعها في حقيبتها قائلة:

- تذكار أخفيتُه منذ أيام مهمة أرض الأحاديين، كنت أعلم أنني قد أحتاج إليه يومًا ما.

- وفيم سنحتاج إليه؟.

- سنحمي أنفسنا بها في حال تهجم علينا أحد.

اتخذت من حافة خزانة الأعشاب متكأ وقلت وأنا أبحث عن جملة مفيدة داخل عقلي المبعثر:

- كيف سنستطيع القيام بكل ذلك بمفردنا؟.

- لا تقلق يا بني. سندخل البرج الرئاسي ونهدد جماعة الأيادي البيضاء بما نملكه ضدهم، نجبرهم على الاعتراف على الملأ بما فعلوه وإن رفضوا نفجرهم بالقنابل التي نملكها. حينها ستكون مهمة إخبار سكان الجزيرة بالهرب قبل وصول الأحاديين سهلة. سيتم إخلاء المكان في ظرف ساعات فقط.

- لا أملك خيارًا سوى الالتزام بخطتك.

- ثق بي يا بني، كل شيء سيكون على ما يرام..

خرجنا في هدوء من الدكان متوجهين نحو البرج الرئاسي للجزيرة. كان الناس هنا غافلين تمامًا عما يحصل. الجميع قاموا باكرًا ليبدؤوا يومًا جديدًا في هذا المكان الذي يعتقدون أنه الجنة التي لن تطالها مصائب أبدًا. تأملتُ وجوههم في طريقي وشعرتُ بحرقة كبيرة وأنا أعد الأرواح التي قد تغادر هذه الحياة في حال فشلتُ في مهمتي ووصل عدوان الأحاديين أرضنا، التي رغم كل ما حصل، ما زلتُ أحبها بقدر حبي لجدتي التي ماتت دون أن أودعها. لذا لن أسمح بأن تموت أرضي ولا بأن تودعني.

شردتُ في وجوه الناس حتى تدافعتُ مع عجوز يحمل صناديق الجزر فإذا بنا نقع معًا على الأرض حتى سقط الرداء عن وجهي وكُشِفَت هويتي أمام الناس. رفع العجوز وجهه فإذا به يصرخ مناديًا لجنود السلام الجالسين على مقربة منا فوق جذع شجرة يراقبون السوق المركزي للجزيرة وهو يقول:

- تعالوا يا حراس، إنه القاتل قد عاد.

أطلقتُ العنان لقدميّ بأقصى سرعة برفقة أمي متجهين نحو السوق المركزية التي عجت بالناس من حولنا فور سماع هتاف العجوز وحاولوا

القبض علينا قبل وصول الحراس. التفوا جميعًا من حولنا مشكلين حلقة دائرية ليمنعونا من الهرب. همَسَت لي أمي في أذني قائلة:

- سأضطر إلى إلقاء قنبلة كي تنجوا.

ضغطت على يدها مجيبًا:

- لا تفعلي ذلك، لا أريد أن يتأذى أحد من شعبي بسببي.

ما إن وصل الجنود حاملين سهامهم نحوي حتى رفعت يديّ عاليًا وقلتُ بصوت مرتفع:

- قبل أن تلقوا القبض عليّ اسمعوني. أنا عدتُ إلى هذه الجزيرة كي أحذركم من حرب قادمة من أرض الأحاديين. إنهم يستعدون لقتلنا جميعًا والاستيلاء على أرضنا. كل ما عشناه في هذا المكان كان كذبًا. أقسم لكم باسم القدير أن كلامي صحيح. جماعة الأيادي البيضاء مجرمون شياطين يتخذون صفة الملائكة بحثًا عن المشوه خِلقيًا المثالي للوصول إلى الكتاب المقدس الأصلي من دين قاموا بتزويره. الهلييث الذي نؤمن به ما هو إلا نسخة مزورة عن دين لا نعرف عنه شيئًا. هم يمسكون بالمشوهين خِلقيًا ويفتحون أجسادهم باحثين عن دمائهم وقلوبهم ثم يرمون بجثثهم خارجًا. اهربوا من هذا المكان في أسرع وقت وانفذوا بجلودكم. أنا لستُ مجنونًا.. أنا المشوه الذي يبحثون عنه، أنا هو المختار الذي...

قاطعتني أصواتهم الثائرة وهم يرددون:

- مجرم، كاذب، اقتلوه فورًا.

انقض عليّ الجنود من كل جهة مكبلين يديّ بحبال قوية دون أن أقاومهم بينما حاولت أمي مقاتلتهم بكل شجاعة لكنني صرختُ موجهًا كلامي نحوهم:

- لا تقتلوها، هي لا ذنب لها في ذلك..

تجاهل كلامي الحراس الذين كبلوا يديها وحرموها من الوصول إلى القنابل في حقيبتها الجلدية. أدرتُ وجهي نحوها قائلًا:

- آسف يا أمي.

أجابتني:

- لا تتأسف. نحن لم ننتهِ بعد، ستنتصر عليهم. أنا متأكدة.

أبعدني الحراس عن الجموع وأنا أسمع شتى أنواع الشتائم. لكنني تمسكتُ بنداءاتي صارخًا:

- اخرجوا من الجزيرة، الأحاديّون قادمون لقتلكم..

مكبل الأيدي تم إدخالي إلى غرفة السجن التي يوضع فيها المشوهون خِلقيًا داخل البرج. بينما وُضعت أمي في القبو. كانت الغرفة فارغة تمامًا من أي أثاث، لا يدخل النور إليها سوى عبر تلك النافذة الصغيرة الموجودة بالقرب من السقف. جلستُ القرفصاء وأنا أفكرُ فيما سيحصل الآن. لا بد أنهم سيقتلونني، أم أنهم سيفتحون جسدي حيًا للحصول على دمائي وقلبي فيقومون بتعذيبي. لا يمكن أن تكون نهايتي بهذا الشكل، بعد كل ما عانيته، وكل ما حصل معي في الفترة الأخيرة، لا يعقل أن أموت دون أن أنقذ شعبي من الحرب أو جماعة الأيادي البيضاء. فجأة فُتِح الباب، ودخلت جماعة الأيادي البيضاء وحدهم يرتدون تلك الملابس الناصعة البياض غارقين في وقارهم المزيف. تأملتُ وجوه كل فرد منهم. لقد كانوا هادئين جدًا، واثقين من نصرهم يرمقونني بنظرة باردة مثل قلوبهم. كانت فيفيان، صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة من بينهم واقفة في الوسط عاقدة ساعديها تحدق في عينيّ بشكل مباشر. بينما ظل كل من أليكساندر وآيدا خلفها كعادتهما. تمنيتُ في تلك اللحظة لو كان كل شيء سرابًا، فأنا كنتُ أتمنى الموت على أن

أقف أمامهم منهزمًا بعد أن حلمتُ باللقاء الذي سأستطيع أن أقضي عليهم من خلاله.

- لقد كان دخولًا مميزًا يا آدم.

توقعتُ أن تتحدث فيفيان مسبقًا. فهي دائمًا من تمسك بزمام الأمور لدرجة تجعلني أشك في فائدة شقيقيها اللذين نادرًا ما نسمع أصواتهما. قمتُ من مكاني وأجبتها:

- دعينا نخلع ثوب الوقار والصوت العذب يا سيدتي. لا يوجد غريب بيننا، فأنا أعلم من تكونون.

ابتسمت باستهزاء ثم أجابت:

- لم أتوقع أن يكون المختار هو أنت، بهذا الغباء وهذا الطيش الكبيرين.

- وأنا لم أتوقع أن يكون الشيطان الذي أرسلكم جبانًا إلى هذه الدرجة كي يرسل خدمه من أجل الحصول على دمي وقلبي.

صفق كل منهم بعد أن أنهيتُ جملتي وكأنني ألقيتُ دعابة سخيفة على مسامعهم. لم أسمح لهم باستفزازي وجعلي أضعف أمامهم، فحتى لو كنتُ سأموت بعد هذه اللحظة. لا أريدُ أن أموت خائفًا:

- لطالما شعرتُ بالريبة حولكم. كنت أعلم أنكم تخفون شيئًا ما لكنني لم أحمل عليكم دليلًا قاطعًا.

تدَخل أليكساندر قائلًا:

- ولا تحمله اليوم أيضًا يا عزيزي. لا أحد سيصدقُ مشوهًا خِلقيًا قام بقتل حارس بريء لينفُذَ بجلده في مكان يحرم فيه القتل. أنت في نظر شعبك حشرة، مجرم يستحق الموت.

شعرتُ بنار الغضب تشتعل في صدري وأنا أجيبه:

– لا يهمني ما يظنون، أنتم شوهتم ديننا وخدعتمونا منذ مئة سنة. أنتم المجرمون الحقيقيون.

اقتربَتْ مني آيدا وبدأت تدور من حولي وهي تتأملني بنظرة مخيفة وكأنها على وشك التهامي. وضعَتْ يدها حول كتفي حتى شعُرتُ بالقشعريرة ثم اقتربَتْ من عنقي واشتمتْ رائحتي وهي تقول:

– أشم رائحة النصر. بعد مئة سنة من الانتظار أخيرًا سنتحرر يا إخوتي. سيكون سيدي فخورًا بنا.

ابتعدتُ عنها قائلًا:

– ماذا تقصدون بتحرركم؟.

أجابتني فيفيان:

– كوننا أشخاص كرماء سنخبرك بالسبب قبل موتك كي لا تفقد حياتك عن جهل. عندما أرسلَنَا سيدي إلى أرضكم وصنعْنَا نسختنا من دينكم كي نتحكم بعقولكم، كنا نبحث عن الحرية لنا وله. دمك وقلبك سيجعلنا نفتح الكتاب المقدس الأصلي الذي نملكه ولا نستطيع لمسه سوى من خلالك. ما إن يختفي الحاجز الحامي له حتى نحرقه وبذلك سيتحررُ سيدنا من جحيم أعماق الأرض الذي سجنه فيه القدير منذ مئات السنين ويغزوا أرضكم حاصلًا على قواه التي يستحقها وينتقم منكم. حريته متوقفة على تدمير الكتاب المقدس، وتدمير الكتاب متوقف على قلبك ودمك. القصة بسيطة جدًا.

يا إلهي. اعتقدت أن الحرب التي ستحصل بين الأحاديين والنورانيين هي أسوأ كابوس لي. لكنني اليوم اكتشفتُ أنها لا تساوي شيئًا أمام تحرير

الشيطان من سجنه في الجحيم والقضاء على كل بشري في هذه الأرض. شعرتُ بحرقة في قلبي وانقباض في صدري فوضعتُ يدي عليه ضاغطًا لألتقط أنفاسي.

- لا تقاوم أيها المختار، فأنت تشبهنا كثيرًا، أنت تحمل بداخلك جزءًا من الشياطين شئت أم أبيت. من سخرية القدر أن يحمل المختار جزءًا نورانيًا وجزءًا شيطانيًا في آن واحد أليس كذلك؟.

وجهتُ نظرة احتقار نحو فيفيان قائلًا:

- أنا لا أشبهكم على الإطلاق..

- حقًا؟ ألم تقتل شخصًا بريئًا من قبل؟ ألم تخفِ تشوهك الخلقي عن أقرب الناس إليك؟ ألم تمُت جدتك بسببك؟ ألم تضع حياة أصدقائك في خطر فقط لتنجو بفعلتك؟ أنت شخص سيئ يا آدم. أنت أسوأ منا بكثير. نحن على الأقل أوفياء لمهمتنا طوال مئة عام واليوم نجحنا فيها. ماذا عنك؟ مختار فاشل. لو كنتُ أعلم أن القدير سيختارُ شخصًا ضعيفًا مثلك لجلستُ على الكرسي بلا جهد منتظرة سقوطك.

رغم محاولاتي في مقاومة كلامهم فإنهم نجحوا في التأثير على نفسي. رغبت في الانقضاض عليهم وقتلهم على الفور. أين هي تلك الحالة التي أفقد فيها السيطرة على نفسي وأصبح أقوى بكثير مما أنا عليه؟ أنا في حاجة ماسة إليها الآن. لكن بعد لحظات من التفكير علمتُ سبب غيابها. الشيطان الذي يجتاحني في حالة الغضب لا داعي له بأن يقوم بذلك اليوم، لأنني أقف أمام أتباعه. كل ما عليّ القيام به الآن هو سماع إهانات وتعذيب نفسي أسوأ بكثير من ألف خنجر قد ينغرس في صدري. ليتَهُم يقتلونني الآن وأرتاح، أبتعد مع فشلي الذريع وخيبة أملي عن وجوه الآخرين، وأتقبل فكرة أنني خذلت نفسي، وشعبي، وجدتي.

رفعتُ عينيّ نحوهم فإذا بي أرى منظرًا كاد أن يجعل الدم يجف من عروقي. تغيرَت وجوههم البيضاء الصافية وحلت محلها وجوه حمراء ببشرة مليئة بالطيات السوداء وعيون صفراء مخيفة. تراجعتُ خطوتين إلى الوراء وأنا أشعر بارتجاف في ركبتيّ من هذا المنظر الأبشع من أي شي رأيته في حياتي. تحدثتْ آيدا بصوت مختلف مخيف قائلة:

- هذه هي أشكالنا الحقيقية. ظننا أن موتك قبل رؤيتها لن يكون عادلاً. أليس كذلك يا شقيقتي؟.

أجابتها فيفيان:

- أنت محقة. مع الأسف لن تكون لديه الفرصة لرؤية سيدي، ربما في الحياة الأخرى.

جمعتُ قواي المبعثرة وانكساري قائلًا:

- مع الأسف ستكون مجهوداتكم بلا داعٍ. فالأحاديّون قادمون للقضاء علينا.

ضحكَتْ فيفيان قائلة:

- وهل تعتقدُ أن ذلك يهمنا في شيء؟ هذا حالكم أيها البشر، أسوأ اختراع قام به إلَهُكم. كل ما تتقنونه هو قتلُ بعضكم البعض. فعلًا ما زلنا نتساءل لمَ أنتم موجودون في هذا الكوكب، ثقل على الأرض لا أكثر.

عادوا إلى هيئتهم المزيفة وتهامسوا بلغة لا أفهمها لتنادي فيفيان على الحراس بصوت عالٍ حتى دخلوا الغرفة ثم قالت:

- أخبر الآخرين بأن يجهزوا كل شيء، سنقوم بإعدام هذا الخائن بقطع رأسه أمام شعب جزيرة النور.

غادر الحراس مسرعين فتركوني وأنا في حالة صدمة أراقب وجوه جماعة الأيادي البيضاء. توقعتُ أن ألقى نفس مصير المشوهين خِلقيًا الذي ماتوا قبلي بفتح أجسادهم والتنقيب فيها. تغيير الخطة في هذه الأَثناء كان مريبًا. لا يُخيفني الموت بقدر ما أخافني ما يحمله في طياته من مفاجآت سوداء.

- لمَ تريدون القيام بإعدامي علنًا بدل التخلص مني كما فعلتم بضحاياكم من قبل؟.

أجابني أليكساندر:

- نريد أن يكون آخر شيء تراه قبل موتك هو عيون شعبك الذي ضحيتَ من أجله وهم يرمقونك بنظرات كره. سنزيد جرعة العذاب النفسي لديك، ستعيش وتموت مكروهًا فاشلًا.

تجاهلتُ كلامه وأنا أحدق في الحائط بجانبي فإذا بفيفيان تقول وهي مغادرة:

- هيا لنترك المختار يعيش لحظاته الأخيرة في سلام.

خرجوا وتركوا خلفهم ضحكات استهزاء ونظرات احتقار حفرت مكانها في قلبي وسحبَتْ منه الروح قبل أن ينزل سيفهم على رقبتي بعد ساعات ويقضي على حياتي. كان الصمت في الغرفة موحشًا، وكأنني وُضعتُ في قبري مسبقًا، قبر متسع الحجم في الواقع لكنه ضيق في قلبي. تمنيت لو كان إعدامي سيقام بعد ثوانٍ كي أرتاح من هذا العذاب. جلستُ في ركن الغرفة وبدأتُ أتخيل عيون الناس تحوم من حولي وأنا على وشك الموت أمامهم. لطالما كانت أمنيتي هي أن أموت بجانب من أحب. لكن الأيادي البيضاء حرموني من كل شيء، حياة طبيعية، جدتي، أمي، أصدقائي، وحتى أبي، الذي لم تكن لدي الفرصة حتى للحديث معه للمرة الأخيرة. آه كم هو مُر طعم الخسارة، خصوصًا عندما لا تكون خسارتك أنت فقط بل خسارة مئات الأرواح بسببك وخذلانها هي

والقدير الذي اختارك من بينهم. رفعتُ رأسي للسقف وأنا غارق في دموعي واعتذرت من القدير عن عدم الحفاظ على أمانته، ثم صليت له للمرة الأخيرة.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أغفو على الأرض لساعات من شدة التعب. فتحتُ عينيّ لأجد بجانبي وجبة ملكية مكونة من ديك رومي مشوي وطبق مُشَكل من الخضر والفواكه. إنهم يقدمون لي وجبتي الأخيرة. يا لكرمهم، ويا لسخرية القدر. من شدة جوعي لم أبالِ بكرامتي التي انكسَرتْ وحصل ما حصل لذا قمتُ بالأكل بشراهة حتى شبعتُ وعدت إلى عزلتي أفكر في كل شيء، ولا شيء.

ماذا سيحل بشعبي بعد موتي؟ من سيوقف الحرب بين الأحاديين والنورانيين؟ هل سيتم إعدام أمي مثلي؟ ماذا سيكون مصير مايا وإيمو؟ أسئلة كثيرة دارت في خلدي وأنا جالس وسط وحدتي المعتمة التي لا ترحم.

كانت مخاوفي على الآخرين أكبر بكثير من خوفي على نفسي. شعرتُ كأنني إنسان آخر، فأنا قبل أيام قليلة كنت شخصًا أنانيًا، يرتعبُ من مجرد التفكير في الموت. لكن ما حصل معي غيرني بشكل كلي، صرتُ أدرك تمامًا أن الموت حق على الجميع، نهاية لا يمكن إبعادها مهما فعلنا، حصاد لما تزرعه في حياتك. فعِوَض الخوف من الموت، عالج نفسك من سبب خوفك منه بدل جعله يعكر صفو حياتك.

كان هدوئي غريبًا بالنسبة لي عندما قدم الحراس وأخرجوني من الغرفة مقيد الأيدي يقتادونني نحو مكان موتي. وصلنا إلى مركز الجزيرة الذي تجمع حوله جميع سكانها ثم صعدتُ في المكان نفسه الذي بدأت فيه حكايتي، تلك الخشبة التي نُظّمت فيها قبل أيام حفلة التخرج السنوية من المعبد والتي شكلت نقطة تحول في حياتي عندما شممت رائحة الدم في جماعة الأيادي البيضاء. الحياة أكمَلت دورتها وأعادتني إلى البداية التي ستحكي نهايتي،

بدَأتْ برائحة دم وستنتهي بإراقة دمائي. وقفتُ ךּ منتصف الخشبة هادئًا شامخًا متمسكًا بعدم السماح لأعدائي برؤيتي منهزمًا. ךּ حين وقف الرجل الذي سينفذ حكم الإعدام بالقرب مني حاملًا سيفه الكبير بين يده. صعدتْ فيفيان للخشبة وقالت وهي تفتح ذراعيها عاليًا:

- اليوم يا شعبي العزيز يوم تاريخي، درسٌ يعطى لكل شخص ينوي الغدر بسلامة شعبنا وديننا الحنيف. بهذا السيف لن نقضي على روح مجرم فقط، بل سنقتل معه كل وجه من أوجه الظلم والعدوان ךּ هذه الأرض المقدسة. فلننظف وسخ هذا المشوه خِلقيًا الذي أرسله الشيطان لزعزعة استقرارنا. ومن هذا المنبر أحييكم على بسالتكم وتوحدكم. لنظل كذلك حتى يحين يوم الانعتاق.

طُرِقت الطبول من حولي للحراس عندما دفعني مُنفذُ الإعدام كي أجثو على ركبتيّ خاضعًا. لكن ךּ خضم ذلك لفت انتباهي صوت آخر، صوت بعيد عن الجزيرة لمحركات سمعت مثلها ךּ أرض الأحاديين، إنهم قادمون لجزيرتنا. الوقت مبكر جدًا لهذه الحرب الذي اعتقدتُ أنها قد تتأخر يومًا إضافيًا. لكن الآن لا داعي للقلق، فأنا سأموت بعد ثوانٍ. لذا سأسلم أمرهم للقدير، فهو الوحيد القادر على إنقاذهم.

تأملتُ الناس من حولي للمرة الأخيرة بوداع مر. لتصل عيناي إلى جماعة الأيادي البيضاء الواقفين بفخر ينتظرون لحظة الحسم. شممت رائحة أرضي للمرة الأخيرة، ورائحة البحر ךּ هذا اليوم المشمس الجميل. غريب عندما تحين ساعة الموت فتصير تعطي لكل تفصيل تجاهلته خلال حياتك أهمية قصوى وكأنك تحاول تعويض ما فاتك ךּ ثوانٍ معدودة فقط. حتى الدلو الموضوع بجانبي والمليء بمياه البحر لغسل دمائي بعد موتي صار ملفتًا.

قام الحارس بدفع رأسي نحو الأسفل بيده. أغمضتُ عينيّ وتنفستُ للمرة الأخيرة، فالتقطَتْ أذناي صوتًا مجددًا، هذه المرة لم يكن صوت محركات

الأحاديين، بل كان صوتًا لا أستطيع تعريفه. تردداته باتت تعلو شيئًا فشيئًا وكأنه يقترب من الجزيرة بسرعة قصوى. فجأة، سمعتُ صرخات بعض الناس من حولي وهم يقولون:

- انظروا عاليًا.

رفعتُ رأسي باحثًا عن مصدر الصوت. في جزء من الثانية نزل على الأرض بقوة آخر شي كنت أتوقع وصوله، طائر العنقاء الهائل الكبر وهو يطلقُ صيحاته القوية، فإذا به ينفثُ نيرانًا من جناحيه حول الخشبة حتى تعالت الصرخات وسقط الحارس المكلف بقتلي من شدة رعبه. لم أدرك في تلك اللحظة هل أنا سعيد لأنني نجوت من الموت أم مصدوم لأن العنقاء عاد من أجلي وأنقذني. شعرتُ بتخدر في جسدي وأنا واقف في مكاني أراقبه أثناء تحليقه عاليًا وهو يطوف حولي محدثًا فوضى عارمة في المكان مما جعل البعض يصرخ والبعض الآخر يسجُدُ خوفًا. استيقظتُ من غفوتي ومزقتُ الحبال حول يديّ عبر السيف المرمي بالقرب مني. فكان أول تصرف يخطر على بالي حينها هو الإمساك بدلو الماء وسكبه على الأيادي البيضاء بعد أن تذكرت نصيحة العم ألبيرت الذي أخبرني أن الماء يكشف هويتهم الحقيقية. استغللت فرصة ذهولهم ومحاولة تهدئتهم للناس فركضتُ نحوهم وسكبت الماء مباشرة عليهم حتى بدأ اللون الأبيض لبشرتهم بالنزول مع قطراته فصرختُ بينما يمسك بي الحراس قائلًا:

- يا شعب جزيرة النور، ها هو العنقاء قام من رماده. أنتم الآن حصلتم على الدليل أنني المختار. انظروا إلى وجوههم البشعة الحقيقية، إنهم شياطين وليسوا بملائكة..

توقف الجميع عن الصراخ واتجهت أبصارهم نحو جماعة الأيادي البيضاء الذين بدوا كأنهم تم تعريتهم علنًا. غطوا وجوههم المشوهة بأياديهم

ثم بدأوا بالركض نحو البرج كالخرفان المرتعبة من الذئب. ترك الحراس يديّ واقتربوا مني ثم ركعوا أمام قدميّ قائلين:

- نعتذر منك أيها المختار، ونحن تحت تصرفك.

أجبتهم:

- قوموا من الأرض فالركوع للقدير وحده. الآن أمامنا مهمة أخرى. يجب تأمين محيط الجزيرة بالحراس قبل وصول الأحاديين وإخلاء الناس من هذا المكان.

أجابني أحدهم:

- لقد فات الأوان يا سيدي، لا يوجد مكان لتهريب الناس.

- حسنًا أنتم قوموا بتأمين المكان وسنجد حلًا حتمًا لذلك.

ركض الحراس مسرعين نحو حدود الجزيرة بينما قام بعضهم بتوجيه الناس المسالمين المرتعبين للاحتماء. نزل العنقاء أخيرًا على الأرض فقررت الاقتراب منه وأنا أشعر بالخوف والحماسة في آن واحد. لقد كان أجمل بكثير مما وصف في الكتاب المقدس والأساطير، بريش برتقالي وأصفر وذيل طويل شبيه بطائر الطاووس، عيون زرقاء في لون السماء بعد غروب الشمس مباشرة. نظر إليّ بشموخ وسمح لي بأن أضع يدي على أحد جناحيه الكبيرين. لقد كانت ساشينكا محقة في كلامها عندما قالت أن مصيري بالعنقاء مرتبط بالتضحية. أنا ضحيتُ بحياتي كي أنقذه عندما كان صوصًا، وهو رد لي الجميل في أكثر وقت أحتاجه فيه فأنقذني من الموت المحتوم، لم أكترث إن كان سيفهمني أم لا:

- شكرًا لعودتك، أحتاجك الآن كي تساعدني في إنقاذ شعبي من هذه الحرب. هل ستفعل ذلك؟.

شعرت بداخلي أنه أجابني بالإيجاب، فَرَبَّتُّ على كتفه برفق شاكرًا له مجددًا. فجأة سمعتُ صوتًا مألوفًا ينادي باسمي من بعيد. ابتعدتُ من لهيب النيران باحثًا عن مصدره فإذا بي أرى سيلينا تركض من جهة الغابة برفقة إيمو، ومايا، وإيغور، وعشرات الرجال المسلحين. ما إن وصلوا حتى انقضت عليّ مايا بعناق طويل قائلة:

- شكرًا للقدير أنك على قيد الحياة. لقد كنت مرعوبة.

وَجّهتُ نظرة تساؤل نحو سيلينا التي قالت بلهجة ساخطة:

- لا تلمني يا صاح فصديقاك هددا بالانتحار إن لم يرافقاني إلى الجزيرة.

- لِمَ جئتم إلى هذا المكان؟.

تكفل إيغور بالإجابة. فشعرتُ للمرة الأولى منذ لقائي به أنني عاجز عن النظر إليه:

- لقد استطعنا إثبات تورط إيفا في التفجيرات أمام الشعب. لكنها علمت من خلال جواسيسها أننا سنكشفها مسبقًا فقررتْ القيام بهجوم استباقي عليكم وهم الآن يقتربون من الجزيرة. سلكنا أنا ورجالي الطريق السري عبر الغابة بإرشاد من جيبرو لمساعدتكم في هذه الحرب.

تدخلت سيلينا قائلة:

- واحزر ماذا؟ مخططك في تعطيل المركبات نجح. معظمها توقف عن العمل وسط الطريق لذا هم قادمون مشيًا على الأقدام مما أعطانا وقتًا إضافيًا للوصول قبلهم عبر المركبات الصالحة للعمل.

وصل العم ألبيرت مرتديًا لباس الجنود متأخرًا فشعرتُ بالذهول لرؤيته بيننا.

- ماذا تفعل هنا؟ ألم تخبرني أنك تريد العيش بسلام؟ هل تركتَ ساشينكا بمفردها؟.

ابتسمَ وهو يضع سلاحه جانبًا:

- لم أستطع مقاومة فرصة رؤية المختار وهو ينتصر. أردت المشاركة في هذا امتنانًا لتضحيتك في سبيل شعبك والتي فاقت كل توقعاتي. شقيقتي في مكان آمن لا تقلق يا بني.

بحثتُ عن إيمو الذي كان واقفًا منذ قليل قرب مايا، فإذا بي أجده مصعوقًا بجانب طائر العنقاء وهو يتأمله غير مصدق لما يراه. أشرت بيدي نحوه قائلًا:

- لقد عاد العنقاء من أجلي وأنقذني من الموت، انظروا كم هو رائع.

اجتاح الذهول وجوه الجميع فإذا بالعم ألبيرت يقول:

- عشتُ عقودًا وأنا أحلم بهذه اللحظة. أرأيتَ يا إيغور، لقد كان كل شيء حقيقيًا..

وضع إيغور يده على ذقنه معبرًا عن اندهاشه ثم قال:

- أنت محق يا صديقي، من كان يظن أن الخيال قد يصبح واقعًا.

قالت سيلينا مستطردة:

- من كان ليظن أن ذلك الصوص الأصلع سيصبح هذا المخلوق.

تخللت ضحكة خفيفة بين الجميع كانت مصدرها خفة دم سيلينا، سرعان ما سألتني مايا:

- أين هم جماعة الأيادي البيضاء؟.

- لقد فروا بعد رؤية العنقاء إلى البرج..

سألني العم ألبيرت:

- «ماذا سنفعل الآن؟.

- سأذهب إلى البرج لتحرير أمي قبل أن يصيبها أذى. أنتم ابقوا هنا واحرسوا المكان مستعدين لهجوم إيفا وجيشها. سيلينا هلا ترافقينني؟.

تدخل إيغور قائلًا:

- سأذهب معك، سيلينا يجب أن تظل هنا مع رجالي فأنا أعتمدُ عليها.

مُوجّها تعليماته لرجاله المسلحين قال:

- تفرقوا في حدود الجزيرة وقسموا أسلحتكم مع جنودها، اتخذوا وضعية الهجوم قبل الدفاع عند وصولهم.

ركضنا مسرعين معًا نحو البرج بعد أن حملتُ في يدي السيف الذي كنت سأموت به قبل دقائق. لم أنطق بكلمة واحدة لإيغور. كنت أبحث في داخلي عن طريقة كي أمنعه من رؤية أمي. لكنه بدا مصرًا على مرافقتي والقضاء على الأيادي البيضاء معي. هل شعرتُ بإحساس الابن والأب وهو برفقتي؟ لا أدري، فأنا لا أعرف ما هو شعور أن يكون لي أب يحميني. طوال حياتي اعتمدتُ على نفسي ولم أنتظر حماية من أحد. لطالما تخيلتُ في طفولتي أن والدي سيأتي فجأة إلى الجزيرة وسأعانقه بفرح وأشعر أخيرًا أنني إنسان طبيعي. لكن ذلك الحلم قد اختفى في اللحظة التي صرتُ مدركًا فيها أن الحياة لا تعطي للإنسان كل شيء. كان حنان جدتي كافيًا بالنسبة لي وأكبر من أي شعور باليتم من طرف الأب.

دخلنا البرج الذي تم إخلاؤه تمامًا من الحراس كي يتخذوا أماكنهم في الجزيرة لصد الحرب. توجهنا مباشرة نحو القبو وبدأت بمناداة أمي بصوت عالٍ فإذا بي أسمع إجابتها في غرفة بعيدة عني ببضعة أمتار. هنا بدأتْ دقات قلبي تزداد وأنا أتخيل كيف سيكون اللقاء بين والديّ للمرة الأولى. تطلب منا تكسير قفل القبو عدة ضربات كانت آخر ضربة قوية من سيف إيغور القاضية له ليتراجع إلى الخلف كي تخرج أمي. ما إن رأتني حتى أخذتني بين أحضانها غير مبالية بمن يرافقني، سرعان ما سمعت صوت إيغور خلفي قائلًا:

- سيلين؟ هذه أنت؟.

اقشعر جسدي وأنا أتراجع إلى الوراء وأراقب ملامح وجه أمي التي صارت شاحبة وهي تجيب بصوت متقطع أثناء تأملها شكل إيغور:

- مرحبًا إيغور.

اقترب إيغور منها غير مصدق لعينيه ثم قال:

- غير معقول، اعتقدت أنني لن أراك مجددًا.

أجابته بعينين دامعتين:

- وأنا كذلك، لكن القدر جمعنا على طريقته مرة أخرى..

وجَّهَت نظرة تساؤل نحوي فهمتُ أن فحواها إن كان إيغور يعلم أنني ابنه. فأومأتُ برأسي إليها نافيًا. هذا ليس الوقت المناسب لتقليب صفحات الماضي. إن علم إيغور بالحقيقة سيطالب بتفسير. وأنا لا أضمن أن يكون الوقت في صالحي هذا اليوم، فكل لحظة تمر علينا قد تحمل معها حدثًا مفاجئًا.

نظر إليّ مطولًا ثم قال وهو يمرر يده على جبينه:

- لذلك شعرتُ بالألفة مع آدم، لم أتوقع أن يكون ابنك..

ابتسمت أمي بخجل كبير:

- شكرًا لك على حمايتك له.

- لا تشكريني فهو يستحقها عن جدارة. اشكُري شجاعته وقلبه الكبيرين.

فجأة سمعتُ وقع أقدام تركض بعيدًا عن القبو. تدخلتُ بينهما قائلًا:

- يجب أن نتحرك، أعتقدُ أن الأيادي البيضاء هاربون.

عادت أمي إلى غرفة القبو لتجلب حقيبتها قائلة:

- سنعمل معًا للقضاء عليهم.

خرجنا مسرعين من القبو نحو الطابق السفلي لنجد الأشقاء الثلاثة حاملين لصناديق خشبية فارين بها من الباب الخلفي. رمت أمي إحدى القنابل من حقيبتها التي انفجرت على بعد خطوات منهم حتى دفعتهم قوة الانفجار بعيدًا وفُتِحت أحد الصناديق المرتطمة على الأرض ليخرج منها كتاب جلدي بني اللون فهمتُ على الفور أنه النسخة الأصلية للكتاب المقدس. وقفوا ثلاثتهم بشكل منفصل دون الحاجة لإخفاء وجوههم البشعة عنا فقالت فيفيان واثقة:

- هل تعتقد أنك فزتَ الآن بالحرب أيها المختار؟ مخطئ تمامًا.

أجبتها بصوت عالٍ:

- نهايتكم باتت وشيكة. سلموا أنفسكم قبل أن نضطر لقتلكم.

أطلقتْ فيفيان ضحكة شريرة عاليًا ثم رفعت يديها منادية بلغة الشياطين ليلحق نداءها صوت حفيف أفاعي قوي قادم من أحد أروقة البرج. تراجعتُ أنا وأمي وإيغور باحثين عن مصدر الصوت. فإذا بنا نُصعَقُ برؤية أفعى

عملاقة باللون البني تخرج من رواق بجهة اليمين يتعدى طولها العشرة أمتار. وضع إيغور يده على كتفي قائلًا:

- أنت وأمك اذهبا وتوليا أمر الإخوة. سأتكفل بالأفعى.

أجبته:

- هل أنت متأكد؟.

ضحِك واثقًا:

- صدقني لقد توليتُ أمر أشياء أسوأ بكثير.

سلمت له أمي إحدى القنابل قائلة:

- ستحتاج إليها حتمًا.

- أمي، لا أريد أن تخاطري بحياتك.

استطرد إيغور وهو يخرج سيفه قائلًا:

- لا تقلق عليها فهي مقاتلة محترفة.

تبادلا نظرة غريبة تلتها ابتسامة جميلة جعلتني غير قادر على التهرب من إحساس واحد: الفخر، فأنا شئت أم أبيت، سعيدٌ أن والديّ يقفان بجانبي ويقاتلان معي، شيء لم يخطر يومًا على الحسبان ولم يضَع مكانًا له في أحلامي. أخرجَتْ أمي من حقيبتها قوسًا ورماحًا وسلمتها إليّ بينما تكفلت هي بحمل سيف. أما أنا، فقد كانت كلتا يديّ مشغولتين، واحدة بسيف والأخرى بالقوس. بعد إشارة إيغور ركضنا مسرعين نحو الأيادي البيضاء بينما قام هو بإلهاء الأفعى العملاقة عنا. في نفس اللحظة استطعتُ سماع أصوات إطلاق النار والقتال خارج البرج، فعلمتُ حينها أن الحرب قد بدأت، وأنا جزء من حرب مختلفة في هذا المكان.

قفزتُ أمي بشجاعة مقاتلة محترفة منقضة على إليكساندر وهي تقاتله ببسالة جعلتني أصدم كليًا وأنا أرى امرأة مختلفة عن التي عهدتها طوال حياتي. أعطاني ذلك شجاعة كبيرة للقتال من أجل شعبي، وديني، وروح جدتي التي ماتت غدرًا. شحنة من الغضب والثوران تفجرت بداخلي جعلتني أطلق السهام يمينًا وشمالاً على فيفيان التي أصيبت بواحدة منها في يدها لكن ذلك لم يوقفها عن الركض نحوي والقتال. بدأنا بالتدافع وتبادل اللكمات القوية حتى سقط من يدي السيف الذي ما إن حاولتُ الحصول عليه، حتى قامت بدفعه بقدمها ثم همست في أذني قائلة:

– ستلحقُ بجدتك اليوم..

دفعني الاستفزاز الذي تعمدَتْهُ فيفيان القوية إلى مقاومتها بكل ما أملك من طاقة. وصلتْ يدها نحو عنقي بسهولة لتضغط عليه بقوة مانعة كل فرصة لي بالتنفس وهي تنظر مباشرة إلى عينيّ ضاحكة. سمعتُ صرخة أمي التي قتلتْ للتو أليكساندر وركضتْ نحوي كي تنقذني فإذا بها تُفَاجأ بضربة مباغتة من آيدا التي دفعتها بعيدًا ومنعَتْها من الوصول إليّ لتبدأ معها القتال. في تلك اللحظة شعرتُ أنني على وشك الموت جراء الاختناق. تذكرتُ حينها سبب وجودي في هذا المكان، مصير شعبي بعد موتي، نجاتي من الموت عدة مرات.

بعد كل ما عانيته هل سأسمح لعدوتي بأن تقضي عليّ؟ مستحيل. الأسوأ من الموت هو الاستسلام نفسه. وأنا اليوم لن أستسلم. سأقاتل حتى الرمق الأخير، ولتكن مواجهة بين الشيطانة والمختار.

استخرجتُ كل قوتي وأنا أدفعها بعيدًا عني بركلة ثم تراجعتُ إلى الوراء كي ألتقط أنفاسي. حملتُ السيف بين يديّ وقلت لها:

– أقسم باسم القدير الذي اختارني بين كل هؤلاء الناس، أن لا أحد سيقتلك اليوم سواي.

ركضتُ نحوها مسرعًا وبدأتُ بتوجيه الكلمات إليها وأنا أتذكر كل ما فقدتُه بسببها في حياتي. بعد كل ذكرى تزداد قوة ضربي وتخرجُ صرخات مني حتى فقدتُ تمامًا السيطرة على نفسي وغرزتُ السيف في منتصف صدرها. انتشرت الدماء على ردائها الأبيض بشكل سريع، لم تبدُ منهزمة رغم احتضارها، بل كانت آخر كلماتها وهي تضحك قائلة:

- لم ينتهِ بعد كابوسك أيها المختار، حسابك مع سيدي سيكون عسيرًا. ستكون نهايتك على يده.

- أخبري سيدك عندما تذهبين إلى الجحيم، أنني في انتظاره.

ضربتُ السيف بساقي ضاغطًا حتى شعرت أن قلبها قد سُحِق داخل صدرها فتحول جسدها بالكامل إلى رماد. وضعت الوردة السوداء فوقه كما وعدتُ نفسي سابقًا. كانت أمي حينها قد انتهت من قتل آيدا للتو، بينما رمى إيغور قنابل داخل فم الأفعى فانفجرَت من الداخل وانتشرت أشلاؤها في القصر.

بعد الاطمئنان على بعضنا البعض، حملتُ بين يديّ الكتاب المقدس الذي كان مرميًا على الأرض واستعددت لإخبار إيغور بالحقيقة لكن صوت سيلينا وهي تدخل إلى البرج قاطعنا:

- لقد انتصرنا.

تعالت الصدمة وجه إيغور الذي قال:

- بهذه السرعة؟.

أجابته سيلينا:

- العنقاء قام بحرق جل جنود إيفا. بينما رجالنا قاتلوا بشجاعة رجالها وأخضعوا من تبقى منهم.

- ماذا عن إيفا؟.

- تكلف جيبرو بها وقاتلها شخصيًا وهو الآن يحاصرها وينتظر إشارتك لفعل ما تريده بها.

صمت إيغور لثوانٍ ثم قال:

- هيا بنا لنرى ماذا سنفعل.

خرجنا معًا من البرج لنجد الجزيرة قد صارت شبه مدمرة والنيران تحيط بها من كل جهة. كانت الجثث والدماء متناثرة على الأرض بنفس المنظر الذي رأيتُه في كابوسي عندما كنت في أرض الأحاديين. لقد كانت الرؤية صحيحة، إلا أن أعداد الموتى من طرف جيش إيفا أكبر بكثير من أعداد رجالنا.

لمحنا رجال إيغور يحاصرون ما تبقى من رجال إيفا بينما كان العم ألبيرت يضع مسدسًا خلف ظهرها وهي راكعة على ركبتيها رافعة يديها عاليًا. لقد كانت مفاجأة غير متوقعة لها أن تجد إيغور وجيشه الوفي في الجزيرة التي اعتقدت أنها خالية من أي فرصة للمقاومة في حال وضعَت الحرب أوزارها عليها. لكن البطل في هذه الحرب لم يكن أنا أو أيًا منا، بل كان إيماننا بأن الاتحاد يخلقُ المعجزات، وأن الدين واختلاف الأعراق لا يمكن أن يقضي على الدين الموحد لنا جميعًا، دين الإنسانية. لم أتخيل يومًا أن أولئك الأشخاص الذين شعرتُ بالاشمئزاز من أشكالهم وأوشامهم، سيأتون إلى جزيرتنا ويحاربون معنا لنصرة الحق مهما كان الحافز خلفه.

أشعرتني لذة الانتصار بنشوة كبيرة وأنا أرى إيفا راكعة على ركبتيها خاضعة لقوة الحق. لم تبدُ على وجهها ملامح الذل والخوف. كانت تنظر إليّ أنا وإيغور بنظرة قوية تتوعدنا بالانتقام. وقفنا أمامها نحدق فيها فقال لها إيغور:

- أرأيت أين أوصلك طمعك يا أختي؟ وضعتِ نفسك في موقف لا يمكنني مساعدتك فيه.

أجابته ساخرة:

- هل تظن أن دخولك الجزيرة ومساعدتك لهم ستغير شيئًا؟ لن يعتبروك منهم مهما حاولت، ستظل دائمًا في نظرهم الأحادي القذر. لا شيء يربطنا بهم ولن يحصل ذلك مطلقًا. حُلْم أبي في توحيد أرضنا وأرضهم سيتحول إلى كابوس وسترى ذلك بعينيك يومًا ما..

دفعها العم ألبيرت بمسدسه وشرارات الغضب تكاد تخرج من عينيه قائلًا:

- اصمتي وإلا أفرغتُ هذا المسدس في رأسك أيتها الحثالة.

بدا إيغور حائرًا. فرك ذقنه عدة مرات وهو يحوم في مكانه، ينظر إليها تارة ثم يعود وينظر نحو العم ألبيرت العازم على قتلها منتظرًا إشارة منه. رأيتُ في عينيه حيرته الكبيرة. فهو الآن بين نارين، إما أن يقتلها ويريح الناس منها وإما أن يستمع لغريزته التي لا تسمح له بقتل شقيقته. لكنه حاكم عادل، ومستعد لتطبيق العدل مهما كانت صعوبته. قال بحرقة كبيرة:

- تمنيتُ لو كان باستطاعتي أن أعطيك فرصة ثانية. لكن بعد قتلك لأبي ومحاولة تصفية هؤلاء الأشخاص الأبرياء في هذه الأرض، لم يعد أمامي أي عذر لإنقاذك. لقد حفرتِ نهايتك بنفسك. آسف.

أشار للعم ألبيرت كي يطلق الرصاص عليها، ثم دار كي لا يرى المنظر وهو يحاول جاهدًا التماسك. جعلني ذلك أضع نفسي مكانه. تخيلتُ لو كان سيزار مكانها، هل كنتُ سأقتله؟ طبعًا لا. فكيف سأتقبل أن يَقتُل أبي من لا يمكن الهرب من حقيقة أنها عمتي في الواقع. الدماء نفسها تجري في عروقنا شئنا أم أبيْنا. لا يمكنُ أن أسمح لسلسال الدم بأن يقضي على سلالتنا. عمتي تقتل

جدي وأبي يقتل عمتي. فهل أكون أنا الضحية القادمة؟ لن أسمح بحصول ذلك.

لم يكد أن يضغط العم ألبيرت على الزناد حتى تقدمتُ وسط الجموع صارخًا:

- توقف.

اعتلى الاستغراب محياه وهو يتساءل:

- هل ستسمح لها بالعيش بعد كل ما فعَلَتْهُ بنا؟.

- بعد كل ما عانيناه انتصرنا أخيرًا على أكبر أعدائنا، استرجعنا هويتنا وديننا. هذه الأرض المقدسة لا يجب أن تراق فيها دماء بعد الآن. بم سيفيدنا قتلها؟ سنكون بذلك أجبنا على العنف بالعنف. أظن أنه من المعقول سجنُها ومعاقبتها بالقانون والعرف. هي تتحدانا أن الأحاديين والنورانيين لن يتفقوا يومًا. ونحن سنجعلها تعيش بشكل كافٍ حتى ترى بنفسها أننا نستطيع العيش في سلام، حتى تصبِحَ جاهزة للانخراط معنا حينها ستأخذُ فرصتها الثانية التي يستحقها أي شخص في هذا المكان.

بدا ارتياح كبير على وجه إيغور الذي تنفس الصعداء ورسم ابتسامة امتنان على محياه، بينما رد العم ألبيرت بلهجة ساخطة:

- حسنًا كما تريد، لكن تذكر في يوم من الأيام أنني حذرتك منها. فهي كالأفعى، ستنتظرُ اللحظة المناسبة للدغك مهما أكرمتها.

أجابه إيغور:

- لا تقلق يا صديقي، سنحرص على سحقِ أنيابها.

بدون مقاومة وفي هدوء تام، رافقَت إيفا الحراس بعيدًا عنا فحان وقت محاكمة صديقي سيزار. في تلك اللحظة لم يستطع أحد الدفاع عنه أو التدخل. كان الجميع ينتظر مني ردًا. استنجدتُ بإيمو ومايا لكن كليهما مكسوران من خيانة سيزار العظمى. تأملته وهو صامت يتوسط حارسين منتظرًا مصيره الذي وضع بين يديّ. شعرتُ أنني قد وُضِعتُ في موقف لا أحسد عليه، فهو رغم كل ما فعله من خطايا كان السبب في وصولي إلى الجزيرة وعدم كشف هربي لإيفا عن كامل رضاه. لذا وجدتُ أن الوقت قد حان لأرد الدين له وأترك أمره للقدير، إن صلُحَ كان فضلًا، وإن فسدَ لن أتحمل مسؤوليته بعد الآن.

– اتركوه. سيزار حر الآن وله اختيار إن كان يريد أن يظل معنا أو يذهب مع الأحاديين.

بذُلٍ كبير لم يستطع رفع رأسه ومواجهتي واكتفى بهمس كلمة شكر وهو يدخل بين جموع الناس من حولنا. وضع العم ألبيرت سلاحه جانبًا ثم قال لإيغور:

– والآن ماذا سيحصل أيها القائد؟.

ابتسم إيغور مجيبًا:

– أنت الآن في أرض النورانيين. تحدث مع آدم فهو قائدكم.

أجبته:

– أنا لا أنصب نفسي قائدًا على أحد. لكنني أريد أن أقول شيئًا للناس.

تراجعتُ خطوتين حتى وضحَتْ الرؤية أمامي فوجدتُ عيون الجميع موجهة نحوي، عيون ذابلة متعبة متعطشة للإجابة على تساؤلات حول حوادث سريعة حصلت بتعاقب مخيف في ساعات قليلة. قدرتُ موقفهم الذي لا يتعدى سوء موقفي وقلتُ بصوت مرتفع كي يسمعني الجميع:

- أيها الناس، نورانيين كنتم أم أحاديّين. أنتم على هذه الجزيرة تُدْعَوْن بشرًا وإخوة في الإنسانية مهما اختلفت دياناتكم ومعتقداتكم. اليوم كان صعبًا كثيرًا على الجميع، اكتشفنا أننا عشنا مئة سنة من الكذب والخوف والترهيب. لكن كل شيء سيتغير الآن. سنطوي صفحة الماضي خلفنا مع الأيادي البيضاء، ونفتح صفحة جديدة لبداية جديدة. أنا كمختار من القدير قد قمتُ بدوري ووجدتُ الكتاب المقدس الحقيقي لديننا. سنقوم بنسخه من جديد وتوزيعه على الجميع ونتعلم دين الهلييث على حق. لا خوف بعد اليوم من المشوهين خلقيًا. فالقدير لا يخلق شيئًا عبثًا، ولا يوجد نواقص في خلقه. وتكريمًا لكل تلك الأرواح التي ماتت ظلمًا على أيادي أولئك الشياطين، سنعيد بناء الجزيرة ونعيش الحياة التي نستحقها. واقتراحي الإضافي في حال وافق إيغور، هو أن نحقق رغبة والده ماركوس الذي كان يحلم بتوحيد الشعبين لمواجهة الحياة القاسية. نحن لا نعلم إن كنا الوحيدين الموجودين على كوكب الأرض من البشر. لا داعي لأن نرى بعضنا البعض كوحوش وننعزل كليًا. أبواب الجزيرة ستفتح للجميع، سواء كان أحاديًا أو خارج الجزيرة من أي بقعة في الأرض. حلمي أن نتحد ونتبادل أفضل ما يملكه الطرفان لنصير قوة واحدة، بكل حب واحترام لبعضنا البعض. ما رأيك يا إيغور؟.

ابتسم إيغور بفخر ثم قال:

- سيكون شرفًا لي أن أحقق أمنية والدي. نحن نحتاج إليكم كما أنتم تحتاجون إلينا. أبوابنا ستفتح أمامكم في أي وقت. نتبادل الخبرات، ونعطي أفضل ما عندنا لبعضنا البعض. وبالنسبة لكل أحادي أراد أن يدخل دين الهلييث فهو حر تمامًا ولن يتحكم فيه أحد طالما أنا على قيد الحياة. سنعمل معًا على القيام بالاستكشاف حول العالم من أجل جمع أكبر عدد ممكن من الناس وضمهم إلينا.

رفع الجميع أياديهم وصرخوا بأصوات تأييد وتصفيقات حارة جعلتني أشعر وكأنني في حلم جميل لا أريد أن ينتهي. من كان يظن أنني سأكون سببًا في توحيد أكثر شعبين كانا يكرهان بعضهما البعض في السابق. لقد كان مخطط الأيادي البيضاء هو جعلنا نرى الأحاديين على أنهم أشخاص سيئون كي يستفردوا بنا بعد تأكدهم أن المختار سيخرج من جزيرة النور.

عانقتني أمي بحرارة وهي تقول:

- أنا فخورة بك أكثر من أي وقت مضى. وجدتك كذلك.

- شكرًا لك.

همستُ في أذنها:

- أظن أن الوقت قد حان كي أخبر إيغور بالحقيقة.

- أنا سأتكفل بالأمر، من حقه أن يحصل على تفسير مني، وسيحتاج إلى وقت كي يتقبل الأمر.

- حسنًا كما تريدين.

قاطعنا صوت سيلينا وهي تقول بصوت عالٍ:

- أظن أن الوقت قد حان لنحتفل بالنصر. هل تطبخون هنا أم تتناولون كل شيء نيئًا؟.

أجابتها أمي ضاحكة:

- نحن متدينون ولسنا أرانب يا عزيزتي. بالطبع نطبخ، واليوم سنتناول اللحم للمرة الأولى معًا.

قالت سيلينا مازحة:

- إذن سنعتمد على الطائر العملاق كي يشوي اللحم بنيرانه. أشعر بجوع هائل ولن أنتظر طويلاً.

دخلنا جميعًا في حالة ضحك هيستيرية بمشهد تاريخي اجتمع فيه الأحاديّون والنورانيون في أرض واحدة يحتفلون بنصر يوحدهم. راحة نفسية لم أكن أحلم أنني سأصل إليها بعد كل ما عانيناه. ورؤية أصدقائي وأسرتي وكل من أحب حولي سالمين جعلتني أشكر القدير على حمايته لنا في السراء والضراء. للمرة الأولى أشعر بلذة أن أكون المختار. لقد كان كل الجهد الذي بذلْتُه يستحق العناء في النهاية.



وضعتُ زهور الياسمين المفضلة لديها على قبرها مبتسمًا. تمنيتُ لو كانت جدتي معي لتشاركني فرحتي وترفعَ رأسها عاليًا مفتخرة بحفيدها الوحيد. لكن لكل حرب خسائر. وخسارتي كانت فادحة وجعلتني أفقدُ أغلى ما أملك. مهما مرت الأيام ومهما كثُرت إنجازاتي في الحياة، سيظل جزء مفقود من فرحتي وكياني لعدم وجود جدتي «سينا» بالقرب مني. لن أنساها ولن أسمح للدنيا أن تملأ فراغها في قلبي.

غادرتُ المقبرة متوجهًا نحو كوخي الصغير الذي أعدت ترميمه برفقة مايا وإيمو. لقد بات الجلوس فيه مختلفًا اليوم. لم يعد مخبئي من الحياة كما في السابق. الآن صرتُ أعتبره ملجأ الراحة والتواصل مع ذاتي بعيدًا عن ضوضاء الحياة. وقفتُ بجانب النافذة وأنا أراقب الجزيرة من الأعلى.. اليوم بدأتْ أرضي القيام من رمادها والانطلاق في رحلة التجدد والانسلاخ من ترسبات الماضي. كان منظر الأبواب المفتوحة للجزيرة وتعاون الأحاديين والنورانيين في البناء والترميم للبيوت منعشًا بنفس درجة هواء البحر الذي لم تعد أبوابنا تُقفل في وجهه بعد الآن.

سمعتُ طرقات على باب الكوخ معتقدًا أن مايا قد جاءت للاطمئنان عليّ. لكنني وجدتُ إيغور واقفًا يتأملني في صمت، نفس الصمت الذي التزمه طوال أسبوع بعد معرفته بالحقيقة. لم يحدثني، لم يلُم أمي، لم يعاتب أحدًا. بل اختفى عن الأنظار واختلى بصدمته حتى اعتقدتُ أنه لن يعود مجددًا. استأذنني بالدخول ثم جلس على الكرسي عاقدًا ساعديه وقال:

- آسف على غيابي. كنتُ أقوم بتجميع شتات أفكاري طوال الفترة الماضية والانسلاخ من غضبي وصدمتي. من طبعي أنني أفضِلُ الاختفاء على مواجهة الحقيقة كي لا أُسمِعَ من أحبهم كلامًا جارحًا.

جلستُ بالقرب منه قائلًا:

- لا تعتذر. أنا أتفهم ردة فعلك ولا ألومك على أي قرار ستتخذه.

- عندما قبلتُ مساعدتك في الماضي لم يكن لدي أي سبب شخصي. كان الجميع يتساءل لمَ سأتدخل لحماية جزيرة لا علاقة لنا بها. كل ما كنتُ أفكر فيه حينها هو تحقيق أمنية والدي الذي كان حريصًا على إبقاء جزيرة النور سالمة وتوحيدها معنا. والسبب الثاني الخفي، هو ذلك الشعور الغريب الذي كنتُ أحمله في قلبي اتجاهكم بسبب عشقي لوالدتك في يوم من الأيام رغم اختفائها. أما أنت، فكنتَ حالة استثنائية، شخص يجبرني على الانصياع إليه حتى إن لم يكن ابني. أنتَ تحمل أفضل ما في شخصيتي وشخصية سيلين. لذلك انجذبتُ إليك دون أن أشعر. لم أتخيل أن تكون أنت من يحمل دمي بين عروقه.

- شعوري يطابق شعورك. أنا أيضًا عشتُ سنوات على كذبة تلغي وجود أب لي. لكن الصدمات التي مررت بها قبل اكتشاف الحقيقة جعلت قابليتي لتقبلها أسرع وأقوى. لذلك لم أنزعج منك عندما اختفيتَ. وضعتُ نفسي مكانك وشعرتُ بما تشعر به. الفرقُ بيننا هو أنني لم أسمح لكرامتي بأن تجعلني أخسر آخر شخص متبقٍ في عائلتي من أجل سر كنتُ لأخفيه بنفس الطريقة. لن يشعُر بك سوى من عانى مثلك.

وضع يده على يدي قائلًا:

- وهذا ما تعلمتُه منك في الفترة الماضية، أن أضع نفسي مكان الآخرين كي لا يمتلئ قلبي بالكره وأخسر ابني الوحيد. مهما كنتُ لأتمنى ابنًا رائعًا، ما كنتُ لأتخيل أن الزمن سيعطيني شابًا بمثل روعتك.

باغتني بعناق طويل جعلني أشعر بشيء مختلف جدًا وأنا بين أحضانه. لم يكن هذا هو اللقاء الذي حلمتُ به مع أبي خلال طفولتي. ما زال الوضعُ جديدًا عليّ، ما زالت كلمة أبي ثقيلة على لساني. أن تعيش حياتك كاملة وأنت يتيم يجعلُك تروضُ نفسك على الانفراد بنفسك. لذلك فشلتُ في تمثيل دور الابن العاطفي الذي يلتقي بوالده للمرة الأولى. فكان عناقي له عاديًا مثل عناقي لأي صديق عزيز على قلبي. عاد إلى الخلف قائلًا:

- أنا أعلم أنك ما زلتَ لم تتعود على الوضع الجديد. خذ كامل وقتك. لا أحد سيجبرُك على شيء.

ابتسمتُ في وجهه قائلًا:

- شكرًا لك. صحيح أنني لا أشعر اتجاهك بحب الأب لابنه، لكنني سعيد أنك أبي.

أجابني بابتسامة فخر وعيون تقاوم الدموع. احترامًا لمكانته وصلابته، حاولت تغيير الموضوع كي لا ينهار أمامي ويكسر صورته القوية أمام لحظة أبوة ما زالت طرية:

- هل ستظلُ هنا؟.

- نعم، في الفترة الماضية رتبتُ الأمور في أرض الأحاديين والآن سأظل في الجزيرة للإشراف على التجهيزات كاملة بشكل مؤقت..

- جيد. لقد قرر العم ألبيرت أن يعود للعيش هنا برفقة شقيقته أيضًا.

- أعلم ذلك. سيلينا هي الأخرى ستُقسم وقتها بين الجزيرة وأرضها كي تساعدني في الإدارة.

قاطعتنا مايا التي ألقت التحية بخجل ليقوم إيغور مغادرًا:

- حسنًا سأترك عصافير الحب مع بعضهم البعض. أراك لاحقًا يا آدم.

راقَبتْ مايا إيغور وهو يغادر بابتسامة كبيرة ثم قالت:

- هل تمت معالجة كل الأمور بينكما؟.

- نعم كل شيء على ما يرام. تعالي إلى جانبي.

وقفنا معًا بالقرب من النافذة كما تعودنا منذ صغرنا. لكننا اليوم نشعرُ أننا كبرنا كثيرًا في السن. شيوخ بأجسام شابة، عقول متعبة وقلوب مجروحة. رغم كل ما حصل بينهما في الماضي من خصام، كان موتُ والد مايا بالنسبة إليها ضربة موجعة. ما زالتْ ترتدي الأسود حزنًا عليه. بينما رفضْتُ أنا ارتداءه على جدتي لأنني أؤمن أن تلك المرأة التي زرعَتْ السعادة في قلبي خلال حياتها، لن تقبلَ أن يكسوني السواد موتها. نظرَتْ إليّ بعيون متعبة قائلة:

- هل أنت بخير يا آدم؟.

ضحكتُ ساخرًا ثم قلتُ:

- لطالما كنتُ أنا الذي يطمئن عليك في لحظات السكون، ما الذي تغير؟.

- الكثير.. أنا تغيرتُ معك يا آدم. كل ما حصل لنا جعلني أصبح أقوى من أي وقت مضى..

صمتت لثوانٍ ثم قالت:

- لقد باشر العم ألبيرت بطباعة نسخ عن الكتاب المقدس. سيتمُ إعادة تدريسه في المعبد وتوزيعه على الجميع. أشعُرُ كأننا أصبحنا نؤمن بديانة أخرى.

- معك حق. سيتطلب الأمر وقتًا كي نتعود على التجديد. بالمناسبة أين سيزار وإيمو؟.

- إيمو الآن مع والده في بيتهم الجديد، أما سيزار لم أتحدث معه منذ الحرب. رأيتُه يساعد الأحاديين في بناء الحدود الجديدة.

شردنا معًا في منظر البحر حتى قاطعنا صوت العنقاء وهو يحلق على مقربة منا بينما يصرخ الأطفال بسعادة وهم يلحقون به في كل مكان في لعبة مطاردة جميلة تسرُّ الناظر إليها.

- هل حقًا انتهى كابوسنا الآن؟.

عانقتُها وأنا أجيب:

- انتهى جزء منه. لكنني ما زلتُ أجهل ما الذي سيحصل في المستقبل. المهم الآن أننا مجتمعون ومتحدون. لذا مهما كان المجهول القادم مظلمًا، سنواجهه ونحن يد واحدة.

أعلمُ أن قصتي لن تنتهي عند هذا الحد، ما زلتُ خائفًا من المستقبل. لكنني سأحتفظُ هذه المرة بالسر لنفسي. المختار الآن يحتاج إلى استراحة محارب لا أعرفُ كم ستدوم من الوقت. اليوم نجحنا في المعركة، لكن الحربَ لم تحِن بعد. حربي مع الشيطان الذي لا يزال يسكنني، والحرب التي ستقع يوم الانعتاق بين البشر والشر الأعظم الذي سيعصِفُ بأرضنا في يوم من الأيام..



«في يوم اجتمعت فيه كل مخلوقات الله، ورُفعت الحجب عن المنسيين، ستنشقُ الأرض وتنقسم السماء معلنة أن يوم الانعتاق قد حان. ستسُود الدماء كل الذهب الأبيض ويمسكُ المختار بعصاه معلناً معركته بمباركة القدير والملائكة السبعة والسبعين. الخير ضد الشر، الماء ضد النار، والإيمان ضد الخوف..»

(كتاب «الهلبيث» المقدس، الفصل العاشر، الصفحة السابعة والسبعون)